



عناصر الموضوع



مفهوم الاحصان

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (حصن) في المعاجم اللغوية حول معاني المنع والحفظ والحياطة والحرز والحماية والعناية سواء الحسي منها أو المعنوي، وقد تجتمع هذه المعاني في الشيء الواحد حسيًا ومعنويًا. فكل ما أحرز وحفظ ومنع فهو محصن وكل ما أحرز وحفظ ومنع فهو محصن، ومنها: المرأة والرجل والأمة: وامرأة حصانٌ، بفتح الحاء: عفيفةٌ بينة الحصانة، والحصن بالضم العفة وكذا الإحصان[١]. وحاصنة الرجل: امرأته؛ والضاد لغة فيه[٢]، والمحصنات: العفائف من النساء.

والأمة: إذا زوجت جاز أن يقال قد أحصنت؛ لأن تزويجها قد أحصنها، وكذلك إذا أعتقت فهي محصنة؛ لأن عتقها قد أعفها. وكذلك إذا أسلمت فإن إسلامها إحصانٌ لها.

وعليه فالمرأة تكون محصنة بالإسلام والعفاف والحرية والتزويج.

والرجل: ورجلٌ محصنٌ: متزوج[٣]، وحكى ابن الأعرابي: أحصن الرجل تزوج، فهو محصن، بفتح الصاد. رجلٌ محصن: أي عفيف، ومحصن: أحصنته امرأته.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يختلف تعريفه في الاصطلاح بحسب نوعيه: الإحصان في الرجم، والإحصان في القذف.

إحصان الرجم: الحال التي يستغني بها المكلف عن الوقوع في الزنى وتوجب عليه الرجم فيه.

إحصان القذف: الحال التي تثبت بها عفة المقذوف مع ما يستوجب تحقق الفرية واستحقاق الحد على القاذف[٤].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١١٩.

(٢) المغرب في ترتيب المعرب، المطرزي ١/ ٢٠٧

(٣) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١٢١

(٤) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ٣٧، التعريفات، الجرجاني ص ٤٠، دستور العلماء، القاضي نكري ١/ ٣٨.

الاحصان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (حصن) في القرآن الكريم (١٨) عشرة مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[الأنبياء:٩١]
الفعل المضارع	٩	﴿لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾[الأنبياء:٨٠]
اسم الفاعل	٤	﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾[النساء:٢٤]
اسم المفعول	٩	﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾[النساء:٢٤]
مصدر	١	﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣]
اسم	١	﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾[الحشر:٢]

وجاء الإحصان في القرآن الكريم على أربعة أوجه[٢]:

أحدها: العفة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[الأنبياء:٩١]. أي: عفت عن الفاحشة[٣].

والثاني: الحرية: ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء:٢٥]. المراد بهن الحرائر[٤].

والثالث: التزوج: ومنه قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾[النساء:٢٤]. أي: المتزوجات[٥].

والرابع: الإسلام[٦]: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾[النساء:٢٥][٧].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٠٦.
(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ١/ ٤١٧.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٣/ ٤٦٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٣٢.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٥١٦.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري، ٨/ ١٩٥.
(٧) وهو أحد القولين، وروي ذلك عن عبد الله بن مسعود، وابن عمر، وأنس، وغيرهم.

الألفاظ ذات الصلة

١ الزواج:

الزواج لغةً:

(زوج) الزاء والواو والجيم أصلٌ يدل على مقارنة شيءٍ لشيءٍ، من ذلك الزوج زوج المرأة، والمرأة زوج بعلها، وهو الفصيح، ويقال: لفلانٍ زوجان من الحمام، يعني: ذكرًا وأنثى[(١)].

الزواج اصطلاحًا:

هو: عقد يقصد به حل استمتاع كل من الزوجين بالآخر وائتناسه به طلبًا للنسل على الوجه المشروع، أو هو: عقد يرد على ملك المتعة قصدًا[(٢)]، أو هو: عقد يفيد حل استمتاع كل من العاقدين بالآخر على الوجه المشروع[(٣)].

الصلة بين الإحصان والزواج:

الزواج هو وسيلة الإحصان المشروعة في الشريعة الإسلامية.

٢ العفة:

العفة لغةً:

قال ابن منظور: «العفة: الكف عما لا يحل ويجمل»[(٤)].

العفة اصطلاحًا:

قال الراغب: «العفة حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر»[(٥)].

الصلة بين الإحصان والعفة:

من لم يستطع الإحصان بالزواج فعليه لزوم العفة.

انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٢٨.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٣٥.

(٢) انظر: كنز الدقائق، النسفي ٢/ ١٧٤ مع شرحه النهر الفائق.

(٣) انظر: الأحوال الشخصية، أبو زهرة، ص١٧.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٥٣.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٤٤٠.

٣ الزنا:

الزنا لغة:

زنأ في الجبل إذا صعد، والزناء: الضيق والضيق جميعًا، وكل شيء ضيق زناءٌ[١]، والزنا يمد ويقصر: زنى يزني زنىً، مقصور، وزناءً ممدودٌ، والمرأة تزاني مزاناةً وزناء أي: تباغي[٢].

الزنا اصطلاحًا:

هو اسم لوطء الرجل امرأةً في فرجها من غير نكاحٍ ولا شبهة نكاحٍ بمطاوعتها. أو هو: إدخال فرجٍ في فرجٍ مشتهًى طبعًا محرمٍ شرعًا[٣].

الصلة بين الإحصان والزنا:

يختلف عقوبة الزاني المحصن وغيره في الشريعة الإسلامية؛ تغليظًا وتخفيفًا.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٩١

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٢٦ ٣٠، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٨٧٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٥٩، التفسير المنير، الزحيلي، ١٨/ ١٣٢.

أنواع الإحصان

قسم العلماء الإحصان إلى نوعين: إحصان الرجم، وإحصان القذف، وقد عرفنا كلًا منهما فيما سبق، والفرق بين إحصان الرجم وإحصان القذف، أن الأول حال للجاني، والثاني حال للمجني عليه.

وعليه فالمحصن في حد الزنى غير المحصن في حد القذف[1].

ويترتب على هذا الفرق أنه لا يتحقق حال الإحصان في حد الزنى إلا بوجود النكاح الصحيح، والوطء، والتكليف حال الوطء، كما لا يتحقق حال الإحصان في حد القذف إلا بالعفة عن الزنى، وسنفصل القول عن هذين النوعين من خلال النقاط الآتية:

أولًا: إحصان الرجم:

ذكرنا فيما سبق أن إحصان الرجم يعني الحال التي يستغني بها المكلف عن الوقوع في الزنى وتوجب عليه الرجم فيه، وهذا يعني ما أجمع عليه العلماء أن الرجم لا يكون إلا على من زنى وهو محصن.

ويفسر التعريف السابق لمعنى إحصان الرجم بأن يكون المكلف البالغ الحر العاقل قد جامع في عمره، ولو مرة واحدة، في نكاح صحيح، والرجل والمرأة في هذا سواء، وكذلك المسلم، والكافر، والرشيد، والمحجور عليه لسفه.

وأجمع أهل العلم على أن من زنى، وهو محصن يرجم، ولم نعلم بأحد من أهل القبلة خالف في رجم الزاني المحصن، ذكرًا كان أو أنثى، إلا ما حكاه القاضي عياض وغيره عن الخوارج، وبعض المعتزلة كالنظام وأصحابه، فإنهم لم يقولوا بالرجم، وبطلان مذهبهم واضح من النصوص الصحيحة الصريحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعده[2].

وقد روى الشيخان في صحيحيهما: أن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة سمع عبد الله بن عباس يقول: قال عمر بن الخطاب، وهو جالس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله قد بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان، أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل، أو الاعتراف)**[3].

(١) المطلع على ألفاظ المقنع البعلي ص ٤٥٣.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٧٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنى، ٨/ ١٦٨، رقم ٦٨٢٩، ٦٨٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود،

قال الشنقيطي رحمه الله: فهذا الحديث الذي اتفق عليه الشيخان، عن الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، دليل صريح صحيح على أن الرجم ثابت بآية من كتاب الله، أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرأها الصحابة، ووعوها، وعقلوها وأن حكمها باق؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم فعله والصحابة رضي الله عنهم فعلوه بعده(١).

وقد ثبت الرجم بفعل النبي صلى الله عليه وسلم كما ثبت بقوله، وكذلك بإجماع الصحابة والتابعين فقد ثبت بالروايات الصحيحة التي لا يتطرأ إليها الشك، وبطريق التواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام حد الرجم على بعض الصحابة كماعز، والغامدية، وأن الخلفاء الراشدين من بعده قد أقاموا هذا الحد في عهودهم، وأعلنوا مرارًا أن الرجم هو الحد للزنى بعد الإحصان.

ثم ظل فقهاء الإسلام في كل الأعصار وفي كل الأمصار مجمعين على كونه حكمًا ثابتًا، وسنة متبعة وشريعة إلهية قاطعة، بأدلة متضافرة لا مجال للشك فيها أو الارتياب(٢).

هذا الرجم الثابت شرطه الإحصان بالمعنى الذي ذكرناه سابقًا، ولما ارتبط هذا المعنى بتلك الحال سمي هذا النوع من الإحصان إحصان الرجم.

وشروط الإحصان أقصد إحصان الرجم، الذي يجب على من توفرت فيه وزنى إقامة الحد، هي: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، والعقد الصحيح، والوطء المباح الذي لا شبهة فيه، وعبر بعضهم عن الأخيرين بالتزوج بنكاح صحيح، ودخول معتبر(٣).

وزاد بعضهم: أن لا يبطل إحصانهما بالارتداد، وأن يكون كل واحد من الزوجين مساويًا للآخر في شروط الإحصان، فلو تزوج الحر المسلم البالغ العاقل أمة أو صبية أو مجنونة أو كتابية ثم دخل بها فلا يصير محصنًا، وهو بعيد(٤).

وقال بعضهم في شرط الإسلام: بل يرجم الكافر لحديث اليهوديين اللذين زنيا بعد الإحصان ورجمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم(٥)، وقصة رجمهما مشهورة مع صحتها؛ كما هو معلوم.

ولا يشترط الإحصان في الرقيق، فيقام

باب رجم الثيب في الزنى، ٣/ ١٣١٧، رقم ١٦٩١ واللفظ له.

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٧٢.

(٢) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١ / ٢٩٧.

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة الحسني ٥/ ٧٣.

(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي١٨/ ٨٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد ١ / ٤٤٦، رقم ١٣٢٩، و ٤٥٥٦، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

الحد على من أحصن، ومن لم يحصن منهم، لقول علي رضي الله عنه: (يا أيها الناس، أقيموا على أرقائكم الحد، من أحصن منهم ولم يحصن، فإن أمةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم زنت، فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: أحسنت)، وفي رواية قال له: اتركها حتى تماثل[(١)].

ثانيًا: إحصان القذف:

وأما إحصان القذف فهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٤-٥].

يخبر الله جل ثناؤه بأن الذين ينتهكون حرمات المؤمنين، فيرمون العفائف الشريفات الطاهرات بالفاحشة، ويتهمونهن بأقدس وأثمن شيء لدى الإنسان فينسبونهن إلى الزنى، ثم لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهداء عدول، يشهدون عليهن بما نسبوا إليهن من الفاحشة فاجلدوا الذين رموهن بذلك ثمانين جلدة، لأنهم فسقة كذبة يتهمون الأبرياء، ويحبون إشاعة الفاحشة، وزيدوا لهم في العقوبة بإهدار كرامتهم الإنسانية، فلا تقبلوا شهادة أي واحد منهم ما دام مصرًا على بهتانه، وأولئك عند الله من أسوأ الناس منزلة وأشدهم عذابًا، لأنهم فساق خارجون عن طاعة الله عز وجل، لا يحفظون كرامة مؤمن، ويقعون في أعراض الناس شأن أهل الضلال والنفاق، الذين يسعون لتهديم المجتمع الإسلامي وتقويض بنيانه، وأما إذا تابوا وأنابوا وغيروا سيرتهم وأصلحوا أحوالهم، ورجعوا عن سلوك طريق الغي والضلال فاعفوا عنهم واصفحوا، واقبلوا اعتذارهم، وردوا إليهم اعتبارهم، فإن الله غفور رحيم، يقبل توبة عبده إذا تاب وأناب وأصلح حاله[(٢)].

وقد نصت هذه الآية على بيان حكم القاذف للمحصنة، وهي: الحرة البالغة العفيفة، وأنه يترتب على قذفه هذا ثلاثة أمور، وذلك إذا لم يأت بأربعة شهداء يشهدون برؤيتهم الواقعة:

الأول: أن يجلد ثمانين جلدة هو ومن معه إذا لم يتموا أربعة شهداء.

الثاني: أن ترد شهادته أبدًا.

الثالث: أنه فاسق ليس بعدل لا عند الله،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب تأخير الحد عن النفساء، ٣ / ١٣٣٠ ١٧٠٥، وانظر: روح المعاني ١٨/ ٨٢. وتفسير سورة النور ١/ ١٤.

(٢) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١ / ٣١٦.

ولا عند الناس[1].

وإن كانت الآية قد نصت على قذف الذكور للإناث، إلا أن الإجماع منعقد على أن قذف الرجل داخل في الآية بالمعنى، فقذف الذكور للذكور، أو الإناث للإناث، أو الإناث للذكور لا فرق بينه وبين ما نصت عليه الآية، للجزم بنفي الفارق بين الجميع[2].

وذكر الله تعالى في الآية النساء لأنهن أهم، ورميهن بالفاحشة أشنع، وأنكر للنفوس[3].

وللقذف عند العلماء شروط تسعة:

شرطان في القاذف وهما:

١. العقل.

٢. البلوغ.

وشرطان في المقذوف به:

١. وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه حد؛ كالزنى واللواط.

٢. أو بنفي الولد عن أبيه.

وخمسة في المقذوف:

١. العقل.

٢. البلوغ.

٣. الإسلام.

٤. الحرية.

٥. الإحصان وهو بمعنى العفة عن الفاحشة التي رمي بها، كان عفيفًا من غيرها أم لا[4].

واتفق العلماء على أنه إذا صرح بالزنى كان موجبًا للحد، فإن عرض وكان يفهم منه معنى القذف فهمًا واضحًا من القرائن فإن صاحبه يحد؛ لأن الجناية على عرض المسلم تتحقق بكل ما يفهم منه ذلك فهمًا واضحًا، ولئلا يتذرع بعض الناس لقذف بعضهم بألفاظ التعريض[5].

ومن حرص شريعة الإسلام على الستر وعدم إشاعة الفاحشة في المجتمع المسلم، أن الزنى هو الحكم الوحيد الذي يفتقر إلى أربعة شهداء دون سائر الحقوق؛ رحمة من الله بعباده وسترًا لهم[6].

ويشترط في الشهود الأربعة على واقعة الزنى أن يكونوا جميعًا رجالًا، ولا شهادة للنساء في الحدود لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء:١٥][7].

وأن يروا الفرج في الفرج كالمرود[8] في

---

(١) انظر: تفسير سورة النور، ابن تيمية ص ٣٧، ٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٤.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٨٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٧٢.

(٤) انظر: المصدر السابق نفسه.

(٥) انظر: المصدر السابق ١٢/ ١٧٣- ١٧٤، أضواء البيان ٦/ ٩٤- ٩٩.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٧٦.

(٧) انظر: روح المعاني، الألوسي١٨/ ١٠٨

(٨) المرود: هو الميل الذي يوضع في المكحلة. انظر: عون المعبود على سنن أبي داود لشمس

المكحلة، وأن تكون رؤيتهم في موطن واحد، وإن اضطرب أحدهم في شهادته جلد الثلاثة الباقين، كما فعل عمر رضي الله عنه في قصة المغيرة، حيث شهد عليه أبو بكرة الثقفي، وأخوه نافع، وشبل بن معبد وزياد بن أبيه بالزنى، فلما استشهدهم عمر اضطرب زياد، فلم يشهد بصراحة الزنى، فجلد عمر الباقين[(١)].

واتفق أهل العلم على أن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النور:٥] لا يرجع على الجلد؛ لأنه قد حصل، واختلفوا هل يرجع الاستثناء على عدم قبول الشهادة والفسق، فإذا تاب قبلت شهادته ورفع عنه الفسق، أم أن الاستثناء يعود على الجملة الأخيرة، فيرفع عنه الفسق، ولكن لا تقبل شهادته أبدًا.

قال بالأول الجمهور، وبالثاني أبو حنيفة، واستدل للجمهور بأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها مع كون الكلام واحدًا في واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب، وبأن التوبة تجب ما قبلها، والزاني نفسه إذا تاب قبلت توبته.

واستدل من خالفهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ [النور:٤]، وأن الضمير يعود لأقرب مذكور، والصواب قول الجمهور[(٢)].

وحد القذف لا يقام على القاذف إلا إذا طلب المقذوف إقامة الحد عليه؛ لأنه حق له[(٣)].

ومن قذف جماعة بكلمة واحدة فعليه حد واحد؛ لأن الحد إنما وجب بإدخال المعرة والنقص على المقذوفين، فإذا حد حدًا واحدًا ظهر كذب القاذف، وزالت المعرة، وحصل به شفاء الغيظ بحده، أما من رمى جماعة بكلمات، فإنه يتعدد عليه الحد بعدد الكلمات التي قذف بها؛ لأنه قذف كل واحد قذفًا مستقلًا لم يشاركه فيه غيره، ولو حد حدًا واحدًا لم يظهر به كذبه على الثاني، ولا تزول عنه به المعرة[(٤)].

الحق العظيم آبادي ١٢/ ٧٢.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٨٤ و ١٢/ ١٧٨.

(٢) انظر: تفصيل المسألة في: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٧٨- ١٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٤- ٤٢٥، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٣، ١٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٨٩- ٩٢.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٠١.

(٤) انظر: المصدر السابق ٦/ ١٠٤- ١٠٧.

شروط نكاح المحصنات

الشروط العامة للنكاح تنقسم إلى أقسام نذكرها ملخصة للإفادة، ومظانها في كتب الفقه، وهي تنقسم إلى أربعة أقسام:

١. شروط الانعقاد: وهي الشروط الخاصة بأركان العقد وبها يوجد العقد وبدونها ينعدم ويعتبر باطلًا، وهي شروط في العاقد والمعقود عليه وصيغة العقد.

٢. شروط الصحة: وهي الشروط التي يصح بها العقد ويترتب عليه آثاره، وبدون هذه الشروط يفسد العقد، مثل: التأبيد في العقد، ووجود الولي والشهود، وعدم الإكراه، وأن تحل المرأة للرجل.

٣. شروط اللزوم: وهي الشروط اللازمة لبقاء العقد واستمراره، وبدونها يكون العقد جائزًا، ويقع خيار الفسخ لمن له حق الخيار، مثل: الكفاءة والصداق.

٤. شروط النفاذ: وهي التي بها تترتب الآثار على العقد، وبدونها يكون العقد موقوفًا على إجازة من له حق الإجازة، وهي خاصة بزواج الفضولي، ومن ليس له ولاية على الزوجين.

لكن الذي يعنينا هنا الشروط الخاصة المنبثقة من آيات نكاح المحصنات من المؤمنات الحرائر والإماء ومن نساء أهل الكتاب وسبايا الجهاد، سنعرض لذلك كله من خلال المطالب الآتية:

أولًا: المحصنات من المؤمنات:

١. شروط نكاح الحرائر.

أما الشروط التي حددها الشرع في جواز زواج المسلم من المسلمة الحرة فهي على النحو التالي:

الشرط الأول: الإحصان.

والمحصنات، أي: العفيفات المحصنات لفروجهن، فوجود العفة في المرأة شرط للزواج منها.

قال الله عز وجل: ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة:٥].

والخَدِين: الخليل الذي يزني بالمرأة تحت أي اسم.

وقال عز وجل: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٣].

فاقتضى هذا أن الزاني لا يطأ إلا مثله من الزواني أو المشركات، كما أنه لا يطأ الزانية أو المشركة إلا زانٍ مثلها أو مشرك، وقد حرم الله الزنى على المؤمنين والمؤمنات، فلا يتزوج زانٍ امرأة عفيفة، إلا بعد أن يتوب إلى الله التوبة النصوح بشروطها المعلومة، ولا يتزوج زانية من عفيف إلا بعد توبتها التوبة النصوح بشروطها المعلومة.

الشرط الثاني: إذن الولي.

والمراد أن يكون النكاح بإذن من له الولاية على المرأة، والأصل فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل)[1].

الشرط الثالث: وجوب الصداق للزوجة ما لم تهبه لزوجها.

والأصل في وجوبه قول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء:٤].

وقوله عز وجل: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠]. يعني: صداقهن.

ويدل بمفهومه أن النكاح بدون الأجور فيه جناح، وأما وقد جاء النص بهذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

فهبة المرأة نفسها بدون صداق خاص به صلى الله عليه وسلم، فقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يحله لغيره صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، ظاهر في أن النكاح لا يصح إلا بإتيان الأجور.

وقد جاء ما يدل على صحة العقد بدون إتيان الصداق كما في قوله تعالى ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة:٢٣٦].

وقد ذكر الفقهاء حكم المفوضة أنه إن دخل بها فلها صداق المثل، ويدل لإطلاق الأجور على الصداق قوله تعالى في نكاح الإماء لمن لم يستطع طولًا للحرائر: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء:٢٥]. وفي نكاح أهل الكتاب قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ﴾ [المائدة:٥].

وقوله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وبهذا كله يرد على من استدل بلفظ الأجور على نكاح المتعة في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:٢٤][2].

وأهل السنة والجماعة مجمعون على أن المقصود بالأجور المهور خلافًا للإمامية

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ١ / ٦٣٤ رقم: ٢٠٨٣. قال الألباني: صحيح.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٨ / ١٠١ - ١٠٢.

الذين يستدلون بذلك على جواز زواج المتعة، وهو التفسير الذي نعارضه استنادًا إلى تحريم زواج المتعة عام خيبر وأبيح بعدها، ثم حرم وجدد الرسول صلى الله عليه وسلم النهي عنه وأكده يوم الفتح ويوم أوطاس وفي حجة الوداع[1].

٢. شروط نكاح المملوكات.

أباح الله تعالى نكاح الإماء المملوكات بثلاثة شروط: اثنان منها فى الناكح، والثالث فى المنكوحة.

فأما اللذين في الناكح:

١. عدم القدرة على نكاح الحرة بألا يجد مهر حرة، ولا ثمن أمة.

قال في التحرير: «وكان نكاح الإماء المسلمات مشروطًا بالعجز عن الحرائر المسلمات»[2].

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥].

والآية تفيد بمضمونها أنه لا يحل الزواج من الإماء، إلا إذا كان المسلم الحر ليس فى قدرته أن يتزوج امرأة حرة، ومذهب الشافعي أن يكون غير واجد لما يتزوج به الحرة المؤمنة من الصداق، وهو معنى قوله:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥].

فعدم استطاعة الطَول عبارة عن عدم ما ينكح به الحرة، كما يقول الرجل: لا أستطيع أن أحج إذا كان لا يجد ما يحج به[3].

فإن قيل: الرجل إذا كان يستطيع التزوج بالأمة يقدر على التزوج بالحرة الفقيرة، فمن أين هذا التفاوت؟

قلنا: كانت العادة في الإماء تخفيف مهورهن ونفقتهن، لاشتغالهن بخدمة السادات، وعلى هذا التقدير يظهر هذا التفاوت.

٢. خوف العنت.

وهو المذكور فى آخر الآية وهو قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

أي: بلغ الشدة في العزوبة، أو خوف الزنى، وهذا قول ابن عباس والشعبي وابن جبير ومسروق ومكحول وأحمد ومالك والشافعي، وقد روي عن علي والحسن وابن المسيب ومجاهد والزهري، قالوا: ينكح الأمة وإن كان موسرًا[4].

وأما الشرط الذي في المنكوحة:

أن تكون الأمة مؤمنة لا كافرة[5]؛ لقوله: ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٩/ ١٨٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٤٦١.
(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٣٩٤.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٨ - ٥٩.
(٥) لباب التأويل، الخازن ١/ ٥١١.

فالقيد الأول مستفاد من قوله: ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ﴾ أي: من فتيات المسلمين، لا من فتيات غيركم، وهم المخالفون في الدين، والقيد الثاني من وصف الفتيات بالمؤمنات.

أما فائدة القيد الأول فهي أن الولد تابع للأم في الحرية والرق، وحينئذٍ يعلق الولد رقيقًا على ملك الكافر(١).

وهو قولٌ جائزٌ، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار، وإليه ذهب مالكٌ والشافعي وأحمد، فإن الأمة إذا كانت كافرة كانت ناقصة من وجهين: الرق والكفر، ولا شك أن الولد تابع للأم في الحرية والرق، وحينئذ يعلق الولد رقيقًا على ملك الكافر، فيحصل فيه نقصان الرق ونقصان كونه ملكًا للكافر(٢)، وما ذكرناه هو المطابق لمعنى الآية، ولا يخلو ما عداه عن تكلف لا يساعده نظم الآية(٣).

وأما فائدة القيد الثاني، فالحذر من اجتماع النقصانين الكفر والرق.

وهذا قول مجاهد وسعيد والحسن ومذهب مالك والشافعي، وجوز أصحاب الرأي للحر نكاح الأمة(٤).

أما أبو حنيفة فإنه يقول بجواز نكاح الأمة ولو كانت كتابية، إن لم يكن عنده زوجة حرة، فإن كان متزوجًا بحرة؛ فإنه لا يجوز له أن يتزوج أمة مطلقًا لا مسلمة ولا كتابية، وإن عقد عليها كان عقده باطلًا.

وقد بنى حكمه هذا على أساس تفسيره للطَول بأنه الزواج بحرة، وعنده أن نكاح الأمة المؤمنة أفضل من الكتابية، فحمل التقييد في الآية على الفضل، لا على الوجوب، قياسًا على جواز نكاح الحرة الكتابية، بالإجماع مع وصف الحرائر أيضًا بالمؤمنات(٥).

ومعظم علماء الإسلام على أن هذا الوصف جريًا على الغالب، ولعل الذي حملهم على ذلك أن استطاعة نكاح الحرائر الكتابيات طول، إذ لم تكن إباحة نكاحهن مشروطة بالعجز عن الحرائر المسلمات، وكان نكاح الإماء المسلمات مشروطًا بالعجز عن الحرائر المسلمات، فحصل من ذلك أن يكون مشروطًا بالعجز عن الكتابيات أيضًا بقاعدة قياس المساواة. وعلة ذلك أن نكاح الأمة يعرض الأولاد للرق، بخلاف نكاح الكتابية(٦).

وأما المالكية والشافعية فقد قالوا: الطَول: السعة والقدرة على المهر والنفقة، فمن عجز عن مهر الحرة ونفقتها وهو قادر على الزواج من أمة فإنه يجوز له الزواج بها،

(١) غرائب القرآن، النيسابوري ٢ / ٤٧٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ١٤٢٤.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٦٣.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦/ ٣١٩.
(٥) غرائب القرآن، النيسابوري ٢ / ٤٧٨.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣ / ٤٦١.

ولو كانت عنده زوجة حرة.

نكاح إماء أهل الكتاب:

ويتصل بهذا الشرط مسألة نكاح إماء أهل الكتاب، ففي قوله عز وجل: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[المائدة: ٥].

ذهب مجاهد وأكثر الفقهاء إلى أن الإحصان في هذه الآية بمعنى الحرية وأجازوا نكاح كل حرة، مؤمنة كانت أو كتابية فاجرة كانت أو عفيفة، وحرموا إماء أهل الكتاب أن يتزوجهن المسلم بحال، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

فشرط في نكاح الإماء الإيمان.

وقال آخرون: إنما عنى الله تعالى بالمحصنات في هذه الآية العفائف من الفريقين إماءً كن أو حرائر، فأجازوا نكاح إماء أهل الكتاب بهذه الآية، وحرموا البغايا من المؤمنات والكتابيات، وهذا قول أبي ميسرة والسدي.

وقال الشعبي: إحصان اليهودية والنصرانية أن تغتسل من الجنابة، وتحصن فرجها[١].

وتخصيص جواز نكاح الإماء بالمؤمنات لغير واجد طول الحرة، هو مذهب أهل الحجاز. فلا يجوز له نكاح الأمة الكتابية، وبه قال: الأوزاعي، والليث، ومالك، والشافعي. وذهب العراقيون أبو حنيفة وأبو يوسف وزفر ومحمد والحسن بن زياد والثوري ومن التابعين الحسن ومجاهد إلى جواز ذلك. ونكاح الأمة المؤمنة أفضل، فحملوه على الفضل لا على الوجوب كما بينا من قبل. واستدلوا على أن الإيمان ليس بشرط بكونه وصف به الحرائر في قوله: ﴿أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

وليس بشرط فيهن اتفاقًا، لكنه أفضل[٢].

استدل من أباح نكاح الإماء بلا شرط، ونكاح العبد الحرة، بعموم الآية: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٢].

وأنت تعلم أنها لم تبق على العموم، والذي أميل إليه أن الأمر لمطلق الطلب، وأن المراد من الإنكاح المعاونة والتوسط في النكاح، أو التمكين منه، وتوقف صحته في بعض الصور على الولي يعلم من دليل آخر[٣].

وجوز أبو حنيفة ذلك لعموم قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣].

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٢٢٩.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٨/ ١٤٨.

وقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور:٣٢].

وقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء:٢٤].

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥].

والمراد بهذا الإحصان العفة.

والجواب أن آيتنا خاصة، والخاص مقدم على العام؛ ولأنها دخلها التخصيص فيما إذا كان تحته حرة، واتفقوا على أنه لا يجوز وطؤها بملك اليمين[١].

ظاهر قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

يقتضي كون الإيمان معتبرًا من الحرة، فعلى هذا لو قدر على طول حرة كتابية، ولم يقدر على طول أمة مسلمة؛ فإنه يجوز له أن يتزوج بالأمة، وأكثر العلماء على أن ذكر الإيمان ندب في الحرائر، ولا فرق بين الأمة المؤمنة والكتابية في كثرة المؤمنة وقلتها[٢].

ونلاحظ هنا:

أن التعبير عن الإماء بقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

تكريم لهؤلاء الأرقاء، وإعزاز لإنسانيتهن، وتعليم للمسلمين أن يلتزموا الأدب في مخاطبتهم لأرقائهم، ولذا ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، ولكن ليقل: فتاي وفتاتي**)[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [النساء:٢٥].

جملة معترضة سيقت بين إباحة النكاح من الإماء المؤمنات وبين صورة العقد عليهن تأنيسًا للقلوب، وإزالة للنفرة عن ناكح الإماء ببيان أن مناط التفاخر إنما هو الإيمان لا التباهي بالأحساب والأنساب[٤]، فقد تكون الأمة أشد أيمانًا وأعظم ديانة من غيرها.

وهذا التشريع الإسلامي ما هو إلا تسهيل من الله ورفعٌ للحرج[٥] ومن رحمة الله تعالى بعباده وهو إباحة نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر لمن خشي الضرر على نفسه.

يصبح المعنى التشريعي بعد هذا

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٦ / ٣١٩.
(٢) المصدر السابق ٦ / ٣٢٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب التطاول على الرقيق، ٢/ ٩٠١، رقم ٢٤١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة ٢ / ٩٠١، رقم ٢٢٤٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) الوسيط، سيد طنطاوي، ١ / ٩١٦.
(٥) تيسير التفسير تفسير القطان ١ / ٢٨٣.



البيان السابق: فمن لم يستطع منكم نكاح الحرائر المؤمنات فله أن يتجاوزهن إلى ما يستطيع من المملوكات المؤمنات، والله أعلم بحقيقة إيمانكم وإخلاصكم، ولا تستنكفوا من نكاحهن، فأنتم وهن سواء فى الدين، فتزوجوهن بإذن أصحابهن، وأدوا إليهن مهورهن التي تفرضونها لهن، حسب المعهود بينكم فى حسن التعامل وتوفية الحق، واختاروهن عفيفات، فلا تختاروا زانية معلنة ولا خليلة، فإن أتين الزنى بعد زواجهن فعقوبتهن نصف عقوبة الحرة، وإباحة نكاح المملوكات عند عدم القدرة جائز لمن خاف منكم المشقة المفضية إلى الزنى، وصبركم عن نكاح المملوكات مع العفة خير لكم، والله كثير المغفرة، عظيم الرحمة[1].

ثانيًا: المحصنات من أهل الكتاب:

اتفق العلماء على أنه لا يجوز تزويج المسلمة للكافر مطلقًا، وأنه لا يجوز تزويج المسلم للكافرة إلا أن عموم هذه الآيات خصصته آية «المائدة»، فأبانت أن المسلم يجوز له تزوج المحصنة الكتابية خاصة؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

فقوله تعالى عاطفًا على ما يحل للمسلمين: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ صريح في إباحة تزويج المسلم للمحصنة الكتابية، والظاهر أنها الحرة العفيفة، أي: العفيفات من أهل الكتاب، وهذا قول جمهور العلماء، وبه قال الأئمة الأربعة[2].

فالحاصل أن التزويج بين الكفار والمسلمين ممنوع في جميع الصور، إلا صورة واحدة، وهي تزوج الرجل المسلم بالمرأة المحصنة الكتابية، والنصوص الدالة على ذلك قرآنية، كما رأيت.

والمعنى الإجمالي للآية: وأحل لكم أيها المؤمنون نكاح المحصنات، وهن الحرائر من النساء المؤمنات، العفيفات عن الزنى، وكذلك نكاح الحرائر العفيفات من اليهود والنصارى إذا أعطيتموهن مهورهن، وكنتم أعفاء غير مرتكبين للزنى، ولا متخذي عشيقات، وأمنتم من التأثر بدينهن. ومن يجحد شرائع الإيمان فقد بطل عمله، وهو يوم القيامة من الخاسرين[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(١) المنتخب في تفسير القرآن، لجنة من علماء الأزهر ١ / ١٣٣.

(٢) تفسير آيات الأحكام ١ / ١٢٥.

(٣) التفسير الميسر، نخبة من علماء الأزهر ٢ / ١٧٩.

[النور:٣٢].

يدل على لزوم تزويج الأيامى من المملوكين الصالحين، والإماء المملوكات، وظاهر هذا الأمر الوجوب؛ لما تقرر في الأصول[١].

وقوله تعالى ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

أمر المؤمنين بفك عصمة زوجاتهم الكوافر فطلَق عمر بن الخطاب يومئذ زوجتين، وطلَق طلحة بن عبيد الله زوجته أروى بنت ربيعة، وعصم الكوافر عام في كل كافرة، فيشمل الكتابيات لكفرهن باعتقاد الولد لله، كما حققه الشيخ الشنقيطي رحمة الله تعالى، ولكن هذا العموم قد خصص بإباحة الكتابيات في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:٥].

أي: الحرائر، وبقيت الحرمة بين المسلم والمشركة بالعقد على التأبيد[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:١-٤].

ذكر هنا ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم جاءت ﴿مِنْ﴾ وجاء بعدها ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ مما يشعر بأن وصف الكفر يشمل كلًا من أهل الكتاب والمشركين، كما يشعر مرة أخرى أن المشركين ليسوا من أهل الكتاب، لوجود العطف، وأن أهل الكتاب ليسوا من المشركين.

وهذا المبحث معروف عند المتكلمين وعلماء التفسير، واتفقوا على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وأن المشركين هم عبدة الأوثان، والكفر يجمع القسمين، وأهل الكتاب مختص باليهود والنصارى، ولكن الخلاف هل الشرك يجمعهما أيضًا أم لا؟

فبين الفريقين عموم وخصوص، عموم في الكفر، وخصوص في أهل الكتاب لليهود والنصارى، وخصوص في المشركين لعبدة الأوثان.

ولكن جاءت آيات تدل على أن مسمى الشرك يشمل أهل الكتاب أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٥٢٩.
(٢) المصدر السابق ٨/ ١٠٠.

﴿إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٠-٣١].

فجعل مقالة كل من اليهود والنصارى إشراكًا، وجاء عن عبد الله بن عمر منع نكاح الكتابية، وقال: وهل كبر إشراكًا من قولها: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف:٤].

فهو وإن كان مخالفًا للجمهور في منع الزواج من الكتابيات، إلا أنه اعتبرهن مشركات.

ولهذا الخلاف والاحتمال وقع النزاع في مسمى الشرك هل يشمل أهل الكتاب أم لا؟ مع أننا وجدنا فرقًا في الشرع في معاملة أهل الكتاب، ومعاملة المشركين فأحل ذبائح أهل الكتاب، ولم يحلها من المشركين، وأحل نكاح الكتابيات، ولم يحله من المشركات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:٢٢١].

وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

وقال: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠].

بين ما في حق الكتابيات قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [المائدة:٥].

فكان بينهما مغايرة في الحكم.

وقد جمع الشيخ محمد الأمين رحمه الله تعالى بين تلك النصوص في دفع إيهام الاضطراب عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

مفاده أن الشرك الأكبر المخرج من الملة أنواع وأهل الكتاب متصفون ببعض دون بعض إلى آخر ما أورده رحمه الله[1].

ولعل في نفس آية: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ فيها إشارة إلى ما ذكره رحمة الله تعالى من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:٣٠].

أي: يشابهونهم في مقالتهم وهذا القدر اتصف به المشركون من أنواع الشرك.

الثاني: تذييل الآية التالية بعد حكاية فعلهم الشنيع بصيغة المضارع ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

بينما وصف عبدة الأوثان في سورة البينة بالاسم ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء:٢٥].

فظاهره أن الأمة لا يجوز نكاحها، ولو عند الضرورة إلا إذا كانت مؤمنة بدليل قوله: ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، فمفهوم

(١) انظر: دفع إيهام الاضطراب، الشنقيطي ص ١٥٩- ١٦٠.

(٢) انظر: تتمة أضواء البيان، عطية سالم ٩/ ٣٩- ٤٠.

مخالفته أن غير المؤمنات من الإماء لا يجوز نكاحهن على كل حال، وهذا المفهوم يفهم من مفهوم آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

فإن المراد بالمحصنات فيها الحرائر على أحد الأقوال، ويفهم منه أن الإماء الكوافر لا يحل نكاحهن، ولو كن كتابيات، وخالف الإمام أبو حنيفة رحمه الله فأجاز نكاح الأمة الكافرة، وأجاز نكاح الإماء لمن عنده طول ينكح به الحرائر؛ لأنه لا يعتبر مفهوم المخالفة كما عرف في أصوله رحمه الله[١].

ثبوت الشرك في أهل الكتاب مع حل نسائهم:

وأما كون أهل الكتاب فيهم شرك كما ذكره الله فهذا متفق عليه بين المسلمين كما نطق به القرآن، كما أن المسلمين متفقون على أن قوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ [المائدة:٨٢].

أن النصارى لم يدخلوا في لفظ (الذين أشركوا)، كما لم يدخلوا في لفظ (اليهود)[٢]، وإن كان فيهم الشرك للتمييز بينهم وبين مشركي العرب.

إباحة نساء أهل الكتاب متأخر:

إذا قدر أن لفظ «المشركات» و «الكوافر» يعم الكتابيات: فآية المائدة خاصة وهي متأخرة نزلت بعد سورة البقرة والممتحنة باتفاق العلماء، والخاص المتأخر يقضي على العام المتقدم باتفاق علماء المسلمين؛ لكن الجمهور يقولون: إنه مفسر له.

فتبين أن صورة التخصيص لم ترد باللفظ العام. وطائفة يقولون: إن ذلك نسخ بعد أن شرع. وإذا فرضنا النصين خاصين، فأحد النصين حرم ذبائحهم ونكاحهم، والآخر أحلهما. فالنص المحلل لهما هنا يجب تقديمه؛ لأن سورة المائدة هي المتأخرة باتفاق العلماء فتكون ناسخة للنص المتقدم[٣].

شروط الزواج من الكتابيات:

أما الشروط التي حددها الشرع في جواز زواج المسلم من الكتابية هي نفسها الشروط التي ذكرناها في شروط زواج المسلم من المسلمة الحرة، وهي: الإحصان بمعنى العفة، وإذن الولي، ووجوب المهر.

فشرط الإحصان الأصل فيه قول الله تبارك تعالى في الآية السابقة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:٥].

فوجود العفة في المرأة شرط للزواج

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ١ / ٢٣٨.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٣٢، الجواب الصحيح، ابن تيمية ٣/ ١١٦.

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٣٥/ ٢١٥.

منها سواء كانت مسلمة أو كتابية، فالكتب السماوية كلها توجب عفاف المرأة ولا مجال لأي قول خلاف ذلك.

ولابد هنا من وقفة للتأكيد على شرط الإحصان، وإضافة شرط آخر للزواج من الكتابية.

إذا فقد شرط الإحصان في نكاح الكتابية.

لابد هنا من التأكيد على أن صفة الإحصان التي أباح الله بها للمسلم أن يتزوج الكتابية في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[المائدة:٥].

إذا فقدت؛ فذلك يدل على عدم جواز زواج المسلم بالكتابية التي لا توجد فيها صفة الإحصان، وقد اختلف في صفة الإحصان هذه على قولين:

القول الأول: أن المراد بها العفة، فإذا كانت الكتابية عفيفة لم تقارف الفاحشة جاز نكاحها، وممن فسر الإحصان بالعفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه عندما كتب إليه حذيفة بن اليمان: (أحرام هي- يعني الكتابية - كتب إليه عمر قائلًا: لا، ولكني أخاف أن تواقعوا المومسات منهن، قال أبو عبيدة: يعني العواهر)[١].

وقال مطرف عن الشعبي في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:٥].

قال: (إحصان اليهودية والنصرانية: أن تغتسل من الجنابة وأن تحصن فرجها)[٢].

وممن قال بذلك: السدي، ومجاهد وسفيان.

القول الثاني: أن المراد بالإحصان هنا الحرية، أي: يجوز نكاح الكتابية الحرة دون الأمة وإن كانت قد أتت بفاحشة إذا تابت منها، بشرط أن تكون بموضع لا يخاف الناكح فيه على ولده أن يجبر على الكفر.

وقد رجح هذا القول ابن جرير الطبري، وذكر القائلين به في تفسيره[٣].

وعلى كلا القولين فإن الكتابية التي في دار الكفر وليست في دار الإسلام يرجح جانب الحذر منها، لما في بيئتها من الفساد الواضح.

وكيف تكون عفيفة من توصم بالعار والأمراض النفسية إذا بلغت سنًا معينًا، ولم تجد من يعيش معها معيشة غير مشروعة، كما يعيش الزوج مع زوجته؟

وكيف لا يخشى من عدم عفة امرأة تختلط بالأجانب في الخلوة كما مضى؟!!!

(١) أخرجه الطبري في تفسيره، ٣/٧١٦، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب ما جاء في تحريم حرائر أهل الكتاب، ٧/ ١٧٢.
قال ابن كثير في تفسيره ١/ ٥٠٧: «وهذا إسناد صحيح».

(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٢ / ٣٢٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ٦ / ١٠٧- ١٠٨.

❁ أن تكون الولاية للمسلم إذا تزوج الكتابية المحصنة.

والحاصل في هذا الزمان: أن من يتزوج من بلدٍ كافر فإنه يتزوجهن وفق قوانينها، فيطبقون عليه نصوص قوانينهم، وفيها من الظلم والجور الشيء الكثير في هذا الباب، ولا يعترفون بولاية المسلم على زوجته وأولاده، وإذا ما غضبت المرأة من زوجها هدمت بيته، وأخذت أولادها بقوة القانون، فينشأ أولاده على الكفر.

وأيضًا فإن النبي صلى الله عليه وسلم رغبنا بذات الدين من المسلمات، فلو كانت مسلمة توحد الله لكنها ليست ذات دينٍ وخلق فإنه لا يرغب بزواجها؛ لأن الزواج ليس هو الاستمتاع بالجماع فقط؛ بل هو رعاية لحق الله وحق الزوج، وحفظٌ لبيته وعرضه وماله، وتربية لأولاده، فكيف يأمن من يتزوج كتابية على تربية أبنائه وبناته على الدين والطاعة، وهو تاركٌ لهم بين يدي تلك الأم التي تكفر بالله تعالى وتشرك معه آلهة؟

فعلى الإنسان المسلم العاقل أن يتخير لنطفته أين يضعها، وأن ينظر نظرًا مستقبليًا لحال أولاده ودينهم، وألا يعميه عن النظر الواعي شهوةٌ جارفةٌ، أو مصلحةٌ دنيويةٌ عاجلةٌ، أو جمال ظاهري خادع، فإنما الجمال جمال الدين والأخلاق[1].

فلابد من إضافة هذا الشرط لشروط نكاح المسلم من الكتابية، لأهميته وخاصة مع فساد أحوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى فيه هذا الزمان.

المحصنات من سبايا الجهاد:

السبايا: هن النساء المتزوجات اللواتي يقعن سبايا في ملك المسلمين في حرب يدافعون بها عن الدين، وأزواجهن كفار في دار الكفر، فحينئذ ينحل عقد زواجهن، ويكن حلالًا للمسلمين بالشروط المعروفة في كتب الفقه.

ويقول أبو حنيفة: إن من سبي معها زوجها فلا تحل لغيره، لأنه لا بد من اختلاف الدار بين الزوجين، دار الإسلام ودار الكفر[2].

ومذهب مالك أن السبي يهدم النكاح، سواء سبي الزوجان الكافران معًا، أو سبي أحدهما قبل الآخر، وقال ابن المواز: لا يهدم السبي النكاح[3].

لذا ورد أن الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

نزلت في سبايا أوطاس، وهي وقعة كانت بعد موقعة حنين، فسبى فيها المسلمون

---

(١) راجع في ذلك: حكم زواج المسلم المغترب من الكتابيات، فضل الله ممتاز، موقع الملتقى الفقهي، السبت ٢٩ محرم ١٤٣٦، ٢٢ نوفمبر ٢٠١٤.

(٢) أيسر التفاسير، أسعد حومد ١ / ٥١٧.

(٣) التسهيل، ابن جزي ١ / ٢٤٦.

النساء والذراري، فتحرج المؤمنون في غشيان أولئك النسوة، ومنهم المتزوجات، فأذن لهم في غشيانهن بعد أن تسلم إحداهن وتستبرأ بحيضة، أما قبل إسلامها فلا تحل؛ لأنها مشركة[(١)].

إن الاستمتاع بالجارية بالوطء أو مقدماته لا يكون مشروعًا، إلا أن تكون مملوكة للرجل الحر ملكًا تامًا كاملًا، وهي التي ليس له فيها شريك، وليس لأحد فيها شرط أو خيار، ويشترط ألا يكون فيها مانع يقتضي تحريمها عليه، كأن تكون أخته من الرضاعة، أو موطوءة فرعه أو أصله، أو تكون متزوجة، أو أختًا لأمة أخرى يطؤها، أو مشركة غير كتابية. فإذا استوفت ذلك كله جاز له وطؤها بملك اليمين لا بعقد الزوجية.

والجارية التي يتخذها سيدها للوطء تسمى سرية، فإذا حبلت من سيدها وأتت بولد، ولو سقط سميت أم ولد، وعتقت بعد موت سيدها.

أما وطء الأمة الكافرة بملك اليمين، فإنها إن كانت كتابية فجمهور العلماء على إباحة وطئها بالملك، لعموم قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٦].

ولجواز نكاح حرائرهم فيحل التسري بالإماء منهم، وليس في وطئها مع إباحة التزوج بهن نزاع، بل في التزوج بها خلاف مشهور، والقول بجواز التزوج بهن مع المنع من التسري بهن لم يقله أحد ولا يقوله فقيه[(٢)].

وقد أجمع العلماء على حل ذلك، ثم إن حل نكاحهن يقتضي حل التسري بهن من طريق الأولى والأحرى، وذلك أن كل من جاز وطؤها بالنكاح جاز وطؤها بملك اليمين بلا نزاع، وأما العكس فقد تنازع فيه العلماء؛ وذلك لأن ملك اليمين أوسع[(٣)].

وأما إن كانت الأمة المملوكة له مجوسية، أو عابدة وثن، ممن لا يحل نكاح حرائرهم؛ فجمهور العلماء على منع وطئها بملك اليمين، قال ابن عبد البر: وعليه جماعة فقهاء الأمصار وجمهور العلماء، وما خالفه فهو شذوذ لا يعد خلافًا، ولم يبلغنا إباحة ذلك إلا عن طاوس.

قال الشيخ عطية سالم رحمه الله في تقييده لأضواء البيان: الذي يظهر من جهة الدليل والله تعالى أعلم، جواز وطء الأمة بملك اليمين، وإن كانت عابدة وثن أو مجوسية؛ لأن أكثر السبايا في عصره صلى الله عليه وسلم من كفار العرب، وهم عبدة أوثان، ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حرم وطأهن بالملك لكفرهن

(١) الدر المنثور، السيوطي ٢ / ٤٧٨.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٣٢/ ١٨٣.

(٣) المصدر السابق ٣٢/ ١٨٤.

ولو كان حرامًا لبينه، بل قال صلى الله عليه وسلم: «لا توطأ حاملٌ حتى تضع ولا غير ذات حملٍ حتى تحيض حيضةً»[1]، ولم يقل حتى يسلمن، ولو كان ذلك شرطًا لقاله، وقد أخذ الصحابة سبايا فارس وهن مجوس، ولم ينقل أنهم اجتنبوهن حتى أسلمن.

قال ابن القيم: «ودل هذا القضاء النبوي على جواز وطء الإماء الوثنيات بملك اليمين، فإن سبايا أوطاس لم يكن كتابيات، ولم يشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم في وطئهن إسلامهن، ولم يجعل المانع منه إلا الاستبراء فقط، وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع مع أنهم حديثو عهد بالإسلام ويخفى عليهم حكم هذه المسألة، وحصول الإسلام من جميع السبايا، وكن عدة آلاف بحيث لم يتخلف منهن عن الإسلام جارية واحدة مما يعلم أنه في غاية البعد، فإنهن لم يكرهن على الإسلام، ولم يكن لهن من البصيرة والرغبة والمحبة في الإسلام ما يقتضي مبادرتهن إليه جميعًا، فمقتضى السنة وعمل الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده جواز وطء المملوكات على أي دين كن»[2].

وقد أشار سيد قطب إلى حكمة هذا التشريع عند حتمية وجود سبايا كوافر في المجتمع المسلم، فكيف يصنع بهن؟ إن الفطرة لا تكتفي بأن يأكلن ويشربن، فهناك حاجة فطرية أخرى لا بد لهن من إشباعها وإلا التمسنها في الفاحشة التي تفسد المجتمع كله وتدنسه! ولا يجوز للمسلمين أن ينكحوهن وهن مشركات، لتحريم الارتباط الزوجي بين مسلم ومشركة، فلا يبقى إلا طريق واحد هو إحلال وطئهن بلا نكاح ما دمن مشركات، بعد استبراء أرحام المتزوجات منهن؛ وانقطاع صلتهن بأزواجهن في دار الكفر والحرب»[3].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في وطء السبايا، ٢/ ٢١٣، رقم ٢١٥٩، من حديث أبي سعيد الخدري.
وصححه الألباني.

(٢) زاد المعاد، ٥/ ١٢١-١٢٠.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢ / ٨٦.

إكراه المحصنات على البغاء

أجمع العلماء على حرمة فعل الجاهلية من إكراه الفتيات على فاحشة الزنى، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:٣٣].

ووجه الدلالة أن النهي صريح في الآية، كما أنها تشمل حكمًا آخر هو أن الله تعالى قد أسقط الإثم عمن أكرهت على الزنى.

ومن هنا اتفق العلماء على أنه لا حد على امرأة مستكرهة؛ وذلك لأنها لم تقصد ولم ترض بالزنى[(١)].

ويترتب على ذلك محو كل الآثار الضارة المترتبة على هذا الإكراه، ومنها الكسب غير المشروع، حيث حرمت الآية الكريمة كسب المال، وتحصيله عن طريق امتهان فاحشة الزنى والترويج لها، نظرًا لما فيها من تضييع للنسل وإفساد للمجتمع، وفي هذا دلالة على أن مصلحة المال متأخرة في الاعتبار والأهمية، عن سائر الكليات الأخرى[(٢)].

والآية انتقال إلى نوع من التشريع من شؤون المعاملات بين الرجال والنساء التي لها أثر في الأنساب، ومن شؤون حقوق الموالي والعبيد، وهذا الانتقال لمناسبة ما سبق من حكم الاكتساب المنجر من العبيد لمواليهم وهو الكتابة فانتقل إلى حكم البغاء.

وسبب نزول هذه الآية: أن جاريتين كانتا لعبد الله بن أبي بن سلول المنافق يقال لهما معاذة ومسيكة قد أسلمتا، فأمرهما بالزنى لتكسبا له بفرجيهما، كما هي عادة أهل الجاهلية قبل الإسلام، فشكتا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور:٣٣].

أي: لأجل مال قليل يعرض لكم ويزول عنكم بسرعة[(٣)].

وقوله: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:٣٣].

أي: لهن رحيم بهن؛ لأن المكره لا إثم عليه فيما يقول ولا فيما يفعل فامتنع المنافق من ذلك[(٤)].

والبغاء مصدر: باغت الجارية، إذا تعاطت الزنى بالأجر حرفة لها، فالبغاء الزنى بأجرة، واشتقاق صيغة المفاعلة فيه للمبالغة والتكرير ولذلك لا يقال إلا: باغت الأمة، ولا يقال: بغت، وهو مشتق من البغي بمعنى الطلب؛ لأن سيد الأمة بغى بها كسبًا،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٨٣.
(٢) معلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية ٤/١٨٦.
(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي ١/ ٢٢٠.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري ٣ / ٥٧٠.

وتسمى المرأة المحترفة به بغيًا[1].

وقد كانت في المدينة إماء بغايا منهن ست إماء شابات جميلات لعبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق، وهن: معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة، وكان يكرههن على البغاء بعد الإسلام طلبًا لكسبهن، وفيه نزلت الآيات الكريمة المتقدمة[2].

قال ابن العربي: روى مالك عن الزهري أن رجلًا من أسرى قريش في يوم بدر قد جعل عند عبد الله بن أبي، وكان هذا الأسير يريد معاذة على نفسها، وكانت تمتنع منه؛ لأنها أسلمت، وكان عبد الله بن أبي يضربها على امتناعها منه، رجاء أن تحمل منه - أي: من الأسير القرشي - فيطلب فداء ولده، أي: فداء رقه من ابن أبي، ولعل هذا الأسير كان موسرًا له مال بمكة، وكان الزاني بالأمة يفتدي ولده بمائة من الإبل يدفعها لسيد الأمة، وأنها شكته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية[3].

والبغاء الذي كان منتشرًا في الجاهلية كان على نوعين:

الأول: البغاء في صورة النكاح.

الثاني: البغاء العام في الإماء والحرائر.

أما الأول: فكانت تحترفه بعض الإماء اللواتي لم يكن لهن من يكفلهن، أو الحرائر اللواتي لم يكن لهن بيت، أو أسرة تضمهن، فكانت إحداهن تجلس في بيت، وتتفق في آن واحد مع عدة رجال، على أن ينفقوا عليها، ويقوموا على أمرها ويقضوا منها حاجتهم، فإذا حملت ووضعت أرسل إليهم حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت وهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحبت باسمه، فيلتحق نسبه به، فهذا نوع من البغاء كان يتناكح به أهل الجاهلية.

وقد أثبتت عائشة رضي الله عنها أن الإسلام هدم أنكحة الجاهلية الثلاثة، وأبقى النكاح المعروف، ولكنها لم تعين ضبط زمان ذلك الهدم[4].

وأما البغاء العام: فكان معظمه بواسطة الإماء، وربما وقع من بعض الحرائر أيضًا وهو أيضًا على وجهين:

الأول: أن بعض السادة كانوا يفرضون على إمائهم مبلغًا كبيرًا من المال يتقاضونه منهن في كل شهر، فكن يكسبن بالفجور؛ لأنه لا يمكنهن أن يدفعن ما فرضه عليهن سادتهن بحرفة طاهرة، فكن يحترفن البغاء.

والوجه الثاني: أن بعض العرب كانوا يجلسون الفتيات الشابات من إمائهن في

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٧٧.
(٢) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١ / ٣٩٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣ / ٣٥١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠ / ٥٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ٥/ ١٩٧٠، رقم ٤٨٣٤.

الغرفات، وينصبون على أبوابهم رايات، تكون علمًا لمن أراد أن يقضي منهن حاجته، وكانت بيوتهن تسمى المواخير، وكانوا يستدرون من ورائهن المال، فإذا أبت إحداهن أو تعففت عن ممارسة هذه الرذيلة ضربها سيدها وأكرهها على مزاولة الحرفة، حتى لا ينقطع عنه ذلك المورد الخبيث، الذي كان يكسبه المال الوفير.

وكان بمكة تسع بغايا شهيرات يجعلن على بيوتهن رايات مثل رايات البيطار ليعرفهن الرجال، وهن كما ذكر الواحدي: أم مهزول جارية السائب المخزومي، وأم غليظ جارية صفوان بن أمية، وحية القبطية جارية العاصي بن وائل، ومزنة جارية مالك بن عميلة بن السباق، وجلالة جارية سهيل بن عمرة، وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي، وشريفة جارية ربيعة بن أسود. وقرينة أو قريبة جارية هشام بن ربيعة، وقرينة جارية هلال بن أنس.

وقالوا: إن عبد الله بن أبي كان قد أعد معاذة لإكرام ضيوفه، فإذا نزل عليه ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الكرامة له، فأقبلت معاذة إلى أبي بكر فشكت ذلك إليه، فذكر أبو بكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم، أبا بكر بقبضها فصاح عبد الله بن أبي: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مماليكنا، فأنزل الله هذه الآية، أي: وذلك قبل أن يتظاهر عبد الله بن أبي بالإسلام.

قال في التحرير والتنوير: وتقدم أن من البغايا عناق ولعلها هي أم مهزول كما يقتضيه كلام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[النور:٣].

ولم أقف على أن واحدة من هؤلاء اللاتي كن بمكة أسلمت وأما اللائي كن بالمدينة فقد أسلمت منهن معاذة ومسيكة وأميمة، ولم أقف على أسماء الثلاث الأخر في الصحابة فلعلهن هلكن قبل أن يسلمن[(١)].

وجميع هذه الآثار متظافرة على أن هذه الآية كان بها تحريم البغاء على المسلمين والمسلمات المالكات أمر أنفسهن[(٢)].

ولا ريب أن الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ موجه إلى المسلمين، فإذا كانت قصة أمة ابن أبي حدثت بعد أن أظهر سيدها الإسلام، و كان هو سبب النزول فشمله العموم لا محالة، وإن كانت حدثت قبل أن يظهر الإسلام فهو سبب ولا يشمله الحكم؛ لأنه لم يكن من المسلمين يومئذ، وإنما كان تذمر أمته منه داعيًا لنهي المسلمين عن إكراه فتياتهم على

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٥٦.
(٢) المصدر السابق.

البغاء، وأيًا ما كان فالفتيات مسلمات؛ لأن المشركات لا يخاطبن بفروع الشريعة[(١)].

وقد كان إظهار عبد الله بن أبي الإسلام في أثناء السنة الثانية من الهجرة فإنه تردد زمنًا في الإسلام، ولما رأى قومه دخلوا في الإسلام دخل فيه كارهًا مصرًا على النفاق، ويظهر أن قصة أمته حدثت في مدة صراحة كفره، لما علمت مما روي عن الزهري من قول ابن أبي حين نزلت: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مماليكنا، ونزول سورة النور كان في حدود السنة الثانية، فلا شك أن البغاء الذي هو من عمل الجاهلية استمر زمنًا بعد الهجرة بنحو سنة.

ولا شك أن البغاء يمت إلى الزاني بشبه، لما فيه من تعريض الأنساب للاختلاط، وإن كان لا يبلغ مبلغ الزنى في خرم كلية حفظ النسب، من حيث كان الزنى سرًا لا يطلع عليه إلا من اقترفه، وكان البغاء علنًا، وكانوا يرجعون في إلحاق الأبناء الذي تلدهم البغايا بآبائهم إلى إقرار البغي بأن الحمل ممن تعينه. واصطلحوا على الأخذ بذلك في النسب، فكان شبيهًا بالاستلحاق، على أنه قد يكون من البغايا من لا ضبط لها في هذا الشأن، فيفضي الأمر إلى عدم التحاق الولد بأحد.

ولا شك في أن الزنى كان محرمًا تحريمًا شديدًا على المسلم من مبدأ ظهور الإسلام، وكانت عقوبته فرضت في حدود السنة الأولى بعد الهجرة، بنزول سورة النور.

ولا يعقل أن يكون البغاء محرمًا قبل نزول هذه الآية؛ إذ لم يعرف قبلها شيء في الكتاب والسنة يدل على تحريم البغاء؛ ولأنه لو كان كذلك لم يتصور حدوث تلك الحوادث التي كانت سبب نزول الآية؛ إذ لا سبيل للإقدام على محرم بين المسلمين أمثالهم؛ ولذلك فالآية نزلت توطئة لإبطاله كما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣] توطئة لتحريم الخمر البتة، وهو الذي جرى عليه المفسرون مثل: الزمخشري والفخر بظاهر عباراتهم دون صراحة بل بما تأولوا به معاني الآية، إذ تأولوا قوله: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ بأن الشرط لا يراد به عدم النهي عن الإكراه على البغاء، إذا انتفت إرادتهن التحصن، بل كان الشرط خرج مخرج الغالب؛ لأن إرادة التحصن هي غالب أحوال الإماء البغايا المؤمنات؛ إذ كن يحببن التعفف، أو لأن قصة سبب نزول الآية كانت معها إرادة التحصن[(٢)].

والداعي إلى ذكر القيد تشنيع حالة البغاء في الإسلام بأنه عن إكراه، وعن منع من التحصن، ففي ذكر القيدين إيماء إلى حكمة

(١) السابق ١٨/ ١٧٩.

(٢) السابق ١٨/ ١٨٠.

تحريمه وفساده وخباثة الاكتساب به.

وذكر ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لحالة الإكراه؛ إذ إكراههم إياهن لا يتصور إلا وهن يأبين وغالب الإباء أن يكون عن إرادة التحصن، هذا تأويل الجمهور ورجعوا في الحامل على التأويل إلى حصول إجماع الأمة على حرمة البغاء، سواء كان الإجماع لهذه الآية أو بدليل آخر انعقد الإجماع على مقتضاه، فلا نزاع في أن الإجماع على تحريم البغاء، ولكن النظر في أن تحريمه هل كان بهذه الآية.

أقول: إن ذكر الإكراه جرى على النظر لحال القضية التي كانت سبب النزول.

والذي يظهر من كلام ابن العربي أنه قد نحا بعض العلماء إلى اعتبار الشرط في الآية دليلًا على تحريم الإكراه على البغاء بقيد إرادة الإماء التحصن، فقد تكون الآية توطئة لتحريم البغاء تحريمًا باتًّا، فحرم على المسلمين أن يكرهوا إماءهم على البغاء؛ لأن الإماء المسلمات يكرهن ذلك، ولا فائدة لهن فيه، ثم لم يلبث أن حرم تحريمًا مطلقًا، كما دل عليه حديث أبي مسعود الأنصاري: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن مهر البغي)[1].

فإن النهي عن أكله يقتضي إبطال البغاء، وقد يكون هذا الاحتمال معضودًا بقوله تعالى بعده: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:٣٣].

ونقل ابن عاشور عن الأصفهاني: وقيل إنما جاء النهي عن الإكراه، لا عن البغاء؛ لأن حد الزنى نزل بعد هذا، وهذا يقتضي أن صاحب هذا القول يجعل أول السورة نزل بعد هذه الآيات، ولا يعرف هذا، وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بتكرهوا أي: لا تكرهوهن لهذه العلة، ذكر هذه العلة لزيادة التبشيع كذكر ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، و﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هو الأجر الذي يكتسبه الموالي من إمائهم، وهو ما يسمى بالمهر أيضًا[2].

وقوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فهو صريح في أنه حكم متعلق بالمستقبل؛ لأنه مضارع في حيز الشرط، وهو صريح في أنه عفو عن إكراه.

وأما صورة الإكراه: فإنما يحصل الإكراه متى وجد التخويف بما يقتضي تلف النفس كالتهديد بالقتل، أو بما يوجب تلف عضو من الأعضاء، وأما باليسير من الخوف فلا تصير مكرهة. فحال الإكراه على الزنى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ثمن الكلب، ٥/ ٤٩٥، رقم ٢٢٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب وحلوان الكاهن ومهر البغي، ٣/ ١١٩٨، رقم ١٥٦٧، ولفظه: (نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٨١.

كحال الإكراه على الكفر، وقد قال تعالى فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦].

وقد ذكر بعض المفسرين أن الله تعالى إنما ذكر إرادة التحصن من المرأة؛ لأن ذلك هو الذي يصور الإكراه، فأما إذا كانت هي راغبة في الزنى لم يتصور إكراه.

وقال بعضهم: خرج مخرج الأغلب؛ إذ الغالب أن الإكراه إنما يكون عند إرادة التحصن.

والمقصود به التقبيح والتشنيع على هذا المنكر الفظيع الذي كان يعمله أهل الجاهلية، حيث كانوا يكرهوا الفتيات على البغاء مع إرادتهن للتعفف[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٣٣].

قيل: غفور لهن.

وقيل: غفور لهم.

وقيل: لهن ولهم.

والراجح غفور لهن. وإلى ذلك ذهب البغوي[(٢)]، القرطبي[(٣)]، ابن كثير[(٤)]، البيضاوي، المحلي، الشوكاني، وابن عاشور[(٥)]، والشنقيطي.

وقال رحمه الله: «وأظهرها أن المعنى غفور لهن؛ لأن المكره لا يؤاخذ بما أكره عليه، بل يغفره الله لعذره بالإكراه، كما يوضحه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

ويؤيده قراءة ابن مسعود، وجابر بن عبدالله، وابن جبير: (فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم)[(٦)].

ذكره عنهم القرطبي[(٧)].

وذكره الزمخشري[(٨)] عن ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين، أن الموعود بالمغفرة والرحمة هو المعذور بالإكراه دون المكره؛ لأنه غير معذور في فعله القبيح، وذلك البيان المذكور بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]»[(٩)].

قال ابن عاشور: «فلا يخطر بالبال أن الله غفور رحيم لهم - أي المكرهين- بعد أن نهاهم عن الإكراه؛ إذ ليس لمثل هذا التبشير

(١) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩١.
(٢) مختصر البغوي ٢/ ٦٤٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٥٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٩.
(٥) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٦٣، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٢٩٥، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨ / ١٨١، ١٨٢.
(٦) وقد قدم الشنقيطي في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنه لا يبين القرآن بقراءة شاذة، وربما ذكر القراءة الشاذة استشهادًا لقراءة سبعية كما هنا، انظر: مقدمة أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٥.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٢٥٥.
(٨) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٣٣.
(٩) أضواء البيان، ٦/ ٢١٩.

نظير في القرآن، وأما الإماء المكرهات فإن الله غفور رحيم لهن»[1].

وبناء على ما تقرر عند علماء الأصول[2] من أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، فإن الروايات الواردة في سبب نزول الآية تدل على تعرض بعض الإماء للإكراه على الزنى وشكاتهم ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم[3]، وهذا يدل دلالة واضحة على القول الراجح في الآية أن المغفرة لهن[4].

من نماذج المحصنات في القرآن

أبرز نموذج ذكره القرآن الكريم هو: مريم عليها السلام، مدحها القرآن بذلك، بل وامتن الله عليها برعايتها وتربيتها منذ نذرتها أمها وهي في بطنها إلى ربها، فأنبتها الله عز وجل نباتًا حسنًا، وهيأها لهذا العمل بإعدادها وتربيتها على حسن العبادة والسجود والركوع والقنوت لله.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٣].

وتكرر فعل ﴿اصْطَفَاكِ﴾؛ لأن الاصطفاء الأول اصطفاء ذاتي، وهو جعلها منزهة زكية، والثاني بمعنى التفضيل على الغير. فلذلك لم يعد الأول إلى متعلق. وعدي الثاني. ونساء العالمين نساء زمانها، أو نساء سائر الأزمنة. وتكليم الملائكة والاصطفاء يدلان على نبوءتها والنبوءة تكون للنساء دون الرسالة.

وإعادة النداء في قول الملائكة: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي﴾ لقصد الإعجاب بحالها؛ لأن النداء الأول كفى في تحصيل المقصود من إقبالها لسماع كلام الملائكة، فكان النداء الثاني مستعملًا في مجرد التنبيه الذي

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٨١-١٨٢.
(٢) انظر: البحر المحيط، الزركشي ٣/ ٢١٦، شرح مختصر الروضة، الطوفي ٢/ ٥٠٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٠٣، أسباب النزول، الواحدي ص٣٢٨، لباب النقول، السيوطي ص ٢٩٣.
(٤) انظر: ترجيحات الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان ١/ ٤٧.

ينتقل منه إلى لازمه وهو التنويه بهذه الحالة والإعجاب بها[١]؛ لذا وصوها بالمحافظة على الصلاة بعد أن أخبروها بعلو درجتها وكمال قربها إلى الله تعالى؛ لئلا تفتر ولا تغفل عن العبادة[٢]، قال مجاهد: لما قيل لها: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي﴾ قامت حتى ورمت قدماها[٣].

هذا الإعداد الذي أعدها الله وهيأها به لتكون وابنها آية للعالمين ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١].

نحا بها نحو الكمال البشري، ففي الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد)[٤].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون)[٥].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون. وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[٦].

وهذا المذكور في الكتاب والسنة إثبات لعفتها وطهارتها ونقائها.

قال ابن عطية: «واختلف الناس في الفرج الذي أحصنت مريم، فقال الجمهور: هو فرج الدرع الذي كان عليها، وأنها كانت صينة، وأن جبريل عليه السلام: نفخ فيها الروح من جيب الدرع، وقال قوم من المتأولين: هو الفرج الجارحة، فلفظة ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾: إذا كان فرج الجارحة متمكنًا حقيقة، والإحصان: صونه، وفيه هي مستعملة، وإذا قدرنا فرج الدرع فلفظ ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾ فيه مستعارة من حيث صانته، ومن حيث صار مسلكًا لولدها وهو مدح بالكناية دلالة على الطهر والنقاء فالثوب

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣ / ١٧٤.
(٢) جامع لطائف التفسير ١٣ / ١٥٦.
(٣) توفيق الرحمن، فيصل آل مبارك ١ / ٣٦١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك) ٨ / ٥٣٨، رقم ٣٤٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة، ٧/ ١٣٢، رقم ٦٤٢٤.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب فضل خديجة رضي الله عنها، رقم ٣٨٧٨.
وصححه الألباني.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه)، ٣/ ١٢٦٦، رقم ٣٢٥٠.

المحصن فتحاته أو جيوبه يدل ذلك على نقاء وطهر صاحبه[١].

وفي رأيي أن القائلين بالفرج الجارحة هنا على خطأ بين، فالقرآن الكريم عند تناوله موضوع الفرج الجارحة يتناوله بطريقة عالية من الأدب الراقي، من حيث استخدامه للرمز ولا يمكن أن يخالف هنا، فيكون الكلام عن نفخ في فرج حقيقي ظاهرًا مكشوفًا.

وما ذهبنا إليه هو ما رجحه في أضواء البيان أن النفخ كان في جيب درعها فوصل إلى جوفها، فصار بسببه حملها عيسى عليه السلام[٢]، وبهذا فسر في الكشاف آية النفخ[٣].

وأوضح ابن تيمية أن نفخ جبريل في جيب الدرع على أنه الفرج مخالف لصريح القرآن، ورجح أنه نفخ في جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها[٤].

وكذلك قال الله تعالى في حقها: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢].

فقوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ فعلى الأرجح أنه نسبها إلى حال أهلها وعائلتها من كونهم من القانتين، فهي من هؤلاء الموصوفين بالقانتين فاقتضى استخدام جمع المذكر تغليبًا، وإشارة على أن عبادتها في نفس مستوى عبادة الرجال عمومًا.

قال أبو السعود في تفسيره: «﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: من عداد المواظبين على الطاعة، والتذكير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال حتى عدت من جملتهم، أو من نسلهم، لأنها من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام»[٥].

ولما حدثت المعجزة وولدت مريم عيسى عليه السلام، عرض بنو إسرائيل بالقذف، فقالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨].

فمدحوا أباها، ونفوا عن أمها البغاء، وعرضوا لمريم بذلك، ولذلك سماه الله بهتانًا.

قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦].

وكفرهم معروف، والبهتان العظيم هو التعريض لها، والمعنى ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغيًا، وأنت خلافهما، وقد أتيت بهذا الولد، لذلك أخذ فقهاء المالكية من ذلك أن المعرة إذا حصلت بالتعريض وجب أن يكون قذفًا كالتصريح،

(١) المحرر الوجيز، ٥/ ٣٠٩.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٩٠
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٣٤.
(٤) مجموع فتاوى، ابن تيمية ٥/ ٢٦٧.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٧٠.

والمعول على الفهم[1].

والثابت في عقيدة المسلمين في مريم عليها السلام أنها محصنة عفيفة طاهرة مطهرة عذراء، خلق الله ابنها عيسى عليه السلام بكلمة منه، دون أب، والله على كل شيء قدير، فقد خلق آدم عليه السلام دون أب وأم، وقد أراد الله إكرامها بأن تكون مظهر عظيم قدرته في مخالفة السنة البشرية لحصول حمل أنثى دون قربان ذكر، ليرى الناس مثالًا من التكوين الأول كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩][2].

وكل معجزة ظهرت من عيسى عليه السلام كما أنها نعمة في حقه، فكذلك هي نعمة في حق أمه؛ لأنها تدل على براءة ساحتها مما نسبوها إليه واتهموها به وحمل مريم ما كان من الرجال كسائر النساء، وإنما كان بروح منه[3].

عاقبة رمي المحصنات بالزنى

إشاعة الفاحشة ورمي المحصنات له عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة، حيث يقول جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور:١٩].

ويقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٢٣-٢٥].

ظاهر النصوص والواضح من منطوق الآيات السابقة أن لحد القذف عقوبتين: عقوبة في الدنيا هي إقامة الحد، وعقوبة في الآخرة هي اللعنة والعذاب العظيم والفضيحة بشهادة أعضائهم عليهم، علاوة على الحسرة والندامة بجديد العلم من أحوال الآخرة الظاهرة وما ينكشف من أمرها عيانًا بيانًا وسنفصل الحديث في هذا من خلال المطلبين التاليين:

أولًا: عاقبته في الدنيا:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

أفاد بلفظه ثلاث عقوبات: عقوبة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٧٣.
(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ١٠٠.
(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٣٦٧.

بدنية من إقامة الحد بجلده ثمانين جلدة، وعقوبتان معنويتان بعدم قبول شهادته، والحكم بفسقه.

١ . الجلد.

أثبت الله عز وجل عقوبة القاذف ثمانين جلدة، ويتبين لنا من هذه الآية الكريمة أن المراد بالرمي في قوله: ﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، هو الرمي بالزنى، أو ما يستلزمه كنفي النسب، وأن عموم هذه الآية ظاهر في شموله لزوج المرأة إذا رماها بالزنى، فقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ من ألفاظ العموم، وقوله: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ من ألفاظ العموم، فدخل فيهما كل قاذف بالزنى[١]، وكل مقذوفة سواء أكانت زوجة أم لا، ولذلك لما قذف هلال بن أمية امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك ابن سحماء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (البينة أو حد في ظهرك)[٢]، فأجرى عليه النبي صلى الله عليه وسلم لفظ العموم، وطالبه بالبينة، فقال هلال: والذي بعثك بالحق، إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور:٦-٧]. فوقعت الملاعنة بينه وبين امرأته، ونص الحديث أن الآية الأخرى وهي المخصصة نزلت متراخيةً عن اللفظ العام في الآية الأولى، وبين الله جل وعلا فيها أن زوج المرأة إذا قذفها بالزنى خارج من عموم هذه الآية، وأنه إن لم يأت الشهداء، تلاعنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ [النور: ٦][٣].

قال القرطبي: « قال أبو جعفر النحاس: من أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية إنه عامٌ لجميع الناس؛ القذفة من ذكر وأنثى، ويكون التقدير: إن الذين يرمون الأنفس المحصنات؛ فدخل في هذا المذكر والمؤنث... إلا أنه غلب المذكر على المؤنث[٤].

ثم إن الله بين كونهن مؤمنات غافلات لإيضاح صفاتهن الكريمة، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٣-٢٥].

(١) أيسر التفاسير، أسعد حومد ١ / ٢٦٧٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة وينطلق لطلب البينة ٢/ ٩٤٩، رقم ٤٧٤٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٥ / ٤٢٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢١٠.

ووصفه تعالى للمحصنات في هذه الآية بكونهن غافلات ثناء عليهن بأنهن سليمات الصدور نقيات القلوب لا تخطر الريبة في قلوبهن لحسن سرائرهن، ليس فيهن دهاء ولا مكر؛ لأنهن لم يجربن الأمور فلا يفطن لما تفطن له المجربات ذوات المكر والدهاء، وهذا النوع من سلامة الصدور وصفائها من الريبة من أحسن الثناء، وتطلق العرب على المتصفات به اسم البله مدحًا لها لا ذمًا[1].

اتفق العلماء على وجوب الحد بالتصريح بالقذف، واختلفوا في التعريض به، وحاصل حجة من قالوا بأن التعريض بالقذف لا يوجب الحد: أن التعريض محتمل لمعنى آخر غير القذف، وكل كلام يحتمل معنيين لم يكن قذفًا.

وذهب جماعة آخرون من أهل العلم إلى أن التعريض بالقذف يجب به الحد، وهو مذهب مالك وأصحابه. وروى الأثرم وغيره، عن الإمام أحمد أن عليه الحد، يعني المعرض بالقذف، قال: وروي ذلك عن عمر رضي الله عنه، وبه قال إسحاق إلى أن قال: وقال معمر: إن عمر كان يجلد الحد في التعريض.

واحتج أهل هذا القول بأدلة منها ما ذكره القرطبي، قال: والدليل لما قاله مالك: هو أن موضوع الحد في القذف، إنما هو لإزالة المعرة التي أوقعها القاذف بالمقذوف، وإذا حصلت المعرة بالتعريض، وجب أن يكون قذفًا كالتصريح والمعول على الفهم[2].

٢ . عدم قبول شهادته.

ولما كان رمي المحصنات من أعظم الإثم في النيل من عرضهن، وحيث لم يأتوا بالبينة على رميهم لهن بالشهود، كان الجزاء من جنس العمل؛ ألا تقبل لهم شهادة أبدًا، لا في هذا الجانب ولا في غيره، فالشهادة كل لا يتجزأ.

ذهب الشعبي والضحاك وغيرهم إلى أن المحدود في القذف وإن تاب لا تقبل شهادته[3]؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

واختلف الفقهاء اختلافًا كبيرًا في قبول شهادة القاذف بعد التوبة، يراجع في كتب الفقه وخلاصته: أن المقرر في أصول المالكية، والشافعية والحنابلة أن الاستثناء إذا جاء بعد جمل متعاطفات، أو مفردات متعاطفات، أنه يرجع لجميعها إلا لدليل

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٣٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٧٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٤؛ فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٣.

من نقل أو عقل يخصصه ببعضها[1]، والله عز وجل أمر بضرب شاهد الزور ثمانين جلدة حدًا على شهادة الزور؛ وأمر أن لا تقبل شهادته؛ وسماه فاسقًا؛ ثم استثنى حال التوبة، والاستثناء في سياق الكلام يرجع إلى أول الكلام وآخره؛ إلا أن يفرق بين ذلك خبر، وقد روي قبول شهادة القاذف، بعد توبته عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن ابن عباس رضي الله عنه، وعن عطاء وطاوس ومجاهد، وسئل الشعبي عن القاذف فقال: يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته؟![2]. أما الإمام أبو حنيفة فيقول برجوع الاستثناء للجملة الأخيرة فقط فينتفي عنه الفسق حال التوبة ولا تقبل شهادته على التأبيد[3].

٣. الحكم عليه بالفسق.

وشأن الفاسق أن يعتزله الناس وينبذه المجتمع، والمحدود في القذف ليس من أهل الولاية ولا الشهادة عند الحنفية، ففسقه مؤبد عندهم لا ترفعه توبته، وهو بمثابة الفاسق قبل التوبة عند الجمهور، إلا في مسألة واحدة وهي صحة حلفه أيمان القسامة كالعد، وإذا ثبت فسق المرء لم يقبل خبره في أمور الديانة، ولا تقبل فتاواه إن كان عالمًا. ولا تصح في الولايات المالية، كالنظر على الوقف، والوصية، والعمل على الزكاة وخرص الثمار، وكذا الولاية على النفس، وهكذا ولاية القضاء، لا تصح ولايته، وإذا ولي وحكم لم ينفذ حكمه، وعلى الإمام تعيين قاض آخر مكانه؛ يتصفح قضاءه السابق، فما وافق الحق أمضاه، وما جانبه نقضه. أما الولاية الكبرى فلا تصح تولية الفاسق فيها، ولا العهد إليه بها، وشهادة الفاسق مردودة مطلقًا سواء كان فسقه بارتكاب كبيرة، أو ببدعة، وإذا قبل الحاكم شهادته وحكم به لم يصح الحكم، وكل هذا وغيره الكثير مظانه في كتب الفقه.

ثانيًا: عاقبته في الآخرة:

ذكر الله عز وجل عاقبة رمي المحصنات في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٣- ٢٥].

ولم يغلظ الله تعالى في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في إفك ما رميت به عائشة رضي الله عنها فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر، وما

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٣١.
(٢) الأم، الإمام الشافعي ٢/ ١٣٥.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٣١.

ذلك إلا لأمر عظيم[١]، لم يذكر فيه توبة[٢]، ثم رتب عليه اللعنة في الآخرة وهي الطرد من رحمة الله، حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبدًا[٣].

وفي هذه الآية دليل على كفر من سب، أو اتهم زوجة من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بسوء، ولهم مع ذلك عذابٌ عظيم هائل لا يقادر قدره؛ لعظم ما اقترفوه من الجناية، إن لم يتوبوا، فيعذبون[٤].

واستحقاق هذا العذاب يدل على أن جريمتهم من كبائر الذنوب، بل ومن السبع الموبقات كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث: (اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[٥].

ومن العقوبة في الآخرة تقرير الحساب وما يتم فيه من استنطاق واستجواب[٦] ومن نوقش الحساب عُذب العذاب العظيم، الذي لا تحيط العبارة بوصفه[٧]. بالإضافة إلى الفضيحة بين يدي الخلائق يوم القيامة والندم والحسرة.

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٩٨.

(٢) أخرج سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني، باب ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، عن ابن عباس أنه قرأ سورة النور ففسرها فلما أتى على هذه الآية: إن الذين يرمون المحصنات الغافلات قال: هذه في عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجعل لمن فعل ذلك توبة وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم التوبة، ثم قرأ: إن الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى قوله: إلا الذين تابوا ولم يجعل لمن قذف امرأة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم توبة، ثم تلا هذه الآية: لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم. فهمّ بعض القوم أن يقوم إلى ابن عباس فيقبل رأسه لحسن ما فسر. انظر: الدر المنثور، ٦/ ١٦٥ التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي ٢/ ٢٥٤.

(٣) التفسير الميسر، نخبة من علماء الأزهر ٦/ ٢٢٧.

(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٩٨.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رمي المحصنات، ٧/ ١٦٢، رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ١/ ٦٤، رقم ٢٧٢.

(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٥٦١.

(٧) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٦٣.



أثر الإحصان على الفرد والمجتمع

لا شك أن للإحصان بشقيه ومعانيه أثرًا على الفرد وعلى المجتمع؛ لأنه مرتبط بالغريزة الجنسية التي هي من أقوى الغرائز وأعنفها، فما لم يكن لها متنفس عن طريق نظيف شريف تمردت وطغت. ونزعت بالإنسان إلى شر منزع[1].

ففي إحصان الرجم: جعل الإسلام الزواج هو أقصر طريق لتحصن المسلم وتحقيق العفة وأسلم طريقة لإرواء الغريزة وإشباعها ليهدأ البدن من الاضطراب، وتسكن النفس عن الصراع، ويكف النظر عن التطلع إلى الحرام، وتطمئن العاطفة إلى ما أحل الله لها، وتحصل بأكمل الجهات وهو النكاح الصحيح فيعتبر حصولها من كامل آيات الله[2].

وهذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[الروم:٢١].

وبذلك يصلح أفراد المجتمع وينبثق من هذا الصلاح مجتمع قوي متماسك نظيف عفيف.

شرع الله الزواج لحكم سامية، وغايات نبيلة، وفوائد جليلة، ومنافع كثيرة دنيا وأخرى، وهو من هدي القرآن للتي هي أقوم[3]، وأمر بتيسير أسبابه؛ لأنه هو الطريق السليم للتناسل، وعمران الأرض بالذرية الصالحة. ولم يشأ الله تبارك وتعالى أن يترك الإنسان كغيره من المخلوقات. فيدع غرائز تنطلق دون وعي. ويترك الاتصال بين الذكر والأنثى فوضى لا ضابط له، كما هو الحال عند الحيوان. بل وضع النظام الملائم الذي يحفظ للإنسان كرامته، ويصون له شرفه. فجعل اتصال الرجل بالمرأة اتصالًا نظيفًا طاهرًا قائمًا على أساس التراضي والتفاهم. وبهذا وضع للغريزة طريقها المأمون، وحمى النسل من الضياع، وصان المرأة أن تكون دميةً بين أيدي العابثين أو كلًا مباحًا لكل راتع.

ومن جمال التشريع القرآني أن ضبط هذه الغريزة مرتبط بالإيمان؛ إذ الزنا عديل الشرك في القبح والإيمان قرين العفاف والتحصن[4].

مجتمع يقوم على هذا الأساس الأخلاقي والتشريع السامي تنتشر فيه العفة، ويزكو فيه الإحصان وتتماسك لبناته ويستعصي على الاختراق من أعدائه، لذلك جاء التشريع

(١) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩٣.

(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٥ / ١٤٧ .

(٣) انظر: الأنوار الساطعات لآيات جامعات، السلمان ٣ / ٢٦.

(٤) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ١٣٤ .

بتيسير أسباب الزواج، وتسهيل طرقه، لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها، وأمر بإزالة جميع العقبات من وجهه، ولا يجوز أن يكون الفقر عائقًا في طريق بناء البيوت، وتحصين النفوس بالتزويج، وقد تكفل الله عز وجل بإغنائهم إن هم اختاروا طريق العفة النظيف ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

ويجب على الأمة أن تعينهم على الزواج، وأن تهيئ لهم أسبابه، وتبذل كل ما لديها من جهودٍ حتى لا يبقى في المجتمع عضو أشل، أو عضو غير نافع[(١)].

وإلى أن تتهيأ للشباب فرصة الزواج، جاء الأمر الإلهي لهم بالاستعفاف عن الحرام حتى يغنيهم الله من فضله ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

والاستعفاف طلب العفة، والمعنى ليجتهد في العفة وقمع الشهوة، وفي الآية إرشاد للعاجزين عن مبادي النكاح وأسبابه إلى ما هو أولى لهم وأحرى بهم بعد بيان جواز مناكحة الفقراء، والعفة حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، والمتعفف المتعاطي لذلك بضرب من الممارسة والقهر[(٢)].

ومن الكذب والزور ما يقوله بعض أدعياء العلم اليوم من أن الكبت والحرمان يولدان عن الإنسان عقدًا نفسية وأضرارًا جسمية، وأن عليه أن يخفف طغيان الغريزة بالاتصال الجنسي ولو عن طريق البغاء.

إنهم يجعلون الزنى ضرورة اجتماعية لاتقاء الأمراض الجسدية والتخلص من أضرار الكبت والحرمان ويزعمون أن هذا هو الطريق السليم، لمعالجة طغيان الغريزة، وحماية الإنسان من العقد النفسية، التي قد تؤدي به إلى الجنون.

وهذا النهي عن إكراه الفتيات على البغاء - وهن يردن العفة - ابتغاء المال الرخيص، كان جزءًا من خطة القرآن في تطهير البيئة الإسلامية، وإغلاق السبل القذرة للتصريف الجنسي، ذلك أن وجود البغاء يغري الكثيرين لسهولته ولو لم يجدوه لانصرفوا إلى طلب هذه المتعة في محلها الكريم النظيف[(٣)].

أما ما يقال من أن البغاء صمام أمن يحمي البيوت الشريفة؛ لأنه لا سبيل لمواجهة الحاجة الفطرية إلا بهذا العلاج القذر عند تعذر الزواج، أو تهجم الذئاب المسعورة على الأعراض إن لم تجد هذا الكلأ المباح، أو ما يقال باسم الحرية الشخصية، فالتفكير

(١) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩٣.

(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ١٠٦.

(٣) انظر: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩٤.

على هذا النحو قلبٌ للأسباب، فالميل الجنسي يجب أن يظل نظيفًا، بريئًا موجهًا إلى إمداد الحياة بالأجيال الصالحة، وعلى الجماعات أن تصلح نظمها الاقتصادية بحيث يكون كل فرد فيها في مستوى يسمح له بالحياة المعقولة وبالزواج، فإن وجدت بعد ذلك حالات شاذة عولجت هذه الحالات علاجًا خاصًا، وبذلك لا يحتاج إلى البغاء وإلى إقامة مقاذر إنسانية يمر بها كل من يريد أن يتخفف من أعباء الجنس فيلقي فيها بالفضلات تحت سمع الجماعة وبصرها[1].

إن النظم الاقتصادية هي التي يجب أن تعالج بحيث لا تخرج مثل هذا النتن. ولا يكون فسادها حجةً على ضرورة وجود المقاذر العامة في صور آدمية ذليلة... وهذا يصنعه الإسلام بنظامه المتكامل النظيف، العفيف، الذي يصل الأرض بالسماء ويرفع البشرية إلى الأفق المشرق الوضيء المستمد من نور الله[2].

أما المجتمعات التي تنظم بيوت الدعارة باسم الحرية وتحت حماية القانون بشكل فاضح مكشوف، فسرعان ما تنهار وتتفشى فيها الأمراض والأوجاع، وقد قال صلى الله عليه وسلم: **(ما ظهرت الفاحشة في قوم فعملوا بها إلا أصيبوا بالأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم)**[3].

وهذا من أعلام النبوة[4].

أما من حيث العقوبة والتي من خصائصها في الشريعة الإسلامية أنها جوابر وزواجر ففرقت الشريعة الإسلامية بين حد البكر فخففت العقوبة في الأول فجعلتها مائة جلدة، وغلظت العقوبة في الثاني فجعلتها الرجم بالحجارة حتى الموت، وذلك لأن جريمة الزنى بعد الإحصان التزوج أشد وأغلظ من الزنى المحض في نظر الإسلام فالجريمة التي يرتكبها رجل محصن من امرأة محصنة عن طريق الفاحشة أشنع وأقبح من الجريمة التي يرتكبها مع البكر؛ لأنه قد أفسد نسب غيره ودنس فراشه وسلك لقضاء شهوته طريقًا غير مشروع مع أنه كان متمكنًا من قضائها بطريق مشروع فكانت العقوبة أشد وأغلظ[5].

أما إحصان القذف: فصورة الفرد في الإسلام محصن بالإسلام، حريته مقيدة بالشرع ليست حرية حيوانية مطلقة، عف اللسان لا يتطاول على أعراض الناس،

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ٢/ ١٣٣٢، رقم ٤٠١٩. وحسنه الألباني.

(٤) انظر: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٩٣.

(٥) المصدر السابق ١/ ٢٩٦.

محاط بتشريعات تحافظ عليه أولًا من أن ينفلت إلى الهاوية التي يخسر بها الدنيا والآخرة، كما تحافظ على المجتمع الذي يعيش فيه بحيث تصلح البيئة بما يصلح به الفرد، قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٤].

ويهدف هذا الحد إلى صون أفراد المجتمع، ووقايتهم من الإساءة إليهم بالقول، وقذفهم بما ليس فيهم من سمات سيئة، أو أفعال فاضحة.

إن تعطيل هذا الحد يعطي الفرصة لضعاف النفوس، ومن تسول لهم أنفسهم قذف الآخرين بالتهم، الأمر الذي يترتب عليه عدم أمن الفرد على عرضه، مما يصيبه بالتوتر وتوقع المكاره. وقد يدفعه هذا إلى الرد بالمثل على من قذفه، فتكون حرب تقاذفية بين أفراد المجتمع، لا يأمن، من جرائها أحد على عرضه، فتتقطع الصلات، ويصل الأمر إلى طلاق الزوجات، وشك الابن في الانتساب إلى أبيه، وشك الأب في نسب الابن إليه. وهكذا، تفقد المودة والرحمة بين أفراد الأسرة الواحدة، وتتمزق الأسرة وينهدم المجتمع من جراء تهمة بلا بينة[(١)].

وحين يقام الحد ويجلد القاذف على الملأ، ويعرف الناس كذبه وافتراءه، ولا تقبل له شهادة، ويعرف عنه أنه فاسق، فإن خطره سوف ينحسر، فلن يستطيع النيل من الآخرين، وإذا كرر القذف، تكررت العقوبة. كما يكون في إقامة الحد عليه ردع لكل من تسول له نفسه الإساءة إلى سمعة المسلمين أو النيل من أعراضهم[(٢)].

ولعل في قصة حديث الإفك، التي تحكي قذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الحصان الرزان بنت الصديق رضي الله عنه وزوج الرسول صلى الله عليه وسلم دليلًا عمليًا، ملموسًا ومحسوسًا، على أن لا أحد محصن ضد ألسنة السوء، ولو كان في طهر أم المؤمنين وعفتها. ولعظم هذه الجريمة، كانت براءة السيدة عائشة من فوق سبع سماوات، قرآنًا يتلى إلى يوم الدين، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ

(١) انظر: الأثر النفسي لتطبيق الحدود الشرعية، مجموعة من الباحثين، ص ٢٤١، ضمن موسوعة مقاتل من الصحراء.

(٢) المصدر السابق.

اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:١١-١٧].وليكن في هذه القصة عبرة، لمن تسول له نفسه الخوض في الأعراض، وصبر واحتساب، لمن يبتلى بهذا البلاء العظيم، فالعرض مداد عزة الإنسان وكرامته[١].

موضوعات ذات صلة:

الزنا، العفة، الفواحش، النكاح

(١) المصدر السابق.





عناصر الموضوع



مفهوم الاختلاف

أولًا: المعنى اللغوي:

كلمة (اختلاف) تعد مصدرًا من الفعل (اختلف)، وهذا الفعل من الناحية الصرفية فعل يدل على التفاعل والمشاركة، أي: لا يكون إلا بين اثنين فأكثر.

قال صاحب القاموس: «والخلاف: المخالفة...واختلف: ضد اتفق»[(١)]، أي: «لم يتفق في الرأي، يقال: اختلف بين كذا وكذا»[(٢)].

وذكر الزبيدي أن «الخلفة، بالكسر: الاسم من الاختلاف، أي: خلاف الاتفاق، أو مصدر الاختلاف، أي: التردد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان:٦٢]»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الاختلاف في الاصطلاح لا يختلف عن المعنى اللغوي، «فالاختلاف والمخالفة -في الاصطلاح-: أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من الضد؛ لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين»[(٤)].

وقال المناوي: «الاختلاف: افتعال من الخلاف، وهو تقابل بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرأي فيه، ذكره الحرالي»[(٥)].

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٨٠٨.
(٢) تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دوزي ٤/ ١٧٨.
(٣) تاج العروس، الزبيدي ٢٣/ ٢٥١.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٩٤.
(٥) التوقيف، المناوي ص ٤١.



الاختلاف في الاستعمال القرآني

ورد (الاختلاف) في القرآن الكريم (٥٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٩	﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:٢١٣]
الفعل المضارع	١٦	﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل:٣٩]
المصدر	٧	﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون:٨٠]
اسم الفاعل	١٠	﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩]

وجاء الاختلاف في القرآن بمعناه في اللغة، وهو: ضد اتفق، وهو أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الأول في فعله أو حاله[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٣٩، ٢٤١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٩٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ التفرق:

التفرق لغةً:

خلاف التجمع، تفرق القوم وتفارقوا، والاسم الفرقة[(١)].

والتفريق: خلاف التجميع، يقال: فرق الشيء تفريقًا وتفرقة: بدده، وهو متعدٍ، أما التفرق فلازم. والتفريق أبلغ من الفرق؛ لما فيه من معنى التكثير[(٢)].

التفرق اصطلاحًا:

لا يخرج معناه عن المعنى اللغوي.

الصلة بين التفرق والاختلاف:

التفرق هو أشد أنواع الاختلاف، وثمرة من ثماره النكرة؛ لأن من الاختلاف ما لا يصل إلى حد الافتراق، وهو أكثر أنواع الخلاف بين الأمة.

٢ المنازعة:

المنازعة لغةً:

المنازعة في اللغة مشتقة من المادة اللغوية (نزع)، وتأتي بمعنى الجذب؛ يقال: نزع القوس إذا جذبها، ومنه نزع الإنسان إلى أهله، ومنه تنازع القوم اختصموا وبينهم نزاعةٌ أي: خصومةٌ في حق، ومنه قوة العزيمة في الرأي والهمة؛ يقال للرجل الجيد الرأي: إنه لجيد المنزعة، ومنه القلع؛ يقال: نزعت الشيء من مكانه نزعًا إذا اقتلعته[(٣)].

المنازعة اصطلاحًا:

المخاصمة والمخالفة القائمة على التنازع والتجاذب لنفي ما عند الآخر ومحوه، سواء أكان حقًا أم باطلًا، والموصلة في الغالب إلى الفشل والانتكاس[(٤)].

الصلة بين المنازعة والاختلاف:

الاختلاف لا يحمل معنى المنازعة، فقد يحصل الاختلاف ولا تحصل المنازعة، أما المنازعة فهي اختلاف مع معاداة ومخاصمة.

(١) المخصص، ابن سيده ٣/ ٣٦٠.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٩١٨.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٣٢، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٤٩- ٣٥١.
(٤) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٦/ ١١٣.



٣ الاجتماع:

الاجتماع لغة:

التئام الشيء، وضم بعضه إلى بعض، وهو خلاف التفريق[١].

الاجتماع اصطلاحًا:

هو اجتماع الناس، وعدم تفرقهم، واجتماع القلوب بائتلافها، وعدم تفرقها.

الصلة بين الاجتماع والاختلاف:

الاختلاف السائغ بين المسلمين يمكن أن يحصل معه الاجتماع، ولا يكون سببًا في تفرقهم، وأما إذا كان ذلك مؤديًا إلى تفرقهم وتمزق وحدتهم وعدم اجتماعهم فإنه بذلك يكون مذمومًا.

٤ الاعتصام:

الاعتصام لغة:

العصم: الإمساك، والاعتصام: الاستمساك.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:١٠٣] أي: تمسكوا بعهد الله[٢].

والاعتصام بحبل الله: هو ترك الفرقة، واتباع القرآن[٣].

الاعتصام اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الاعتصام في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

الصلة بين الاعتصام والاختلاف:

الاعتصام: الاستمساك بالشيء، افتعالٌ منه، والمقصود الاستمساك بحبل الله، وهو بهذا الاعتبار وسيلة للاجتماع، وطريق إليه؛ ولهذا يقال: الاستمساك بحبل الله سبب للاجتماع، وعصمة من الخلاف والتفرق.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٧٩ ، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٥٣ .
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٤١٨، تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٢٠٥.
(٣) المفردات، الراغب ص ٥٦٩، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٣٥.

الاختلاف سنة الله تعالى في الخلق

إن الاختلاف سنةٌ إلهية بين جميع المخلوقات! ليس البشر وحدهم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام:١٤١].

وقال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور:٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم:٢٢].

وعن الاختلاف العلمي والفكري يقول رب العزة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٨-١١٩].

«ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك: فيه الدلالة القاطعة على أن الله -جل وعلا- واحد، لا شبيه له ولا نظير ولا شريك، وأنه المعبود وحده.

وفيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدرة وإرادة الفاعل المختار -سبحانه-، وأن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته -جل وعلا-، كما أوضح ذلك في قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٤].

فالأرض التي تنبت فيها الثمار واحدة؛ لأن قطعها متجاورة، والماء الذي تسقى به ماء واحد، والثمار تخرج متفاضلة، مختلفة في الألوان والأشكال والطعوم، والمقادير والمنافع.

فهذا أعظم برهان قاطع على وجود فاعل مختار، يفعل ما يشاء كيف يشاء، سبحانه جل وعلا عن الشركاء والأنداد»[1].

وحكمة أخرى لهذا الاختلاف في الخلق؛ أشار لها أثرٌ لأبي بن كعب رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢] قال: (ورفع عليهم

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٤٢.

آدم عليه السلام فجعل ينظر إليهم فرأى الغني والفقير، وحسن الصورة ودون؛ ذلك فقال: رب! لولا سويت بين عبادك! قال: إني أحببت أن أشكر)[1].

فالغني يرى الفقير ثم يشكر الله الذي أغناه، والصحيح يرى المريض ثم يشكر الله الذي عافاه، والمهتدي يرى الضال ثم يشكر الله الذي هداه.

أنواع الاختلاف

«قضت مشيئة الله تعالى خلق الناس بعقول ومدارك متباينة، إلى جانب اختلاف الألسنة والألوان والتصورات والأفكار، وكل تلك الأمور تفضي إلى تعدد الآراء والأحكام، وتختلف باختلاف قائليها، وإذا كان اختلاف ألسنتنا وألواننا ومظاهر خلقنا آية من آيات الله تعالى؛ فان اختلاف مداركنا وعقولنا وما تثمره تلك المدارك والعقول آية من آيات الله تعالى كذلك، ودليل من أدلة قدرته البالغة»[2]، لكن هذا الاختلاف ليس على درجة واحدة، بل منه المحمود ومنه المذموم، وهذا ما سنوضحه في هذا المبحث بعون الله تعالى.

أولًا: الاختلاف المحمود:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:٢٥٣].

فالاختلاف في هذه الآية لا نستطيع أن نقول: إنه شرٌّ كله، أو مذموم بإطلاق!

بل من خالف الكفار في كفرهم وضلالهم؛ فآمن بالله تعالى، وصدق رسله،

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢١٢٣٢.
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٤٤.

(٢) أدب الاختلاف في الإسلام، طه العلواني ص ٢٤.

واستسلم لشريعته؛ فخلافه هذا ممدوح محمود محبوب لله تعالى، ومن خالف المؤمنين في إيمانهم بربهم وتصديقهم برسله واستسلامهم لشريعته؛ فخلافه هذا شر ووبال عليه في الدنيا والآخرة[1].

قال الله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة:٢١٣].

ولذا لما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق، فإنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[2].

وفي هذا السياق يقول ابن القيم رحمه الله: «فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان ومع من كان -ولو كان مع من يبغضه ويعاديه- ورد الباطل مع من كان -ولو كان مع من يحبه ويواليه- فهو ممن هدى لما اختلف فيه من الحق؛ فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلًا، وأقومهم قيلًا، وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا -أي: فيما بينهم- فاختلافهم اختلاف رحمة وهدى، يقر بعضهم بعضًا عليه ويواليه ويناصره، وهو داخل في باب التعاون والتناظر الذي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم؛ بالتناظر والتشاور، وإعمالهم الرأي وإجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى درك الصواب»[3].

ثانيًا: الاختلاف المذموم:

النوع الثاني من الاختلاف هو الذي «يكون المختلفون كلهم مذمومين، وهم الذين اختلفوا بالتأويل، وهم الذين نهانا الله سبحانه عن التشبه بهم في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[آل عمران:١٠٥].

وهم الذين تسود وجوههم يوم القيامة وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ١/ ١٥٥، الصواعق المرسلة، ابن القيم ٢/ ٥١٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٧٠.

(٣) الصواعق المرسلة ٢/ ٥١٦- ٥١٧.

﴿ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝١٧٦﴾ [البقرة:١٧٦].

فجعل المختلفين كلهم في شقاق بعيد، وهذا النوع هو الذي وصف الله أهله بالبغي، وهو الذي يوجب الفرقة والاختلاف، وفساد ذات البين، ويوقع التحزب والتباين»[1].

وفي هذا المعنى يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم:٣١-٣٢].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:١٩].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البينة:٤].

قال الشافعي: «فإنما رأيت الله ذم الاختلاف في الموضع الذي أقام عليهم الحجة ولم يأذن لهم فيه»[2].

ومن صور الخلاف المذموم في القرآن الكريم: مخالفة المسلمين في أصل إيمانهم وعقيدتهم في الله تعالى وأنبيائه ورسله وشرائعه ونحو ذلك؛ فمن فعل ذلك فهو داخل في هذا الاختلاف المذموم، قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

أي: لا تختلفوا في التوحيد والإيمان بالله، وطاعة رسله وقبول شرائعه؛ فإن هذه الأمور قد تطابقت عليها الشرائع، وتوافقت فيها الأديان؛ فلا ينبغي الخلاف في مثلها[3].

وقال الآمدي رحمه الله: «فيجب حمل ما ورد من ذم الاختلاف والنهي عنه: على الاختلاف في التوحيد والإيمان بالله ورسوله، والقيام بنصرته، وفيما المطلوب فيه القطع دون الظن...»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣] ما يشير لذلك.

قال الإمام الجصاص: «﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ يعني بالإسلام، وفي ذلك دليل على أن التفرق المذموم المنهي عنه في الآية هو في أصول الدين والإسلام لا في فروعه، والله أعلم»[5].

ومما يلتحق بالصورة السابقة للخلاف المذموم: خلاف الخوارج والرافضة والمعتزلة والقرآنيين وغيرهم من أهل البدع لأهل السنة والحق؛ مما قد يصل في بعض صوره إلى الكفر والعياذ بالله.

والمخالفون فيه خالفوا جمهور

(١) المصدر السابق ٢/ ٥١٤.
(٢) جماع العلم، ص ٤٤.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٠٧.
(٤) الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي ٤/ ١٥.
(٥) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٣١٥.

المسلمين في أصول المسائل التي يقوم عليها المعتقد والأحكام، فأصولهم فاسدة، ومن ذلك: تقديم العقل على النقل، أو القول بعصمة الأولياء أو أئمة أهل البيت، أو ترك الاحتجاج بالسنة.

وهذا النوع هو الذي يؤدي إلى فرقة الأمة وتشرذمها، وجاءت النصوص القرآنية والنبوية في التحذير منه، ومن ذلك: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

قال ابن عاشور: «إلا من رحم ربك: أي: فعصمهم من الاختلاف، وفهم من هذا: أن الاختلاف المذموم المحذر منه هو الاختلاف في أصول الدين الذي يترتب عليه اعتبار المخالف خارجًا عن الدين وإن كان يزعم أنه من متبعيه.

فإذا طرأ هذا الاختلاف وجب على الأمة قصمه، وبذل الوسع في إزالته من بينهم بكل وسيلة من وسائل الحق والعدل؛ بالإرشاد والمجادلة الحسنة والمناظرة.

فإن لم ينجع ذلك فبالقتال كما فعل أبو بكر في قتال العرب الذين جحدوا وجوب الزكاة، وكما فعل عليٌّ في قتال الحرورية الذين كفروا المسلمين، وهذه الآية تحذير شديد من ذلك الاختلاف»[1].

أسباب الاختلاف

والمقصود بالاختلاف هنا، والذي سنبحث عن أسبابه في القرآن: هو اختلاف الأفكار والعقائد ونحوها -لا اختلاف الألسن والألوان ونحوها- ومن أعظم أسباب هذا الاختلاف هو:

أولًا: فساد النية:

وينطوي تحتها أمور، منها:

١. البغي.

قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٦-١٧].

قال الزجاج: «أي للبغي، لم يختلفوا؛ لأنهم رأوا البصيرة والبرهان»[2].

وقال الله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:١٣-١٤].

فالله تعالى «لما بين أنه أمر كل الأنبياء

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ١٨٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٨٧.

والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه؛ كان لقائل أن يقول: فلماذا نجدهم -أي الأمم- متفرقين؟ فأجاب الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ يعني أنهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة! فحملتهم الحمية النفسانية، والأنفة الطبيعية على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب، ودعا الناس إليه، وقبح ما سواه طلبًا للذكر والرياسة، فصار ذلك سببًا لوقوع الاختلاف»[(١)].

٢. الحسد.

الحسد نوعان: محمود ومذموم، «المحمود تمنى مثل ما تراه لغيرك وهذا يسمى الغبطة، والمذموم: أن تتمنى زواله عنه وانتقاله إليك وهو الحسد بالحقيقة»[(٢)].

لهذا جاء في حديث ابن مسعود في الصحيح: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)**[(٣)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٨٨.
(٢) مشارق الأنوار، القاضي عياض ١/ ٢١١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم ٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم ٨١٦.

قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾ [البقرة:١٠٩].

أي: حسدوا رسول الله تعالى أن كرمه الله تعالى بالرسالة دونهم! ثم حسدوا العرب الذين أن آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم دونهم! فتأمل كيف استولى عليهم الحسد حتى دعاهم إلى مخالفة رسول الله تعالى في ما يدعو إليه، ومخالفة سبيل المؤمنين الذين آمنوا بنبوته عليه الصلاة والسلام! حتى قال تعالى لهؤلاء المكذبين من أهل الكتاب: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖ﴾ [البقرة:١٣٧].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ «إعلام منه لهم بأنهم لم يؤمروا بذلك في كتابهم، وأنهم يأتون ما يأتون من ذلك على علم منهم بنهي الله إياهم عنه»[(٤)].

«﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ وكان هذا قبل آية القتال، ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ بعذابه؛ القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني النضير»[(٥)].

(٤) جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٠١.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٥٥.

وكما حمل الحسد هؤلاء المكذبين من أهل الكتاب حتى خالفوا رسول الله والمؤمنين؛ فقد حمل الحسد كذلك مشركي العرب؛ حتى قالوا عن من آمن برسول الله من فقراء المسلمين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام:٥٣]!

«والحسد يكون أعظم ما يكون: إذا كان الحاسد يرى نفسه أولى بالنعمة المحسود عليها، فكان ذلك الداعي فتنة عظيمة في نفوس المشركين؛ إذ جمعت كبرًا وعجبًا وغرورًا بما ليس فيهم، إلى احتقارٍ للأفاضل وحسدٍ لهم، وظلم لأصحاب الحق، وإذ حالت بينهم وبين الإيمان والانتفاع بالقرب من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم»[1].

«واعلم أن الحسد ربما أفضى إلى التنازع والتقاتل»[2]؛ كما يظهر ذلك جليًا في قصة ابني آدم ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾ [المائدة:٢٧-٣٠].

وفي قصة يوسف عليه السلام مع إخوته؛ حين قالوا بعدما حسدوه: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ [يوسف:٩].

٣. اتباع الهوى.

قال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

فانظر كيف جعلوا أهواءهم هي الفيصل والحكم، وخالفوا بها أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام «وإنما كانوا كذلك؛ لإرادتهم الرفعة في الدنيا، وطلبهم لذاتها، والترؤس على عامتهم، وأخذ أموالهم بغير حق، وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك؛ فيكذبونهم لأجل ذلك، ويوهمون عوامهم كونهم كاذبين! ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم»[3].

وقال سبحانه لرسوله الكريم: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٠﴾ [القصص:٥٠].

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٢٥٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٦٤٨.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٥٩٦.

ثانيًا: ترك الوحي:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة:١٤].

«قال الحسن: فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى، ﴿أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ﴾ في التوحيد والنبوة، ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بالأهواء المختلفة، والجدال في الدين، قال مجاهد وقتادة: يعني بين اليهود والنصارى، وقال قوم: هم النصارى وحدهم صاروا فرقًا! منهم اليعقوبية والنسطورية والملكانية، وكل فرقة تكفر الأخرى»[١].

«فإن قيل: كيف أغريت بينهم العداوة وهم لم يزالوا إلبًا على المسلمين؟

فجوابه: أن العداوة ثابتة بينهم في الدين بانقسامهم فرقًا، وذلك الانقسام يجر إليهم العداوة وخذل بعضهم بعضًا، ثم إن دولهم كانت منقسمة ومتحاربة، ولم تزل كذلك، وإنما تألبوا في الحروب الصليبية على المسلمين، ثم لم يلبثوا أن تخاذلوا وتحاربوا، ولا يزال الأمر بينهم كذلك إلى الآن، وكم ضاعت مساعي الساعين في جمعهم على كلمة واحدة، وتأليف اتحادٍ بينهم، وكان اختلافهم لطفًا بالمسلمين في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، على أن اتفاقهم على أمة أخرى لا ينافي تمكن العداوة فيما بينهم، وكفى بذلك عقابًا لهم على نسيانهم ما ذكروا به»[٢]، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤].

ولا شك أن في آية ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ﴾ تحذيرًا لهذه الأمة من سلوك مسلك أهل الكتاب في نسيان دين الله تعالى.

ثالثًا: اختلاف الأفهام:

ومن أسباب الاختلاف أيضًا: اختلاف أفهام الناس ومداركهم، ومما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

«فمعنى قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾ أنه ألهمه وجهًا آخر في القضاء هو أرجح؛ لما تقتضيه صيغة التفهيم من شدة حصول الفعل أكثر من صيغة الإفهام، فدل على أن

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٤٩.

فهم سليمان في القضية كان أعمق، وذلك أنه أرفق بهما، فكانت المسألة مما يتجاذبه دليلان فيصار إلى الترجيح، والمرجحات لا تنحصر، وقد لا تبدو للمجتهد، والله تعالى أراد أن يظهر علم سليمان عند أبيه ليزداد سروره به، وليتعزى على من فقده من أبنائه قبل ميلاد سليمان»[(١)].

وممكن أن يضرب هذا النموذج في قصة داود وابنه سليمان عليهما السلام مثالًا على اختلاف الأفهام المحمودة؛ حيث إنه لم يحصل جراء اختلاف فهمهما شر بينهما أو نزاع.

قال ابن القيم رحمه الله: «ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه؛ لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم: بغي بعضهم على بعض وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكلٌّ من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله؛ لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية، ولكن إذا كان الأصل واحدًا، والغاية المطلوبة واحدة، والطريق المسلوكة واحدة؛ لم يكد يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافًا لا يضر»[(٢)].

آثار الاختلاف

لاشك أن للاختلاف آثارًا تنجم عنه، لكن وصف تلك الآثار يرجع إلى وصف ذلك الاختلاف؛ فإن اختلافًا محمودًا كانت آثاره كذلك، وإن كان اختلافًا مذمومًا كانت آثاره كذلك.

والذي يهمنا هنا: هو تسليط الضوء على آثار الاختلاف التي ذكرها القرآن الكريم، فنقول:

من الآثار التي ذكرها القرآن الكريم للاختلاف ما يلي:

أولًا: الفشل وذهاب الريح.

قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

وماذا بعد الفشل وذهاب الريح، إلا تسلط الأعداء على المسلمين وسومهم سوء العذاب! قال قتادة: «لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم»[(٣)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها: كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها»[(٤)].

وقال ابن تيمية في موضع آخر: «وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١١٨.
(٢) الصواعق المرسلة، ابن القيم ٢/ ٥١٩.
(٣) الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٧٦.
(٤) الفتاوى الكبرى، ٢/ ١٠٩.

ومشايخها؛ وأمرائها وكبرائها؛ هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة:١٤].

فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به؛ وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب»[١].

ثانيًا: الشقاق.

قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾ [البقرة:١٧٦].

ثالثًا: إلغاء كل ما لدى الخصم من حق.

قال عز وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾ [البقرة:١١٣].

قال ابن عطية: «وفي هذا من فعلهم كفر كل طائفة بكتابها؛ لأن الإنجيل يتضمن صدق موسى وتقرير التوراة، والتوراة تتضمن التبشير بعيسى وصحة نبوته، وكلاهما تضمن صدق محمد صلى الله عليه وسلم، فعنفهم الله تعالى على كذبهم، وفي كتبهم خلاف ما قالوا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تنبيه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم على ملازمة القرآن والوقوف عند حدوده»[٢].

«أما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فإنه يقتضي أن من تقدم ذكره يجب أن يكون عالمًا لكي يصح هذا الفرق، فبين تعالى أنهم مع المعرفة والتلاوة إذا كانوا يختلفون هذا الاختلاف؛ فكيف حال من لا يعلم!»[٣].

رابعًا: التفرق والتحزب.

قال تعالى: ﴿۞مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم:٣١-٣٢].

«﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾ جعلوه أديانًا مختلفة لاختلاف أهوائهم، ﴿وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ فرقًا كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها، ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾

(١) مجموع الفتاوى، ٣/ ٤٢١.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٩٨.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٠.

فرح بمذهبه مسرور يحسب باطله حقًا»[1].

خامسًا: العذاب العظيم في الآخرة.

وسواد الوجه كذلك -والعياذ بالله-، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 105-106].

«يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ يا معشر الذين آمنوا ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ من أهل الكتاب، ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في دين الله وأمره ونهيه، ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ من حجج الله فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحق فيه؛ فتعمدوا خلافه! وخالفوا أمر الله، ونقضوا عهده وميثاقه جراءة على الله! ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾ يعني: ولهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب من بعد ما جاءهم ﴿عَذَابٌ﴾ من عند الله ﴿عَظِيمٌ﴾، يقول جل ثناؤه: فلا تفرقوا يا معشر المؤمنين في دينكم تفرق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم؛ فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي لهم»[2].

(1) مدارك التنزيل، النسفي 2/ 700.
(2) جامع البيان، الطبري 7/ 92.

وسائل رفع الاختلاف

الاختلاف الذي حذرنا الله تعالى منه في كتابه الكريم هو شرٌّ كله، وكما أنه سبحانه قد نهانا عنه وحذرنا منه؛ فقد أرشدنا وهدانا إلى سبل اجتنابه والوقاية منه، و«من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: 1].

ويقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].

ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105)﴾ [آل عمران: 105].

وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف، وتنهى عن الفرقة والاختلاف»[3]، فإذا وقع الاختلاف فقد هدانا الله تعالى في كتابه الكريم إلى أمور نرفع به عنا الاختلاف والنزاع، منها:

أولًا: الاعتصام بحبل الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا الأصل العظيم -وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا وأن لا يتفرق- هو من أعظم أصول

(3) مجموع الفتاوى، ابن تيمية 28/ 51.

الإسلام، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة وخاصة»[1].

وعندما يتأمل المسلم هذه الآية العظيمة يجد فيها مؤكدات كثيرة لوجوب الاعتصام بحبل الله تعالى، فتأمل معنا:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟﴾ واو الجماعة هنا يعم كل المؤمنين الذين ناداهم الله في الآية السابقة لهذه الآية، ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ لا بشيء سواه، وسواء كان حبل الله هو القرآن أو الرسول أو الدين؛ فيبقى مفهومه: أن نترك أهواءنا وأطماعنا ومصالحنا الشخصية التي هي غير معصومة للشيء المعصوم، الذي هو القرآن أو الرسول أو الدين أو كل هذه الأمور، قال «عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الصراط محتضر؛ تحضره الشياطين، ينادون: يا عبد الله! هلم هذا الطريق! ليصدوا عن سبيل الله؛ فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله هو كتاب الله»[2].

ثم قال سبحانه: ﴿جَمِيعًا﴾! مع أنه قد فهم معنى العموم من ضمير الجماعة في قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟﴾! لكنه التوكيد والتأكيد على هذا الأمر العظيم.

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أيضًا قد فهم هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟﴾! لكنه كذلك مزيدٌ من التوكيد والتأكيد والاهتمام بهذا الأمر الجليل.

ومن الآيات ذات الصلة بهذا الأمر: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: ١٠].

وقوله عز وجل: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

ونحوها من الآيات التي تبين أن الله تعالى أنزل كتابه وأرسل رسوله ليرجع الناس إليهما ويعتصموا بهما من الفرقة والاختلاف والتنازع.

ثانيًا: الإصلاح.

قال الله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

والمعروف: هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، ﴿أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو: الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله

(١) المصدر السابق ٢٢/ ٣٥٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٧٢.

الإصلاح بينهما؛ ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به، ثم أخبر جل ثناؤه بما وعد من فعل ذلك فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾...ولا حد لمبلغ ما سمى الله ﴿عَظِيمًا﴾ يعلمه سواه!»[1].

ولعظيم أمر الإصلاح بين الناس أحل الشارع الحكيم الكذب من أجل ذلك؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا، أو يقول خيرًا»[2].

ثالثًا: الجدال بالتي هي أحسن.

وهو «دفع المرء خصمه عن إفساد قوله؛ بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة»[3].

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت:٤٦].

وليس الجدال خاص بأهل الكتاب! بل هو عام للكفار والمؤمنين؛ بهدف إحقاق الحق وإبطال الباطل.

وعن جدال المؤمنين يقول تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١].

بل ذكر الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام أنهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود:٣٢]!

لذا قال الشوكاني رحمه الله: «فأما الجدال لاستيضاح الحق، ورفع اللبس، والبحث عن الراجح والمرجوح، وعن المحكم والمتشابه، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن، وردهم بالجدال إلى المحكم؛ فهو من أعظم ما يتقرب المتقربون، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]»[4].

أما الجدال المنهي عنه فهو «الجدال بالباطل، والقصد إلى دحض الحق كما في قوله: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر:٥]»[5].

رابعًا: المباهلة.

وهي: «الملاعنة»[6]، وهو أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله

---

(١) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٠١، ٢٠٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٦٩٢، ومسلم في صحيحه، رقم ٢٦٠٥.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص ٧٤.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٥٢.
(٥) المصدر السابق.
(٦) قال الزمخشري: «ومأخذها من الإبهال وهو الإهمال والتخلية لأن اللعن والطرد والإهمال من وادٍ واحد» الفائق في غريب الحديث ١/ ١٤٠.

على الظالم منا»[1].

قال سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران:٦١].

والمباهلة وسيلة من وسائل رفع الاختلاف بين المختلفين التي ذكرها القرآن الكريم؛ ليتضح للناس المحق من المبطل.

قال ابن كثير -مرجحًا لمعنى المباهلة-: «وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة:٦-٨].

فهم -عليهم لعائن الله- لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى! دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين، فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم.

وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصارى -بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوهم وعنادهم- إلى المباهلة.

فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عينٌ تطرف! فعند ذلك جنحوا للسلم، وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون؛ فضربها عليهم»[2].

وهذه المباهلة ليست خاصة مع الكفار والمشركين؛ بل قد يتباهل المسلمون في بعض المسائل، كما دعى ابن عباس رضي الله عنه إلى مباهلته في بعض مسائل الفرائض[3].

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ١٦٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٣٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، ١٠ / ٢٥٥، رقم١٩٠٢٤، والبيهقي في السنن الكبرى، ٧/ ٦٣٠، رقم١٥٢٥٠.

خامسًا: مقاتلة البغاة:

نعم! فمن وسائل رفع النزاع والاختلاف التي ذكرها القرآن الكريم: مقاتلة الطائفة الباغية التي تخالف المسلمين فتبغي عليهم بالقتال، قال الله سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

وقد ذكرت هذه الآية وسلتين من وسائل رفع الخلاف: الإصلاح ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، ثم المقاتلة ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ فهو قتال له سببه، وله غايته المحددة المعروفة.

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَإِن﴾ إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين، فإن قيل: فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم؟! نقول قوله تعالى: ﴿وَإِن﴾ إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع إلا نادرًا، غاية ما في الباب أن الأمر على خلاف ما ينبغي!»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «قوله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فإن الله سبحانه أمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين: أن يدعوهم إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله، حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم، حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقروا بحكم الله»[٢].

قال الرازي: «فالواجب على الأمير دفعهم، وإن كان هو الأمير؛ فالواجب على المسلمين منعه بالنصيحة فما فوقها، وشرطه: أن لا يثير فتنة مثل التي في اقتتال الطائفتين أو أشد منهما»[٣].

هذه هي الوسائل التي هدانا إليها القرآن الكريم -أو غالبها- لرفع الخلاف والنزاع الذي يقع بيننا -نحن المسلمين- وبين الكفار، أو بين المسلمين بعضهم البعض، فطوبى لمن جعل هذا الكتاب العظيم نبراسه وهاديه في السلم والحرب، والصلح والخلاف، والرضا والغضب...الخ، إذن لقد أفلح في الدنيا والآخرة وأنجح.

موضوعات ذات صلة:

الاجتماع، الأخوة، الأمة، العلاقات الاجتماعية، الوحدة

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٠٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٩٢، ٢٩٣.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٠٤.







عناصر الموضوع



مفهوم الأخذ

أولًا: المعنى اللغوي:

الهمزة والخاء والذال أصل واحد تتفرَّع منه فروعٌ متقاربة في المعنى، فالأصل حَوْز الشيء وجبْيُه وجمعه وتحصيله، وذلك تارةً بالتناول، وتارةً بالقهر، وهو خِلَافُ الْعَطَاءِ.

ولفظة «أخذ» في اللغة لها اشتقاقات متعددة تتقارب في المعنى، فتأتي بمعنى الحصول على الشيء بالتناول أو القهر، والأخذ بالذنب بمعنى العذاب والعقاب والإهلاك، واتخذت بمعنى كسبت، والإخاذ الغُدُر وأيضًا تقال لمن يأخذ أرضًا ويتملكها، والأخيذ تقال للأسير وللشيخ الغريب، والأَخيذةُ ما اغْتُصِبَ من شيء فأُخِذَ وقد يأتي الأخذ بمعنى الرمد، ويقال: أخذ إخذهم، أي: سلك طريقهم ومنهجهم، وتطلق الأخذة على الرقية[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يختلف معنى «أخذ» باختلاف السياق الذي ورد فيه المصطلح، ففي كل سياق يحمل معنى مختلفًا وفقًا للسياق الذي ورد فيه، وقد اتفق العلماء والمفسرون على معنى أخذ في السياق الواحد.

ومن معاني الأخذ: وقوع العذاب والإهلاك والاستئصال والعقوبة نتيجة الشرك بالله تعالى، وجحود آياته، وتكذيب رسله، ونتيجة الظلم الشديد[2].

كما يأتي الأخذ بمعنى الحوز للشيء وتحصيله[3]، فالأخذ إمَا أن يكون خلاف العطاء، وهو ما كان باليد كالعطاء، وإما أخذ قهر، ومنه أخذ الأرواح، وأخذ العهود والمواثيق، وهذا المعنى ظاهر، والمعنيُ هنا المعنى الأوَل، وكلاهما صفة لله تعالى[4].

«فمعنى الأخذ: أن تحتوي الشيء، واحتواؤك له معناه أنك أقوى من تماسكه في ذاته، أو استمساك غيره به، وقد يكون الأَخْذ بلا ذنب»[5].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٦٢، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٣٣٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٧٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ٩٦.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٧، الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨، تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٣٦٣.

(٤) انظر: صفات الله، علوي بن عبد القادر السَقّاف، ١/ ٥٣.

(٥) تفسير الشعراوي، ١٣/ ٨٠٢١.



الأخذ في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أخذ) في القرآن الكريم (٩) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٩	﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]

وجاء الأخذ في القرآن بمعنى العقوبة[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود:١٠٢].

والمفاعلة فيه للمبالغة[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٨.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٦٠١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٦٠١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاتخاذ:

الاتخاذ لغةً:

أخذت الشيء آخذه أخذًا: تناولته، والمفعول متخذ، والاتخاذ: افتعال أيضًا من الأخذ، وهو مصدر من باب الافتعال، واستخذ أرضًا: اتخذها، والتأخاذ كالتذكار تفعال من الأخذ[(١)].

الاتخاذ اصطلاحًا:

أخذ الشيء لأمر يستمر فيه، مثل: الدار يتخذها مسكنًا والدابة يتخذها قعده ويكون الاتخاذ التسمية والحكم[(٢)].

الصلة بين الأخذ والاتخاذ:

الأخذ: مصدر جاء بمعنى العذاب والحصول على الشيء، والاتخاذ: أخذ الشيء لأمر يستمر فيه، مثل: الدار يتخذها مسكنًا، والدابة يتخذها قُعدة، والاتخاذ التسمية والحكم[(٣)].

٢ التناول:

التناول لغةً:

النون والواو واللام أصل صحيح يدل على إعطاء، ونولته: أعطيته، ونالت المرأة بالحديث والحاجة: سمحت، أو همت، و(النوال) العطاء، و(النائل) مثله، يقال: (نال) له بالعطية من باب قال و(ناله) العطية، و(نوله تنويلا) أعطاه نوالًا، و(ناوله) الشيء (فتناوله)، وناولته فتناوله: أخذه[(٤)].

التناول اصطلاحًا:

النيل إدراك الشيء ولحوقه يقال: نالني من فلان معروف، أي: وصل إلي، وأما النول بالواو فمعناه التناول يقال: نلته، أي: تناولته[(٥)]، وقد يأتي التناول بمعنى آخر وهو الإهانة والتعرض بالأذى قولًا أو فعلًا، كقولك: فلما خرج تناوله بعض الخصوم، وتناولاه من الذكر

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٨، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢، القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص٣٣٠.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٦٨٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٠٦٦.
(٥) انظر: فتح البيان، القنوجي، ٢/ ٢٨٣



عبثًا بما لم يكن أهلًا له[1].

الصلة بين الأخذ والتناول:

التناول أخذ القليل المقصود إليه، ولهذا لا يقال: تناولت كذا من غير قصد إليه، ويقال: أخذته من غير قصد[2].

٣ البطش:

البطش لغةً:

الباء والطاء والشين أصل واحد، وهو أخذ الشيء بقهر وغلبة وقوة والتناول بشدة عند الصولة، والأخذ الشديد في كل شيء بطش، بطش يبطش ويبطش بطشًا[3].

البطش اصطلاحًا:

البَطْشُ: الأَخذ الْقَوِيُّ الشَّدِيدُ، والبَطْشة: السَطْوة والأَخذُ بالعُنْف[4].

الصلة بين الأخذ والبطش:

البطش هو إحدى طرق الأخذ، فهو الأخذ القوي الشديد، وقد يطلق الأخذ على تناول الشيء بدون شدة أو قهر، بخلاف البطش الذي لا يكون إلا بالشدة والقهر، فلفظة البطش تدل على مضمون الشدة والغلبة.

٤ الإهلاك:

الإهلاك لغةً:

الهاء واللام والكاف: يدل على كسر وسقوط، والهلاك: السقوط، ولذلك يقال للميت هلك، والهلك الشيء الهالك، واستهلك المال: أنفقه وأنفده، والتهلكة: كل ما عاقبته إلى الهلاك[5].

الإهلاك اصطلاحًا:

«هلاك النفس، حالة الإنسان البعيد عن طريق الخلاص أو النجاة، أو المنغمس في

(١) انظر: تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي، ١٠/ ٣٣٨.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٦٢، مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٦، لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٢٦٧.
(٤) الصحاح، الجوهري، ٣/ ٩٩٦.
(٥) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٢٧، لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٥٠٣- ٥٠٨، القاموس المحيط، ص٩٥٨.

الرذيلة»[1]، والإهلاك يكون بافتقاد الشيء عنك وهو عند غيرك موجود، أو هلاك باستحالة وفساد[2]، فهو حالة توحي بانتهاء الشيء واستنفاذه سواء كان دمارًا أو موتًا أو استهلاكًا ونفاذًا، وهو نهاية لكل من سلك طريقًا بعيدًا عن طريق الحق والنجاة.

الصلة بين الأخذ والإهلاك:

يشترك الإهلاك مع الأخذ في معنى وقوع العقوبة والعذاب والاستئصال في حق أهله، وحصول ذلك يكون لنفس السبب، وهو: الشرك بالله والظلم وجحود آيات الله وتكذيب رسله.

(١) تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي، ١١/ ١٩.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، ٥/ ٣٣٨.

الأخذ في حق الله عز وجل

يتناول هذا المبحث الأخذ في حقه تعالى، ومن ذلك نفي استيلاء السِنَة والنوم عن الله، كما تناول المواثيق التي أخذها الله على بني آدم، والمواثيق التي أخذها الله على الأنبياء بتبليغ رسالاته بأمانة وصدق، والمواثيق التي أخذها الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يؤمنوا برسله وكتبه وأن يبلغوا ما في كتبه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وعدم تحريفها، إلا أنهم نقضوا هذه المواثيق إلا من عصمه الله منهم.

أولًا: تنزيه الله عن السِنَة والنوم:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[البقرة: ٢٥٥].

نفى الله عز وجل في هذه الآية أن تأخذه سِنَة ولا نوم، ولم يقل: لا ينام؛ لأن النوم يكون باختيار، والأخذ يكون بالقهر، والنوم من صفات النقص التي اتصفت به المخلوقات، فهي تحتاج إلى النوم من أجل الاستراحة من تعب سبق واستعادة القوة لعمل مستقبل، ولما كان أهل الجنة كاملي الحياة، كانوا لا ينامون[(١)]، «والسِنَة والنوم من الأوصاف المستحيلة في حق الله تعالى، فإن النوم أخو الموت، ومن تأخذه السِنَة والنوم لا يكون قيومًا دائمًا بنفسه، مقيمًا لغيره، فإن السنة والنوم يناقض ذلك»[(٢)]، والسِنَة ما كان من العين فإذا صار في القلب صار نومًا، وقال السدي: السِنَة: ريح النوم الذي يأخذ في الوجه فينعس الإنسان، وهي أول النوم، والنوم معروف وهو فتور يعتري أعصاب الدماغ من تعب إعمال الأعصاب من تصاعد الأبخرة البدنية الناشئة عن الهضم والعمل العصبي، فيشتد عند مغيب الشمس ومجيء الظلمة فيطلب الدماغ والجهاز العصبي الذي يدبره الدماغ استراحة طبيعية فيغيب الحس شيئًا فشيئًا وتثقل حركة الأعضاء، ثم يغيب الحس إلى أن تسترجع الأعصاب نشاطها فتكون اليقظة.

ونفي استيلاء السِنَة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال الحياة ودوام التدبير، وإثبات لكمال العلم، فحياة النائم في حالهما حياة ضعيفة، وهما يعوقان عن التدبير وعن العلم بما يحصل في وقت استيلائهما على الإحساس، وفي هذه الجملة تأكيد لما قبلها، وإقرار لمعنى الحياة والقيومية الدائمة الكاملة، وفي لفظ الأخذ غلبة ما، فلذلك حسنت في هذا الموضع بالنفي.

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص٧٦.

(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني الحنبلي، ص٢٦٣.

فالله عز وجل لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم؛ لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيومًا، فهو الدائم على حال، والقيوم على جميع الأنام، ولو نام كان مغلوبًا مقهورًا؛ لأن النوم غالب النائم وقاهره، ولو وسن لكانت السماوات والأرض وما فيهما دكًا؛ لأن قيام جميع ذلك بتدبيره وقدرته، والنوم شاغل المدبر عن التدبير، والنعاس مانع المقدر عن التقدير بوسنه ، وهذا توكيد لقيامه سبحانه على كل شيء، وقيام كل شيء به، ولكنه توكيد في صورة تعبيرية تقرب للإدراك البشري صورة القيام الدائم، في الوقت الذي تعبر فيه هذه الصورة عن الحقيقة الواقعة من مخالفة الله سبحانه لكل شيء[١] .

جاء في الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات فقال: **(إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)**[٢] .

وينبغي أن يُعلم أن النفي ليس فيه مدحٌ ولا كمال إلاَّ إذا تضمَن إثباتًا ، فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنًا لإثبات مدحٍ كقوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فإنه يتضمن كمال الحياة والقيام[٣]، فالله عز وجل لا ينام، أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، وإلا لكان ذلك نقصًا في حياته وقيوميته.

ولهذا أردف هذين الاسمين بنفي السِنَة والنوم، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء ولا يغيب عنه شيء، وجل عن أن يشبهه الأنام في ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله؛ لأن الصفات تابعة لموصوفها فكما أن ذاته لا تشبه الذوات فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقات[٤] .

«وفي ذلك نفي النقائص عن الله المتضمن لإثبات الكمالات»[٥] .

فحياة الله عز وجل غير قابلة للزوال ولا للنقص ولا للابتداء، بخلاف حياة الإنسان فإنه وإن حاول أن يمتنع عن النوم فلابد أن يأخذه النوم أو يهلك، فالحاصل

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٥/ ٣٨٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٢٧٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله عليه السلام: (إن الله لا ينام)، رقم ٢٩٤ .

(٣) العواصم والقواصم، ابن الوزير، ٤/ ١٣٤.

(٤) انظر: معارج القبول، حافظ الحكمي، ١/ ٢٠٨.

(٥) تقريب التدمرية، ابن عثيمين، ص١٥.

أن الله له الحياة الكاملة أزلًا: ابتداء وانتهاء واستمرارًا، فابتداء حيث لم تسبق، وانتهاء حيث لا يلحقها زوال، واستمرارًا حيث إنها حياة كاملة لا يعتريها سِنَةٌ ولا نومًا ولا نقصًا بأي نوع من أنواع النقص[1].

ثانيًا: أخذ الميثاق:

١ . أخذ ميثاق النبيين.

بعد أن اصطفى الله تعالى الأنبياء كلفهم بتبليغ رسالته لأقوامهم، وأخذ منهم ميثاقًا غليظًا أن يبلغوا هذه الرسالة بأمانة وإخلاص، وأن يصدق بعضهم بعضًا، فجميعهم يحملون الرسالة نفسها، فأقروا على ذلك الميثاق، وشهد الله معهم على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾

[آل عمران: ٨١].

تتحدث الآية عن أخذ الله ميثاق النبيين صلوات الله عليهم فيخاطب النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر وقت أخذه تعالى لميثاق الأنبياء.

(١) انظر: شرح العقيدة السفارينية، ابن عثيمين، ص١٧١.

وقد اختلف في تفسير الميثاق على أقوال:

الأول: أن الله أخذ ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضًا بالإيمان، ويأمر بعضهم بعضًا بذلك، فهذا معنى النصرة له، والإيمان به.

وهو ظاهر الآية، فحاصله أن الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر وينصره.

والقول الثاني: أن الله أخذ ميثاق الذين مع النبيين.

والثالث: أن في الكلام حذفًا، والمعنى: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتعلمن الناس لما جاءكم من كتاب وحكمة ولتأخذن على الناس أن يؤمنوا.

وقوله: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾ هو من الإقرار، سمي العهد إصرًا لما فيه من التشديد والمعنى: وأخذتم على ذلك عهدي، ويستأنف الحديث بقوله: ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ وكأنه أراد القول: ماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل: قالوا: أقررنا. وإنما لم يذكر أحدهم الإصر اكتفاء بذلك[2].

قوله: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ أي: فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار.

وقيل: الخطاب فيه للملائكة.

﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وأنا من

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١ / ٥٣٧.

الشاهدين على إقراركم ذلك.

وإدخال (مع) على المخاطبين، لأنهم المباشرون للشهادة حقيقة، وفيه من التأكيد والتحذير مالا يخفى.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عما ذكر بعد ذلك الميثاق، والتوكيد بالإقرار والشهادة، ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المتولون المتصفون بالصفات القبيحة ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة من الكفرة[1].

فمما سبق يتبين لنا أن الله سبحانه أخذ موثقًا جليلًا كان هو شاهده وأشهد عليه رسله، موثقًا على كل رسول، أن صدق الأنبياء الذين سبقوه وكتبهم فهي جميعها من عند الله، أن يؤمن به وينصره، ويتبع دينه، فجميعهم من المنبع نفسه، وجعل هذا عهدًا بينه وبين كل رسول.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

يخاطب المولى عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم قائلًا: واذكر حين أخذنا من النبيين جميعًا ميثاقهم، ومنك يا محمد خصوصًا، ومن نوح وابراهيم وعيسى عليهم السلام، وقد أخذ الله ذلك الميثاق ليسألهم يوم القيامة عند تواقف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا عهدهم ووفوا به، فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدقوا عهدهم وشهادتهم وكانوا مؤمنين، أو ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم؛ لأن من قال للصادق: صدقت، كان صادقًا في قوله، أو ليسأل الأنبياء ما الذي أجابتهم به أممهم، وتأويل مسألة الرسل: تبكيت الكافرين بهم، و قدم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على نوح ومن بعده؛ وذلك لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم، فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء المفضلين: قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه، وقال: مِيثَاقًا غَلِيظًا؛ للدلالة على عظم الميثاق وجلالة شأنه في بابه، وقيل: الميثاق الغليظ: اليمين بالله على الوفاء بما حملوا، وقد أكد الله على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين، فقد أعد للمؤمنين جنات النعيم كما أعد للكافرين عذابًا أليمًا[2].

فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، ونحن نشهد أن الرسل قد بَلّغُوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٥٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٣٢.



وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلي، الذي لا لبس فيه، ولا شك، ولا امتراء، وإن كذبهم مَنْ كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومَنْ خالفهم فهو على الضلال[1].

٢. أخذ ميثاق بني آدم.

خلق الله عز وجل بني آدم، وكرمهم على سائر المخلوقات، وجعلهم مستخلفين في الأرض، لإعمارها وإفراده بالعبادة، فأخذ عليهم الميثاق وهم في عالم الذر بأنه هو ربهم وهو وحده المستحق للعبادة والطاعة، وأشهدهم على ذلك، لتكون حجة عليهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢].

يخاطب المولى عز وجل في هذه الآية نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم قائلًا له: واذكر يا محمد ربك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به.

ولهذه الآية تأويلان:

أحدهما: قول البعض: وإذ أخذ ربك من بني آدم عليه السلام من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى، فقال الله وملائكته شهدنا عليكم بإقراركم بأن الله ربكم كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

والثاني: قال آخرون: ذلك خبر من الله عن قِيل بعض بني آدم لبعضٍ حين أشهد الله بعضهم على بعض، وقالوا: معنى قوله: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وأشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك[2].

واختلف في هذه الآية، هل هي خاصة أو عامة، فقيل: الآية خاصة؛ لأنه تعالى قال: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾، فخرج من هذا الحديث من كان من ولد آدم عليه السلام لصلبه.

وقيل: هي مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء.

وقيل: بل هي عامة لجميع الناس؛ لأن كل أحد يعلم أنه كان طفلًا فغذي وربي، وأن له مدبرًا وخالقًا.

فهذا معنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

ومعنى ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: إن ذلك واجب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ألفاظ الآية تقتضي أن الأخذ إنما كان من بني آدم،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٨٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣ / ٢٢٢.

وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظ.

ووجه النظم على هذا: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم، وإنما لم يذكر ظهر آدم عليه السلام؛ لأن المعلوم أنهم كلهم بنوه، وأنهم أخرجوا يوم الميثاق من ظهره. فاستغنى عن ذكره لقوله: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ بالجمع؛ لأن الذرية لما كانت تقع للواحد أتى بلفظ لا يقع للواحد فجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يشركها فيه شيء وهو الجمع؛ لأن ظهور بني آدم استخرج منها ذريات كثيرة متناسبة، أعقاب بعد أعقاب، لا يعلم عددهم إلا الله، فجمع لهذا المعنى[١].

والقول في ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ لدلالة حالهم على الاعتراف بالربوبية لله تعالى.

وحاصل المعنى: أن الله خلق في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلة الوحدانية، وجعل في فطرة حركة تفكير الإنسان التطلع إلى إدراك ذلك، وتحصيل إدراكه إذا جرد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها.

والمقصود من قصة أخذ العهد تذكير المشركين بما أودع الله في الفطرة من التوحيد.

وهذا الأسلوب هو من تحويل الخطاب عن مخاطب إلى غيره، وليس من الالتفاف لاختلاف المخاطبين، والمعنى: أن ذلك لمَا جُعل في الفطرة عند التكوين كانت عقول البشر منساقة إليه، فلا يغفل عنه أحد منهم فيعتذرَ يوم القيامة إذا سئل عن الإشراك، بعذر الغفلة؛ فهذا إبطال للاعتذار بالغفلة، ولذلك وقع تقدير حرف نفي أي: أنْ لا تقولوا، وعُطف عليه الاعتذار بالجهل دون الغفلة بأن يقولوا: إننا اتبعنا آباءنا وما ظننا الإشراك إلا حقًا، فلما كان في أصل الفطرة العلمُ بوحدانية الله بطل الاعتذار[٢].

٣. أخذ ميثاق أهل الكتاب.

بعد أن أرسل الله النبيين إلى أهل الكتاب، وأنزل عليهم الكتب السماوية بما فيها من تشريع، أخذ على أهل الكتاب ميثاق تبيينها للناس وتعليمهم إياها، ولكنهم قاموا بتحريف الكتب السماوية؛ وفقًا لأهوائهم، وتركوا شريعة الله السليمة وراء ظهورها ورفضوا الاحتكام لها، كما أخذ علي بني إسرائيل ميثاقًا بعدم الشرك بالله وعدم تكذيب الأنبياء، ولكنهم كعادتهم لا عهد لهم ولا ذمة، وخير دليل على ذلك قتلهم للأنبياء ومعاداتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما يفعلونه من معاداة للإسلام والمسلمين اليوم في فلسطين، واعتدائهم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٣١٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٦٥.

على حرمات بيوت الله، وسعيهم الحثيث لهدم المسجد الأقصى، فلا أمان لهم إلى يوم القيامة، وكذلك أخذ المواثيق على النصارى باتباع عيسى عليه السلام ولكنهم أشركوا بالله واتخذوا من المسيح إلهًا لهم، فألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

تحدثت الآيات السابقة عن شُبه اليهود التي حاولوا من خلالها الطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فرد عليها ثم أتبعه بهذه الآية؛ وذلك لأنه تعالى أوجب في التوراة والإنجيل على أمة موسى وعيسى عليهما السلام أن يشرحوا ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دين محمد صلى الله عليه وسلم وصدق نبوته ورسالته، والمراد منه التعجب من حالهم، كأنه قيل: كيف يليق بكم إيراد الطعن في نبوته ودينه مع أن كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صدق نبوته ودينه.

وكان أهل الكتاب يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم وكان من طرق إيذائهم له أنهم كانوا يكتمون ما في التوراة والإنجيل من الدلائل الدالة على نبوته فكانوا يحرفونها و يذكرون لها تأويلات فاسدة، أما عن كيفية أخذ الميثاق كان ذلك من خلال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث أوردوا الدلائل في جميع أبواب التكاليف وألزموهم قبولها، فالله سبحانه وتعالى إنما أخذ الميثاق منهم على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فذلك التوكيد والإلزام هو المراد بأخذ الميثاق.

والمراد من البيان ذكر تلك الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة والإنجيل، والمراد من النهي عن الكتمان أن لا يلقوا فيها التأويلات الفاسدة والشبهات المعطلة، وظاهر هذه الآية وإن كان مختصًا باليهود والنصارى فإنه لا يبعد دخول المسلمين فيه أيضًا؛ لأنهم أهل القرآن وهو أشرف الكتب[1]، فنبذ أهل الكتاب هذا الميثاق وراء ظهورهم، بدلوا به ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا الفانية، فكانوا في هذه الصفقة مغبونين، حيث جعلوا العَرَضَ الفاني بدل النعيم الباقي في الآخرة، فبئس الشراء شراؤهم، وبئست هذه المبادلة، وقد قال النبي: صلى الله عليه وسلم: **(من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار)**[2].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ١٠٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم ٢١٣٥، ٢/ ٣٣٦.

وإذا أخبر العالم الديني بحكم شرعي فعليه أن يكون أمينًا في نقله حاذقًا في فهمه، فلا يحرفه ولا يبدله، ولا يبتر منه شيئًا، ولا يدلس ويعمي الأمور ويغطي الحقائق، ولا يطلب الثناء على ما فعل من بيان الخبر المشوه أو الحكم المبدل، وهو في هذا كاذب دجال[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۞ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة: ٨٣، ٨٤].

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى: واذكر أيها النبي حين أخذنا ميثاق بني إسرائيل، بأن ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وبأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا، وأن تصلوا رحمه، وتعرفوا حقه، وأن تتعطفوا على اليتامى بالرحمة والرأفة، وبالمساكين: أن تؤتوهم حقوقهم التي ألزمها الله أموالكم، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وفي ذلك بيان حقوق سائر الأمة، وهي النصيحة لهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم، وإقامة الصلاة تكون بأدائها بحقوقها الواجبة عليكم فيها، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وذلك لإصلاح شئون المجتمع، فقد كان يجب عليهم زكاة في أموالهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾.

هذا خبر من الله عن يهود بني إسرائيل، أنهم نكثوا عهده ونقضوا ميثاقه، بعدما أخذ الله ميثاقهم على الوفاء له، بأن لا يعبدوا غيره، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام، ويتعطفوا على الأيتام، ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم، ويأمروا عباد الله بما أمرهم الله به ويحثوهم على طاعته، ويقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤتوا زكاة أموالهم فخالفوا أمره في ذلك كله، وتولوا عنه معرضين، إلا من عصمه الله منهم، فوفى لله بعهده وميثاقه[2].

ثم أتبع ذلك بالنهي عن سفك بعضهم دم بعض، وإخراج بعضهم بعضًا من ديارهم وأوطانهم بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثرًا شريفًا يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر، فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه، حتى

قال الترمذي: «حديث صحيح».

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٢٧١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٩٢.

إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده، فهذه الأحكام لا تزال محفوظة عند الإسرائيليين في الكتاب وإن لم يجروا عليها في العمل.

قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه يخاطبهم بما كان من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله، وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى عليه السلام.

ثانيهما: أن المراد الحاضرون أنفسهم، أي: أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه في قلوبكم، ولا تنكرونه بألسنتكم، بل تشهدون به وتعلنونه، فالحجة ناهضة عليكم به[1].

ولكن اليهود اعتادوا الغدر، واستماتوا في حب المادة، أعرضوا قصدًا وعمدًا عن تنفيذ الأوامر الإلهية، وعن العمل بالميثاق.

فهذا هو طبع بني إسرائيل القتل والغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود وتحريف الكتب السماوية، وذلك منذ أن خلقوا مرورًا بزمن النبي صلى الله عليه وسلم ووصولًا إلى زماننا هذا فطبعهم وأخلاقهم الفاسدة لا تتغير.

فلا بد أن يحرص المسلمون على معرفة طبائعهم ومكائدهم حتى يتحرزوا الوقوع فيها.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:١٤].

لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه، الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكرهم نعَمَه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم، وطردًا عن بابه وجنابه، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح.

قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾، أي: ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود

---

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١/ ٣٠٨.

والمواثيق على متابعة الرسول ومناصرته، ومؤازرته واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، أي: ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق ونقضوا العهود[1]، فألصقنا بهم العداوة وسلطنا بعضهم على بعض.

﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾ أشار بهذا إلى اليهود والنصارى لتقدم ذكرهما، وقيل: أشار إلى افتراق النصارى خاصة، لأنهم أقرب مذكور؛ وذلك أنهم افترقوا إلى اليعاقبة والنسطورية والملكانية؛ أي: كفَر بعضهم بعضًا.

ومن أحسن ما قيل في معنى ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أن الله عز وجل أمر بعداوة الكفار وإبغاضهم، فكل فرقة مأمُورة بعداوة صاحبتها وإبغاضها؛ لأنهم كفار.

وقوله: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ﴾ تهديدٌ لهم؛ أي: سيلقون جزاء نقض الميثاق[2].

«ولقد وقع بين الذين قالوا: إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه الله سبحانه في كتابه الصادق الكريم، وسال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله، سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة، أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية، أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات، وهي ماضية إلى يوم القيامة»[3].

ثالثًا: أخذ نواصي الدواب:

قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦].

أي: أنه ليس من شيء يدب على الأرض، إلا والله مالكه، وهو في قبضته وسلطانه ذليلٌ له خاضعٌ.

والناصية عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس، ويسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته.

والمعنى: هي في قبضته وتنالها بما شاء قدرته، فهو آخذ بناصيتها يحييها ويميتها، وهو مالكها والقادر عليها، ويقهرها؛ لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته.

وإنما خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٦٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١١٧.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٨٦٠.

ذلك إذا وصفت إنسانًا بالذلة والخضوع فيقولون: ما ناصية فلان إلا بيد فلان.

أي: أنه مطيع له يصرفه كيف شاء، فخاطبهم بما يعرفون في كلامهم، وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض، بما فيها الدواب من الناس، وهذه صورة حسية تناسب الموقف، وتناسب غلظة قوم هود وشدتهم، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم، وغلظ حسهم ومشاعرهم.

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي، الذي كان عليه نبي الله هود عليه السلام، فهو يجد هذه الحقيقة واضحة.

إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر، وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهرًا.

إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه، لا تدع في قلبه مجالًا للشك في عاقبة أمره ولا مجالًا للتردد عن المضي في طريقه.

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبدًا.

إن ربي على طريق الحق يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بمعصيته، ولا يظلم أحدًا، ولا يقبل إلا الإسلام.

فلا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم، ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل، فهو لا يخفى عليه مستتر، ولا يفوته هارب[(١)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٣٦٣، الكشف والبيان، الثعلبي. ٥/ ١٧٤، الوجيز، الواحدي، ص٥٢٤.

سنة الله في الأخذ

يتناول هذا المبحث بيان سُنة الله في الأخذ، فيظهر عدله ورحمته، فجل شأنه لا يؤاخذ بالنسيان والخطأ الغير متعمد، ولا يؤاخذ بأيمان اللغو، وإنما يؤاخذ الإنسان على ما كسب قلبه من عزم ونية، وعلى أيمانه المنعقدة، كما أنه تعالى لا يؤاخذ الإنسان إلا بعد إقامة الحجة عليه، وإزالة الأعذار، ولا يؤاخذ إلا بعد انتهاء الأجل المحدد، فيؤخرهم إلى أجل معلوم عنده ليحاسبهم، فيغفر لمن تاب وأناب، ويعذب من جحد وعاند.

أولًا: أسباب الأخذ:

١ . يؤاخذ بالأيمان المنعقدة.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩].

بعد أن بينت الآية الكريمة أن الله عز وجل لا يؤاخذنا على اللغو في الأيمان؛ بينت أن الله يؤاخذنا على الأيمان المنعقدة، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ فمعناه: يؤاخذكم ويحاسبكم على ما أكدتم من الأيمان، فمن قصد الأمر فحلف بالله وعقد على اليمين قلبه متعمدًا فعندها تلزم فيه الكفارة إذا حنث بإجماع، وكفارة حنث اليمين هي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة.

والمُكفِر في اليمين مُخيَر بين هذه الثَلاث، فمن لم يجد فعليه صيام ثلاثة أيام وهي الكفارة التي يعاد إليها في اليمين المعقودة عند عدم استطاعة الكفارات الأخرى، ثم أمر الله بحفظ الأيمان وذلك بمعنى لا تكثروا من الحلف، واحفظوها عن الحنث إذا لم يكن ما حلفتم عليه خيرًا، لئلا يذهب تعظيم اسم الله عن قلوبكم، يبين الله لكم آياته وشرائعه لعلكم تشكرون نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج[١].

«فعلى المؤمن أن يحترم عهد الله وميثاقه، ويعظم ذات الله وجلاله، فيبتعد عن كل مظاهر الإخلال بهيبة الله وقدسيته، وإذا حلف بالله تعالى وجب عليه صون يمينه إذا كان الأمر المحلوف عليه قربة أو طاعة، وجاز له مخالفة مقتضى اليمين بل يجب إذا كان المحلوف عليه معصية»[٢].

(١) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب، ٣/ ١٨٥٠، الوجيز، الواحدي، ١/ ٣٣٣.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٤٩٢.

٢. يؤاخذ بما كسبت القلوب.

قال تعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

بعد أن بيَن الله عز وجل أنه تعالى لا يؤاخذ باللغو في اليمين، بَيَّنَ تعالى أن المؤاخذة تكون على ما قصده القلب وعزمه، وكسب القلب هو العقد والنية، وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

والله غفور لمن حنث وكفر بيمينه، حليم حيث رخص لكم في ذلك ولم يعاقبكم، غفور لعباده فيما لغوا من أيمانهم التي أخبر أنه لا يؤاخذكم عليها.

ولو شاء آخذهم وألزمهم للكفارة في العاجل والعقوبة عليها في الآجل.

حَلِيمٌ يعني في ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة.

والحليم ذو الصفح والأناة الذي لا يستفزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل ولا عصيان عاص ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، إنما الحليم الصفوح مع القدرة على الانتقام المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة[(١)].

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ١/ ١٤٨، النكت والعيون، الماوردي، ١/ ٢٨٧.

٣. يؤاخذ بعد إقامة الحجة وإزالة العذر.

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [النحل:١٠٦-١٠٩].

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به أن عليه غضبًا من الله، وذلك لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، ولهم عذاب عظيم في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة؛ لأجل الدنيا.

أولئك طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها، ولا أبصروا الآيات التي يستدل بها على الحق، فهم غافلون عما يراد بهم، فلا غفلة أعظم من غفلتهم هذه لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ

﴿مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهًا لما أصابه من ضرب وأذى، ولكن قلبه يأبى ما يقول، بل مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

قال أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر: أخذ المشركون عمار بن ياسر، فعذبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟) قال: مطمئنًا بالإيمان. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فَإِنْ عادُوا فَعُدْ)[1].

وقد أجمع العلماء على أنه من أكره على الكفر إكراهًا ملجيًا يجوز له أن يتلفظ بما أكره عليه مطمئنًا قلبه بالإيمان بهذه الآية[2].

قال تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩].

يعني بذلك جل ثناؤه: فإن أخطأتم الحق، فضللتم عنه، وخالفتم الإسلام وشرائعه، من بعد مجيء الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق، واتضحت لكم صحة أمر الإسلام بالأدلة التي قطعت عذركم أيها المؤمنون، فاعلموا أن الله ذو عزة، غالب قادر على أنواع الانتقام، ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكم أمره ومعصيتكم إياه دافع، وحكيم فيما يفعل بكم من عقوبته على معصيتكم إياه، بعد إقامته الحجة عليكم، وفي غيره من أموره، فهو لا ينتقم إلا بالحق[3].

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

رتب الله عز وجل الثواب العظيم على الموافقة، كما رتب العقاب الشديد على المخالفة والمشاقة، ووكل المخالف إلى نفسه بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعانده فيما جاء به ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلًا أن يبقيه في ضلاله حائرًا ويزداد ضلالًا إلى ضلاله.

ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول، ويتبع سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله واتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٠٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٦٠٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٥٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٥٩.

بها ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه بحفظه ويعصمه من السوء[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

هذه الآية فيها إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، سبحانه أعدل العادلين لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة، وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه، فسبحانه منزه عن الظلم، فعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اختصمت الجنة والنار فذكر الحديث إلى أن قال: (وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأنه ينشئ للنار خلقًا فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ ثلاثًا...)[(٢)]، فإن هذا إنما جاء في الجنة؛ لأنها دار فضل، وأما النار؛ فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه[(٣)].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٥/ ٤٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قوله تعالى: (إن رحمة الله قريب من المحسنين)، رقم ٧٤٤٩، ٩/ ١٣٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٥٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٥٥.

٤. يؤاخذ عند انتهاء الأجل المقدر.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم بيَن أنه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة؛ إظهارًا للفضل والرحمة والكرم، فقال: ولو يؤاخذ الله الكفارَ بكفرهم ومعاصيهم ما ترك عليها، أي: على الأرض وإن لم يذكر فقد دل عليها ذكر الناس وذكر الدابة، فإن الجميع مستقرون على الأرض، لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى معلوم عنده وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم أو أجل عذابهم، وفي هذا التأخير حكمة بالغة منها الإعذار إليهم وإرخاء العنان معهم، ومنها حصول من سبق في علمه من أولادهم فإذا جاء أجلهم الذي سماه لهم حقت عليهم كلمة الله سبحانه في ذلك الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه، والساعة المدة القليلة، فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه[(٤)].

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦١٣، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٢٢٧.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

بعد أن هدد المشركين بجريان سنته فيهم، بإهلاكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم، ذكر حلمه بعباده وأنه لو آخذهم بما كسبوا من الذنوب وعملوا من الخطايا، ما ترك على ظهر الأرض من دابة من الدواب التي تدب كائنة ما كانت، أما بنو آدم فلذنوبهم، وأما غيرهم فلشؤم معاصي بني آدم، قال ابن مسعود: «كاد الجُعَل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم»، ولكن يؤجل عقابهم إلى وقت محدد، وهو يوم القيامة، فإذا جاء أجلهم فإن الله يحاسبهم ويوفي كل عامل جزاء عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فهو البصير بحال عباده لا يخفى عليه شيء من أمرهم، دق أو جل، ظهر أو بطن، وفي هذا تسلية للمؤمنين ووعيد للكافرين، وتذكير لهم عن أن يغرهم تأخير المؤاخذة فيحسبوه عجزًا أو رضًا من الله بما هم فيه، اللهم أحسن أعمالنا ظواهرها وبواطنها، وتقبل منا ما نعمل مما يرضيك إنك أنت الخبير البصير[(١)].

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

والمعنى: وربك يا محمد الساتر على ذنوب عباده بعفوه إذا تابوا منها ذو الرحمة بهم، ولو آخذ هؤلاء المعرضين عن آياته بما اكتسبوا من الذنوب والآثام بالعذاب في الدنيا لعجل لهم ذلك، لكنه برحمته وعفوه لم يعجل لهم ذلك، بل لهم موعد، يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدا لهم، أنزل بهم بأسه[(٢)].

ثانيًا: موانع المؤاخذة:

١. لا يؤاخذ باللغو في الأيمان.

قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

اللغو من اليمين: هو الساقط الذي لا يعتد به، وما تعوده الناس في الكلام «لا والله» و«بلى والله»، فأما إذا حلف على شيء أنه كان حاصلًا جدًا ثم ظهر أنه لم يكن

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٣٦١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٥٢.

فقد قصد الإنسان بذلك اليمين المتصل تصديق قوله وربط قلبه بذلك فلم يكن لغوًا البتة، وقد ذكر سبحانه وتعالى قبل هذه الآية النهي عن كثرة الحلف فذكر عقيب ذلك حال هؤلاء الذين يكثرون الحلف على سبيل الاعتياد في الكلام على سبيل القصد إلى الحلف، وبين أنه لا مؤاخذة عليهم ولا كفارة؛ لأن إيجاب الكفارة والمؤاخذة عليهم يفضي إما إلى أن يمنعوا عن الكلام أو يلزمهم في كل لحظة كفارة وكلاهما حرج في الدين، ويؤيد هذا المعنى ما روته عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٥].

فِي قَوْلِ الرَّجُلِ: لاَ وَاللَّهِ وَبَلَى وَاللَّهِ[١]، فهذه الآية تبين أن الله لا يؤاخذ بما يجري على الألسنة من الأيمان اللاغية، التي يتكلم بها العبد، من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه[٢].

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

تؤكد هذه الآية أن الله عز وجل لا يؤاخذنا على أيمان اللغو أيضًا، فاللغو ما لَا يقصد به اليمين، وما لَا تكسبه القلوب، ولا يوثَق به الكلام بالامتناع عن الفعل، أو توكيد إيقاع الفعل في المستقبل، لَا مؤاخذة عليه، فهو يجري على الألسنة من غير قصد الحلف[٣].

٢. لا يؤاخذ بالنسيان غير المتعمد الخطأ.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

توضح الآية الكريمة أن الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا ما يسعها فلا يجهدها، ولا يضيق عليها في أمر دينها، فيؤاخذها بهمة إن همت، ولا يؤاخذها بوسوسة إن عرضت لها، ولا بخطرة إن خطرت بقلبها[٤].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَبِي صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَ اللَهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَتِي مَا حَدَثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَمْ)[٥].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم)، رقم ٤٦١٣، ٦/ ٥٢.

(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري، ١/٦١٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٠١، فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٢٦٤.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٤١، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٥/ ٢٣٣٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ١٣١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم ٥٢٦٩، ٧/ ٤٦.

﴿أَخْطَأْنَا﴾ المراد هنا أي: لا تعاقبنا بما أدى بنا إلى النسيان أو الخطأ من تفريط وقلة مبالاة؛ لأن المؤاخذة إنما هي بالمقدور، والنسيان والخطأ ليس بمقدورين، ويجوز أن يراد النسيان نفسه والخطأ، أي: لا تؤاخذنا بهما كما آخذت به من قبلنا[1].

وأما الأحكام الدنيوية المتعلقة بهما فالصحيح أنها تختلف بحسب الوقائع، فقسم لا يسقط باتفاق؛ كالغرامات والديات والصلوات المفروضات، وقسم يسقط باتفاق؛ كالقصاص والنطق بكلمة الكفر، وقسم ثالث مختلف فيه؛ كمن أكل ناسيًا في رمضان أو حنث ساهيًا، وهذا يدل على أن أحكام العباد وحقوق الناس ثابتة[2]، وعلى ذلك فإن الخطأ والنسيان والإكراه معفو عنها بأمر الله تعالى، لكن ينبغي معرفة أن ما نسي من الواجبات فإنه يقضى إذا لم يفت سببه، فإذا نسي الإنسان أن يصلي فإنه يصلي إذا ذكر لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك)[3].

(١) انظر: السراج المنير، الشربيني، ١/ ١٩١، فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٣٥٣.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٣/ ١٣٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكر، رقم ٥٩٧، ١/ ١٢٢.

أخذ الظالمين والمترفين

يتناول هذا المبحث نماذج من أخذ الظالمين والمترفين؛ كفرعون وقومه، وعاد وثمود، وأقوام لوط، ونوح، وشعيب، وموسى، وتوضيح وسائل أخذهم وإهلاكهم الذي حل بهم لكفرهم وطغيانهم وتكذيبهم لآيات الله ورسله؛ كالغرق، والصيحة، والصاعقة، والريح الصرصر العاتية، وفي هذا كله عبرة وعظة وآيات للجاحدين والظالمين والعاصين الله ورسله.

أولًا: نماذج من أخذ الظالمين والمترفين:

١ . أخذ فرعون وقومه وجنوده:

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

بين الله تعالى أن الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم، وأنه لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا عند حلول العقوبة بهم، كسُنَّة آل فرعون وعادتهم، فقد كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل، فأخذهم الله بذنوبهم عدلًا منه لا ظلمًا، والله شديد العقاب على من كفر وأتى الذنوب على اختلاف أنواعها

وتعدد مراتبها، وهو أخذ الانتقام في الدنيا، وهذه سنته الجارية في الأمم السابقة، وقد ضرب الله هذا المثل عبرة وموعظة؛ لأنهم إذا استقروا الأمم التي أصابها العذاب، وجدوا جميعهم قد تماثلوا في الكفر، وكفى بهذا الاستقراء موعظة لأمثال مشركي العرب، وقد تعين أن يكون المشبه به هو وعيد الاستئصال والعذاب في الدنيا[1].

٢. أخذ ثمود:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

بيَن الله تعالى في هذه الآية مصير ثمود وهم قوم صالح عليه السلام، فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بينا لهم طريق الهدى، وأنا قادرون على البعث وعلى كل شيء فلا شريك لنا، وكان بيان ذلك بالناقة البيان فأبصروا ذلك بأبصارهم، فكرهوا ذلك لما يلزمه من ترك طريق آبائهم، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ والضلال الناشئ عن عمى البصر أو البصيرة أو هما معًا ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: أوجدوا من الأفعال والأقوال ما يدل على حب ذلك وعلى طلب حبه فعموا فضلوا، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾ أي: بسبب ذلك داهيةُ العذابِ وقارعةُ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي: المهين والمخزي، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة[2].

٣. أخذ عاد:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۞ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦-٨].

هذه الآيات بينت العذاب الذي وقع على عاد، وهم قوم هود، حيث أهلكهم الله تعالى هلاكًا ساحقًا بريح شديدة الصوت، شديدة البرد، قاسية شديدة الهبوب، ووصفها بالعاتية: التي عتت عن الطاعة فلم يقدروا على ردها لشدة هبوبها، بل أهلكتهم حيث سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام لا تنقطع ولا تهدأ، وكانت تقتلهم بالحصباء، متابعات، تحسمهم حسومًا وتفنيهم وتذهبهم موتى كأنهم أعجاز نخل خاوية ساقطة، فلم يبق لهم أثرًا، وذلك العقاب نتيجة تكذيبهم بيوم القيامة، وكفرهم بالله وبرسله وآياته، وفي هذا تخويف لأهل مكة وغيرهم، فهذا هو مصير كل من يسلك طريقهم[3].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٢٢٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٧٤.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ١٦٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٩.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٣٤، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٨٤.

٤ . أخذ قوم لوط:

قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٍ مُّجۡرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ *... فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ * فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٥٨- ٧٤].

لما كثر فساد قوم لوط عليه السلام وعظم شرهم، أرسل الله الملائكة بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه، ويكذبون لوط عليه السلام حين يعدهم به، ونجى الله لوط وأهله وأمرهم أن يخرجوا من المدينة والناس نيام، فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلًا فنجو، أما قوم لوط فقد أقسم الله أنهم لفي سكرتهم يعمهون في ضلال وغفلة، وأوقع العذاب على قومه وامرأته، فأخذتهم صيحة العذاب وقت شروق الشمس حين كانت العقوبة عليهم أشد، فقلب عليهم مدينتهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل تتبع فيها من شذ من البلد منهم، وفي هذا عبرة وعظة للمتأملين المتفكرين، الذين لهم فكر وروية وفراسة، يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن من تجرأ على معاصي الله، خصوصًا هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرأوا على أشنع السيئات[(١)].

٥ . أخذ قوم نوح:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٍ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥].

ذكر الله تعالى في الآيات السابقة لهذه الآية أن القرآن هداية الله للعالمين، ثم أعقبه بذكر المجادلين المعاندين، وبيَن أنه لا يجادل في هذا القرآن بعد وضوح آياته وظهور إعجازه إلا الجاحدون لآيات الله، المعاندون لرسله، فيجب على العاقل ألا يغتر بتصرفهم وتقلبهم في هذه الدنيا ونعيمها، فما هم عليه من النعيم متاع زائل، فالله يمهلهم ولا يهملهم، بل إن أخذه بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر.

وفي الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، ووعيد شديد للكفار، فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم؛ كقوم نوح وقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم، حيث همت كل أمة من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به وجادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا ويبطلوا به الحق.

فأخذهم الله وأهلكهم بعقاب يستحق العجب والإعجاب، ومع الأخذ في الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك[(٢)]، فهذا

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٥/ ٥٣٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب،

هو حال كل المكذبين بالرسل في كل زمان.

٦. أخذ قوم شعيب:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

في الآيات السابقة لهذه الآية ذكر لقصة شعيب عليه السلام مع قومه أهل مدين، كيف أنهم كانوا في ضلال وشرك، يتهالكون على كسب الحطام بأنواع الرذائل، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بعبادة الله وتوحيده، ونهاهم عن أن يبخسوا الناس أشياءهم في الكيل والميزان، فهم في نعمة كبيرة وسعة، فقد كان يخشى عليهم زوال هذه النعمة، فلم يستجيبوا له بل كانت ردودهم استهزاء به وبدعوته، فهو لا يريد إلا إصلاح نفوسهم، ولكنهم أصروا على ما هم عليه، فأخبرهم أن ينتظروا عذابًا من الله يهلكهم نتيجة كفرهم، ولما جاء أمر الله تعالى نجَى شعيبًا والذين آمنوا معه وذلك رحمة من الله، وأخذت الذين ظلموا الصيحة، فهلكوا وأصبحوا في ديارهم ميتين[1].

٧. أخذ قوم موسى :

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٥٣].

تبيَن هذه الآية أن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابًا من السماء مكتوبًا؛ كما جاء موسى بني إسرائيل بالتوراة، قالوا له: إن موسى جاء بالألواح من عند الله، فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، فأعلمه الله عز وجل أنهم قد سألوا موسى عليه السلام أكبر من هذا ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: رؤية منكشفة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ أي: صعقوا بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم، وعظيم ما سألوا موسى عليه السلام مما ليس لهم أن يسألوا مثله[2].

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ١٢٣. ٥/ ٣٠٦٦.

(٢) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب، ٢/ ١٥١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٤٦.

ثانيًا: وسائل أخذ الظالمين والمترفين:

١ . أخذ المجرمين والمترفين في الدنيا.

- الأخذ بالجدب ونقص الثمار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف:١٣٠].

أراد بالسنين هنا القحط والجدب، أي: ولقد أخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة ونقص من الثمرات يعني: وإتلاف الغلات بالآفات، لعلهم يتعظون وترق قلوبهم؛ فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب، وترغب فيما عند الله عز وجل من الخير[١].

- الأخذ بالغرق.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٤٠].

بينت الآيات عاقبة فرعون وقومه، بعد أن استكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله؛ فأخذ فرعون وجنوده فنبذناهم في اليم.

قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء:١٠٣].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٣٩.

فكانت شر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بعقوبة الآخرة، فهذه هي دعوة للتأمل في حال وعاقبة الظالمين المتكبرين[٢].

- الأخذ بالريح.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۝﴾ [الحاقة:٦-٨].

وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر، أي: باردة تحرق ببردها كإحراق النار، قطعتهم وأذهبتهم، فهي القاطعة بعذاب الاستئصال، فلم تبق منهم أحدًا[٣]، كما قال تعالى في قوم عاد: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩].

- الأخذ بالطوفان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤].

وهنا يحكي عاقبة قوم نوح، فبالرغم من طول مقامه فيهم إلا أن هذا المكوث ما زادهم إلا شكًا في أمره، وجهلًا بحاله،

(٢) انظر: النكت والعيون، تفسير الماوردي، ٤/ ٢٥٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦١٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٢٥٩.

ومرية في صدقه، واستمر نوح في نصحهم، فأمره الله باتخاذ السفينة، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحدًا، وصدق وعده، ونصر عبده، سبحانه فلا تبديل لسنته في نصرة دينه[1].

* أخذ الظالمين بالرجفة.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨].

توضح الآية ما حل بثمود قوم صالح عليه السلام بعد أن عقروا الناقة، واستعجلوا العذاب، «جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد»[2].

كما أخبر عن حال قوم شعيب في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١].

* أخذ المترفين بالعذاب.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٤].

بينت الآية السابقة أن المشركين يحسبون أن إمداد الله لهم بالمال والبنين هو خير يسوقه إليهم ورضا منه عنهم، وبينت أن لهؤلاء الكفار أعمالًا لا يرضاها الله من المعاصي، فابتلاهم الله عز وجل بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف، والمترفون أشد الناس استغراقًا في المتاع والانحراف والذهول عن المصير، وها هم يفاجؤون بالعذاب الذي يأخذهم أخذًا، فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجؤار، مستغيثين مسترحمين، وذلك في مقابل الترف والغفلة والاستكبار والغرور، فبذلك يتضح للجميع مصير من يكفر بالله ويتكبر على رسله ويكذبهم إلى قيام الساعة، وهذا المصير واقع لا محال في يوم من الأيام[3].

* أخذ المجرمين بالصاعقة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥].

تبين الآية جراءة قوم موسى على الله وعلى رسوله، حيث إنهم قالوا بأنهم لن يؤمنوا حتى يروا الله جهرة، فأخذتكم صاعقة الموت أو الغشية العظيمة، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وقوع ذلك، كلٌّ ينظر إلى صاحبه[4].

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات:٤٤].

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٤٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٤٨، معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٤٢٢.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢.

❁ أخذ الظالمين بالصيحة.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٦٧].

من الأقوام الذين أخذهم الله بالصيحة ثمود قوم صالح عليه السلام، وقوم شعيب عليه السلام، والصيحة: المرة من الصوت الشديد، والمراد بها هنا صيحة الصاعقة التي نزلت بقوم صالح عليه السلام فأحدثت رجفة في القلوب وزلزلة في الأرض، وصعق بها جميع القوم، فأصبحوا في ديارهم ساقطين على وجوههم مصعوقين لم ينج منهم أحد[1].

كما قال تعالى فيما أصاب مدين قوم شعيب: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

❁ الأخذ بالريح العقيم.

قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١].

يقول تعالى ذكره: وَفِي عَادٍ آية وعبرة، إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِيحَ العَقِيمَ يعني بالريح العقيم: التي لا تلقح الشجر[2]، «ولا السحاب ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة، ثم قيل: هي الْجَنُوب، وقيل: هـي الدَبـُور»[3]، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (نُصِرْتُ بِالصَبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَبُورِ)[4].

فهذه هي قدرة الله تعالى وهذا هو عذابه الذي يوقعه على الأمم الظالمة والكافرة، فعلى أمثال هذه الأمم أن يأخذوا العبرة والعظة من الأمم السابقة.

ثانيًا: أخذ المجرمين والمترفين في الآخرة.

توعد الله عز وجل المجرمين والمترفين بالعذاب الأليم في الآخرة؛ لكفرهم به وتكذيبهم أنبياءه، وفيما يلي توضيح لألوان من العذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة.

١. أخذ المجرمين بالنواصي والأقدام:

بين الله تعالى أن الملائكة تعرف المجرمين يوم القيامة بعلامات تميزهم عن غيرهم، فتأخذهم الملائكة من شعورهم وأقدامهم وتلقي بهم في نار جهنم والعياذ بالله، وهذا هو مصيرهم لظلمهم أنفسهم بالكفر والتمادي في الظلم.

قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١٢/ ١٠٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٤٣٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٤٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: (وإلى عاد أخاهم هودًا)، رقم ٣٣٤٣، ٢/ ١٠٣٠.

﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرَّحمن:٤١].

«يقول تعالى ذكره: تعرف الملائكة المجرمين بعلاماتهم وسيماهم التي يسومهم الله بها من اسوداد الوجوه، وازرقاق العيون»[(١)].

فتأخذ الملائكة بنواصيهم، أي: بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار، قيل: تسحبهم الملائكة إلى النار تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه وتارة تأخذ بقدميه، وتسحبه على رأسه[(٢)]، وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان، حيث تجمع الأقدام إلى الجباه، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار، فهل حينذاك من تكذيب أو نكران[(٣)]، هذه هي نهاية المجرمين يوم القيامة والعياذ بالله.

٢. أخذ المجرمين والمترفين إلى جهنم بالأغلال:

توعد الله عز وجل المجرمين بالعذاب الأليم في جهنم يوم القيامة، ووصف في كثير من الآيات هذا العذاب، ورسم الصورة والحال التي سيكون عليها المجرمون عند تعذيبهم، يوم لا ينفع مال ولا بنون، والآيات التالية توضح ذلك العذاب:

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٥٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٥١.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٧/ ٣٤٥٧.

قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢].

تتحدث هذه الآيات عن المجرمين يوم القيامة، فتصف مصيرهم في هذا اليوم، وتبين العذاب الذي كان ينتظرهم لكفرهم بالله، فمصيرهم جهنم التي سعرت لهم ولأمثالهم، تلتهمهم فلا تشبع، «تتصاعد حسراتهم، ويتضاعف أنينهم ليلهم ونهارهم، فليلهم ويل ونهارهم بعاد، تكدرت مشاربهم، وخربت أوطان أنسهم، ولا بكاؤهم يُرحم، ولا أنينهم يُسمع»[(٤)].

فيأمر الله عز وجل الزبانية بأخذ كل مجرم وكافر للعذاب فيقول: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ بالأغلال الضيقة الثقيلة، ثُمَ الْجَحِيمَ المسعر العظيم المعهود الذي يعد لأصحاب الثروة والجاه من الكفرة، صَلُّوه اطرحوه»[(٥)]، « ليصلى حرها، ثم أدخلوه في سلسلة حلق منتظمة طولها سبعون ذراعًا تلف على جسمه، لئلا يتحرك»[(٦)].

فكل آية من هذه الآيات كأنها تحمل ثقل السماوات والأرض، وتنقض في جلال مذهل، وفي هول مروع، ثم

(٤) لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ٦٢٦.
(٥) الفواتح الإلهية، النخجواني، ٢/ ٤٤١.
(٦) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٩٩.

يعقب ذلك كلمة القضاء الجليل، من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية المذنب[1]، «وكيف لا يعذب الكافر كذلك؛ إنَّهُ من غاية نخوته وتجبره قد كانَ لا يُؤمِن ولا يذعن باللّه الْعَظِيم المستحق للعبودية والإيمان عتوًا وعنادًا، ولا شك أن من تعظم على الله العلي العظيم قد استحق أسوأ العذاب وأشد النكال»[2].

فهذا عقاب كل المجرمين والمترفين يوم القيامة، فقد توعدهم الله في الدنيا وسيقع وعيده يوم القيامة.

ثالثًا: صفات أخذ الظالمين والمترفين:

١. أَخْذًا وَبِيلًا.

قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٦].

بعد أن أرسل الله رسوله موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، ولم يستجيبوا لدعوته، بل امتنعوا عن الإجابة، وعصوا موسى عليه السلام وكذبوه، والمعصية هي الكفر، فكان عقابهم من الله واقع لا محال، فهذا وعده لكل من يعصون رسله ويكذبونهم، وتبيَّن هذه الآية ما وقع على فرعون وقومه نتيجة عصيانهم الرسول حيث قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾، والوبيل هو: الشر، والمعنى: أخذناه أخذًا شديدًا، وأهلكناه ومن معه جميعًا، فأُغرق فرعون وعُذب هو ومن معه، وأقروا في عذاب مستقر حتى يُبعثوا إلى النار يوم القيامة كما توعدهم الله[3].

وهذه الآية توضح عاقبة كل من عصى الرسل، وخاصًا رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو المبعوث للناس كافة، وتبين أن عذاب الله واقع لا محالة وإن أَمْهَلهم، كما وقع على فرعون وقومه من قبل.

٢. أَخْذَةً رَابِيَةً.

قال تعالى : ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠].

تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية عن حال عاد وثمود، ومن قبلهم فرعون وقومه، حيث أرسل لهم موسى عليه السلام وأراهم من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق، ولكنهم مع ذلك جحدوا وكفروا ظلمًا وعلوًا، وجاء من قبله من المكذبين قوم لوط، حيث وقع منهم الكفر والتكذيب والظلم والمعاندة، وارتكاب الفواحش والفسوق، كل أولئك وقع عليهم العذاب من الله تعالى نتيجة كفرهم وعصيانهم الرسل، فلم يبق لهم باقية، بل أخذهم أخذة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٩/ ٣٦٧٥.

(٢) الفواتح الإلهية، النخجواني، ٢/ ٩٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٦٩٣، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٢٠٤.

رابية، أي: أخذة نامية بالغة الشدة، زائدة على الأخذات وعلى عذاب الأمم[1].

٣. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

هذه الآية الكريمة تشير إلى استئصال القرى الظالمة الكافرة، فقد أخذهم الله أخذًا موجعًا لا يطاق، وهذا تهديد وتحذير من عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه، وليحذر كل ظالم وكل كافر أخذ ربه الأليم الشديد، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال[2].

٤. أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ.

قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢].

أرسل الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام لفرعون وقومه، فكانوا رسل الله ونذره لهم، ولكنهم كذبوهم وكذبوا بآيات الله ومعجزاته العظيمة الدالة على صدقهم وصدق ما جاءوا به، فوقع عليهم عقاب الله تعالى نتيجة تكذيبهم الرسل والآيات، فقد أخذهم الله أخذ غالب في انتقامه، قادرٍ على إهلاكهم لا يعجزه شيء، فأبادهم وأغرقهم الله ولم يبق لهم مخبرًا ولا عينًا ولا أثرًا، وفي هذا تحذير الناس المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم من عاقبة تكذيبهم وكفرهم[3].

موضوعات ذات صلة:

الجزاء، الحساب، العذاب، الميثاق

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ١٠/ ٢٧، فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٣٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٤٢٧، أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٥٧٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٤٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٨١، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٢٧١.





عناصر الموضوع



مفهوم الإخلاص

أولًا: المعنى اللغوي:

(خلص) الشيء صار (خالصًا) وبابه دخل، و(خلص) إليه الشيء وصل، و(خلصه) من كذا (تخليصًا) أي: نجاه (فتخلص)، و(خلاصة) السمن بالضم ما خلص منه، وكذا (خلاصته) بالكسر، و(أخلص) السمن طبخه، و(الإخلاص) أيضًا في الطاعة ترك الرياء، وقد (أخلص) لله الدين، و(خالصه) في العشرة صافاه، وهذا الشيء (خالصةٌ) لك أي: خاصةٌ، و(استخلصه) لنفسه استخصه، و(المخلص): الذي أخلصه الله جعله مختارًا خالصًا من الدنس، و(المخلص): الذي وحد الله تعالى خالصًا، و(المخلصون) المختارون، و(المخلصون) الموحدون، وضد الإخلاص الشرك، والرياء، وابتغاء غير وجه الله [(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف العلماء الإخلاص بتعريفات عدة منها ما يأتي:

قال الجنيد: الإخلاص «ما أريد به الله من أي عمل كان»[(٢)].

قال ابن القيم: الإخلاص «تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين»[(٣)].

عرفه الشيخ العثيمين بقوله: «الإخلاص هو التنقية، والمراد به أن يقصد المرء بعبادته وجه الله عز وجل، والوصول إلى دار كرامته، بحيث لا يعبد معه غيره لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا»[(٤)].

وقال الجرجاني في أحد تعاريفه للإخلاص: «ستر بين العبد وبين الله تعالى، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوًى فيميله»[(٥)].

فالمعنى الاصطلاحي خص ببعض معانيه اللغوية.

ثالثًا: الفرق بين المُخْلِص والمُخْلَص:

المُخْلِصُون - بكسر اللام - جمع مُخْلِص، وهو الذي أخلص عبادته لله تعالى فلم يشرك

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٩٤، لسان العرب، ابن منظور، ٧/ ٢٦.
(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذي، ص٩٩.
(٣) مدارج السالكين، ٢/ ٩١.
(٤) شرح ثلاثة الأصول، ص ٣٧.
(٥) التعريفات، ص ١٤.



به شيئًا، فهو بهذا اسم فاعل.

وأما المُخْلَصُون - بفتح اللام - فهو جمع مُخْلَص، أي: من أخلصه الله تعالى واختاره، فهو اسم مفعول، وقد قرئ قول الله تعالى في سورة يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: ٢٤] بكسر اللام وبفتحها.

قال ابن جرير الطبري: بفتح اللام من المخلصين بتأويل أن يوسف من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا واخترناهم لنبوتنا ورسالتنا، بكسر اللام بمعنى أن يوسف من عبادنا الذين أخلصوا توحيدنا وعبادتنا فلم يشركوا بنا شيئًا غيرنا[1].

فالمُخْلِص من كانت أعماله خالصةً لله، أي: يقوم بها لله فقط، ولا يقوم بها لغيره لا بالانفراد، أي: لغير الله فقط، ولا بالشركة، أي: لغير الله ولله معًا، وقد وردت في هذا المعنى آيات عديدة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾ [غافر: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١٤﴾ [غافر: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤﴾ [الزمر: ١٤].

أما المُخْلَص -بصيغة المفعول- فهو من طبعه الله بطابع الإخلاص، أي: ختمه ومهره بختم الإخلاص، فاستخلصه وجعله خالصًا وأيد إخلاصه، ووردت في هذا المعنى أيضًا آيات عديدة.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وفي هذه الآية يقسم الشيطان بعزة الله تعالى بعد أن طرده الله من الجنة لما رفض السجود لآدم (عليه السلام) أنه سيقوم بإغواء بني آدم كلهم، ولكنه استثنى منهم عباد الله المخلصين، فإن من استخلصهم الله تعالى ووقع على إخلاصهم، لا يقدر إبليس على إغوائهم، ولما تحدث الله عن أنبيائه وصفهم بالإخلاص، قال الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾ [مريم: ٥١].

(١) انظر: جامع البيان، ١٦/ ٥٠.

الإخلاص في الاستعمال القرآني

وردت مادة (خلص) في القرآن (٣٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦﴾ [ص:٤٦]
الفعل المضارع	١	﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤﴾ [يوسف:٥٤]
اسم الفاعل	١٨	﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر:٢]
اسم المفعول	٩	﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾ [مريم:٥١]
مصدر	٧	﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤﴾ [البقرة:٩٤]

وجاء الإخلاص في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: تنقية الشيء وتهذيبه، وأخلص الدين: أمحضه، والمخلص الذي اختاره الله[٢].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم ص٤٧٩.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٠٨، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٦.



الألفاظ ذات الصلة

١ النية:

النية لغةً:

(نوي): نويته أنويه قصدته والاسم النية، والنية: القصد[١]، وخصت النية في غالب الاستعمال بعزم القلب على أمرٍ من الأمور[٢].

النية اصطلاحًا:

مجرد القصد إلى الشيء أو الإرادة له من دون اعتبار أمر آخر[٣]، وهي توجه القلب نحو العمل، وليس من ذلك بشيء[٤].

الصلة بين الإخلاص والنية:

بينهما علاقة وطيدة حيث إن الإخلاص يعني قصد الله سبحانه وتعالى في العبادة، والنية تعني القصد والعزم على الأمر ، ويلاحظ أن بينهما عمومًا وخصوصًا فالنية أعم، إذ هي تشمل النية الحسنة والسيئة، بخلاف الإخلاص الذي يختص بالنية الصالحة الحسنة فقط.

٢ القصد:

القصد لغةً:

إتيان الشيء تقول: (قصده) وقصد له وقصد إليه كله بمعنًى واحدٍ، و(قصد) قصده أي: نحا نحوه، القصد: استقامة الطريق، قصد يقصد قصدًا، فهو قاصد[٥].

القصد اصطلاحًا:

استقامة الطريق[٦]، وقيل: المعنى دون اللفظ[٧]، وقيل القصد: إرادة المتكلم مع إدراك معنى الكلام وما يترتب عليه من التزامات؛ لأن الألفاظ تعبر وتدل على ما في النفس، لتترتب الأحكام عليها[٨].

(١) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو حبيب، ص ٣٦٣.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٣٢.
(٣) انظر: الروضة الندية ، القنوجي، ١/ ٢٢٦.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٨٣١.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٣٥٣.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٧٢.
(٧) انظر: التبصرة في أصول الفقه، الشيرازي، ص ٣٤٦.
(٨) انظر: القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، الزحيلي، ٢/ ٧٩٦.

الصلة بين القصد والإخلاص:

أن القصد بمعنى الإرادة، والإخلاص أيضًا يأتي بمعنى إرادة العبد ربه في عبادته دون غيره، فالإخلاص له صلة وثيقة بالقصد.

٣ الرياء:

الرياء لغةً:

يقال فلانٌ (مراءٍ)، وقومٌ (مراءون)، والاسم (الرياء) يقال: فعل ذلك رياءً وسمعةً، إظهار غير ما في الباطن[١].

الرياء اصطلاحًا:

العمل لرؤية الناس والسمعة لأجل سماعهم[٢] وقيل: الرياء هو أن يعمل المرء العمل ظاهره أنه لله ولكنه في الباطن يريد به مدح الناس له.

الصلة بين الرياء والإخلاص:

أن الرياء من الألفاظ المقابلة للإخلاص، فالرياء يقصد منه إرضاء الناس، أما الإخلاص يقصد منه ابتغاء وجه الله تعالى.

٤ الشرك:

الشرك لغةً:

هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعدًا، عينًا كان ذلك الشيء، أو معنى[٣].

الشرك اصطلاحًا:

عبادة غير الله تعالى[٤]، وقيل: الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه، أو التقرب إلى غيره بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه[٥].

الصلة بين الإخلاص والشرك:

أن الشرك من الألفاظ المقابلة للإخلاص، فالشرك يعني عبادة غير الله تعالى معه، أما الإخلاص فهو توجه العبد إلى ربه دون غيره.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ١١٥، لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٣٥٩.
(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان عبد الوهاب، ص ٤٥٢.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٥١.
(٤) انظر: دحض شبهات على التوحيد، عبد الله بن خميس، ص ٣٣.
(٥) انظر: صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، محمد السهسواني، ص ١٦٠.



منزلة الاخلاص ودرجاته

حفل القرآن الكريم بالآيات العديدة التي تتحدث عن الإخلاص، وبيان منزلة المخلصين، والأجر الذي أعده لهم، كما تحدث العلماء عن درجات الإخلاص في العبادات ومنهم ابن القيم رحمه الله، وسوف نتعرف في هذا المبحث على منزلة الإخلاص ودرجاته في القرآن الكريم.

أولًا: منزلة الإخلاص

يعد الإخلاص من أهم أعمال القلوب المندرجة في تعريف الإيمان، وأعظمها قدرًا ومنزلة، بل إن أعمال القلوب عمومًا أهم من أعمال الجوارح، ويكفي أن العمل القلبي هو الفرق بين الإيمان والكفر، فالساجد لله والساجد للصنم كلاهما قام بالعمل نفسه، لكن القصد يختلف، وبناء عليه آمن هذا وكفر هذا.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في بيان أهمية أعمال القلوب:«وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبته لله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين لله، والشكر له والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك»[1].

فالإخلاص له منزلة عظيمة في كتاب الله سبحانه وتعالى، فهو مضمون دعوة الرسل وحقيقة الدين.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

يقول الإمام السعدي في تفسيره لهذه الآية: «قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله»[2].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك:٢].

قال الفضيل بن عياض في هذه الآية:«أخلصه وأصوبه»، قلت: ما أخلصه وأصوبه؟ قال:إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة[3].

وقال سبحانه وتعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر:٢].

أي: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى عبادته، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريكٌ ولا عديلٌ ولا نديدٌ؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ

(١) أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية، ص ٣٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٩٣٢.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعالبي، ٩/ ٣٥٦.

﴿ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٣].

أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله، وحده لا شريك له[1].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾ [الزمر:١٤].

قل إني أمرت بإخلاص الدين وأمرت بذلك لأن أكون أول المسلمين، أي: مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة، ولمعنى: أن الإخلاص له السبقة في الدين، فمن أخلص كان سابقًا[2].

ثانيًا: درجات الإخلاص:

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين درجات الإخلاص[3]:

الدرجة الأولى: إخراج رؤية العمل عن العمل والخلاص من طلب العوض على العمل، ويقصد بهذه الدرجة تصفية العمل من كل شوبٍ بحيث لا يخالط عمله أي عرض من أعراض الدنيا الزائلة، أي: لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب النفس إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو غير ذلك.

ويعرض للعامل في عمله ثلاث آفاتٍ: رؤيته وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه.

ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه الآفات، فالذي يخلصه من رؤية عمله مشاهدته لمنة الله عليه وفضله، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير:٢٩].

فالخير الذي يصدر منها إنما هو من الله وبه، لا من العبد، ولا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [النور:٢١].

فكل خيرٍ في العبد فإنما هو فضل الله ومنته، فالذي يخلص العبد من هذه الآفة: معرفة ربه، ومعرفة نفسه، والذي يخلصه من طلب العوض على العمل: علمه بأنه عبدٌ محضٌ، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضًا ولا أجرةً؛ إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضلٌ منه وإنعام.

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

الأول: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيها.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية.

الدرجة الثانية: الخجل من العمل مع

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٨٤.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ١١٨.
(٣) انظر: مدارج السالكين، ٢/ ٩٣.

بذل المجهود، وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود، ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠].

أي: خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون، فلا ينجيهم ما فعلوا من ذلك من عذاب الله، فهم خائفون من المرجع إلى الله[(١)].

واشتملت هذه الدرجة على خمسة أشياء: عملٌ، واجتهادٌ فيه، وخجلٌ، وحياءٌ من الله عز وجل، وصيانةٌ عن شهوده منك، ورؤيته من عين جود الله سبحانه ومنه.

الدرجة الثالثة: إخلاص العمل بالخلاص من العمل، تدعه يسير سير العلم، الكلام: أنك تجعل عملك تابعًا لعلم، موافقًا له، ناظرًا إلى الحكم الديني الأمري، متقيدًا به ناظرًا إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سببًا وكسبًا. ومع ذلك فتسير أنت بقلبك، مشاهدًا للحكم الشرعي، فيكون قائمًا بالأمر والنهي فعلًا وتركًا، سائرًا بسيره، وبالقضاء والقدر، إيمانًا وشهودًا وحقيقةً، فهو ناظرٌ إلى الحقيقة، قائمٌ بالشريعة.

قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

أي: وما تشاءون الاستقامة أو غيرها، إلا إذا شاءها وأرادها الله تعالى رب العالمين؛ إذ مشيئة الله تعالى هي النافذة، أما مشيئتكم فلا وزن لها إلا إذا أذنت بها مشيئته تعالى[(٢)].

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن كل مشيئة لا قيمة لها ولا وزن، إلا إذا أيدتها مشيئة الله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان:٢٩-٣٠].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٤٤.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١٥/ ٣٠٦.

صور الإخلاص

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه صورًا متعددة للإخلاص؛ كإخلاص الدين لله تعالى، والإخلاص في العقيدة، والعبادة، والشعائر، والدعاء، والعلم والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما ستتحدث عنه في هذا المبحث.

١. إخلاص الدين لله.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥].

لما كان المراد الإخلاص الذي هو أشرف الأشياء، عبر عنه بالوجه الذي هو أشرف الأعضاء فقال: ﴿وَجْهَهُ﴾، أي: الجهة التي يتوجه إليها بوجهه، أي: قصده كله ﴿لِلَّهِ﴾ فلا حركة له وسكنة ولا عمل ولا عبادة إلا فيما يرضاه، لكونه الواحد الذي لا مثل له[١].

و قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر:٢].

يقول الطبري في تفسيره: « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إنا أنزلنا إليك يا محمد الكتاب، يعني بالكتاب: القرآن (بالحق) يعني بالعدل، يقول: أنزلنا إليك هذا القرآن يأمر بالحق والعدل، ومن ذلك الحق والعدل أن تعبد الله مخلصًا له الدين، لأن الدين له لا للأوثان التي لا تملك ضرًا ولا نفعًا»[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥].

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: إخلاص الدين له يخرج على وجهين:

الأول: أن يخلص له الدين، ويصفى، لا يشرك فيه غيره، ويكون من خلوصه وصفائه.

والثاني: الدين الخالص هو الدائم[٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣١].

﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وحدوا الله و﴿اسْتَقَامُوا﴾ على التوحيد أو على لزوم الطاعة وأداء الفرائض، أو على إخلاص الدين والعمل إلى الموت، أو استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم، أو استقاموا سرًا كما استقاموا جهرًا ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت، أو عند الخروج من قبورهم ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ أمامكم

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٥/ ٤١٢.

(٢) جامع البيان، ٢١/ ٢٤٨.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٥٩١.

﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

ثم بشرهم بالجنة؛ لأن الاستقامة على منهاج الحق والخير وطاعة الله تعالى، دليل على الإخلاص في الدين، والانحراف عن ذلك المنهاج أمارة واضحة على الجهالة وقلة الوعي وضعف الإدراك، والجبن والمهانة، والانصياع للذات والأهواء والشهوات، فما استقام أحد إلا نجا وأفلح، وكان متماسك الشخصية، قوي العزيمة والإرادة، وما ضل أحد إلا هلك ودمر نفسه، وكان خائر العزيمة، ضعيف الإرادة، لذا كان الدين سبيلًا لخير الإنسان، وإبعاده عن الشرور والآثام، فجاء القرآن الكريم يحض على الاستقامة[1].

٢. إخلاص العقيدة.

إذا تأملنا القرآن الكريم، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة، نصل إلى حقيقة واضحة كل الوضوح، أن غالب آيات القرآن الكريم جاءت في تقرير عقيدة التوحيد، توحيد الإلوهية، والربوبية، والأسماء والصفات، والدعوة إلى إخلاص العبادة والدين لله وحده لا شريك له، وتثبيت أصول الاعتقاد.

ولقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب وقته في تقرير الاعتقاد والدعوة إلى توحيد الله تعالى بالعبادة والطاعة.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة:١٣٩].

يقول ابن كثير: «يقول الله تعالى مرشدًا نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ أي: أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له! ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم، وأنتم برآء منا»[2].

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يقول: فمن يخاف ربه يوم يلقاه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية، ولا يجعل له شريكًا في عبادته[3].

٣. إخلاص العبادة.

من صور الإخلاص التي لابد للمسلم أن يحرص على تحقيقها الإخلاص في العبادة، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يخلص

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢٣٠٤، تفسير العز بن عبد السلام، ٣/ ١٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٤٥١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ١٣٥.

في عبادته لربه.

قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر:٢] أي: فاعبد الله وحده مخلصًا له في عبادتك، ولا تقصد بعملك إلا الله ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣].

أي: ألا فانتبهوا أيها الناس: إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم؛ لأنه المتفرد بصفات الألوهية، المطلع على السرائر الضمائر[1]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر:١١].

أي: «إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له»[2]، وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بإخلاص العبادة له، فقال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۝١٤﴾ [الزمر:١٤].

أمرٌ بأن يعيد التصريح بأنه يعبد الله وحده تأكيدًا لقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر:١١].

لأهميته، وإن كان مفاد الجملتين واحدًا؛ لأنهما معًا تفيدان أنه لا يعبد إلا الله تعالى باعتبار تقييد أعبد الله الأول بقيد مخلصًا له الدين، وباعتبار تقديم المفعول على أعبد الثاني فتأكد معنى التوحيد مرتين ليتقرر ثلاث مراتٍ، وتمهيدًا لقوله: فاعبدوا ما شئتم من دونه[3].

٤. إخلاص الشعائر.

يعتبر الإخلاص في الشعائر التعبدية التي فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده من صور الإخلاص، فالمسلم إن أخلص في صلاته وصيامه وحجه وزكاته، فإنه يبتعد عن الرياء الذي يفسد العبادة، ويبقى في معية ربه وحفظه وتوفيقه، فلا بد أن تكون حياة المسلم كلها ابتغاء وجه الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

يقول ابن عاشور: «جعل صلاته لله دون غيره تعريضًا بالمشركين؛ إذ كانوا يسجدون للأصنام، ولذلك أردف بجملة لا شريك له، والنسك حقيقته العبادة ومنه يسمى العابد الناسك»[4].

قال بعض العلماء: المراد بالنسك هنا النحر؛ لأن الكفار كانوا يتقربون لأصنامهم بعبادةٍ من أعظم العبادات: هي النحر، فأمر الله تعالى نبيه أن يقول إن صلاته ونحره كلاهما خالصٌ لله تعالى، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾، وقال بعض العلماء: النسك جميع العبادات،

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٦٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٨٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٣/ ٣٥٩.
(٤) التحرير والتنوير، ٨/ ٢٠١.

ويدخل فيه النحر، وقال بعضهم: المراد بقوله: وانحر وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر في الصلاة[1].

ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله.

وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: ما يفعل الإنسان في حياته، وما يجريه الله علي، وما يقدر علي في مماتي، الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداعًا مني، وبدعًا أتيته من تلقاء نفسي، بل ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أمرًا حتمًا، لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة[2].

٥. إخلاص الدعاء.

الدعاء صورة من صور الإخلاص لله تعالى، ومن أسباب استجابة الدعاء الإخلاص.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ [الأعراف:٢٩].

يقول السعدي في تفسيره: «﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: توجهوا لله، واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصًا «الصلاة» أقيموها، ظاهرًا وباطنًا، ونقوها من كل نقص ومفسد، ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له. والدعاء يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، أي: لا تراءوا ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم سوى عبودية الله ورضاه»[3].

و قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٤﴾ [غافر:١٤].

هذا خطاب للموحدين يأمرهم تعالى بالاستمرار على توحيد الله في عباداته والإخلاص لله تعالى في كل أعمالهم، ولو كره الكافرون ذلك منهم فإنه غير ضائرهم[4].

٦. إخلاص العلم والدعوة.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾ [مريم:٥١].

هذا أمر من الله عز وجل بذكر موسى بن عمران عليه السلام على جهة التشريف له، وأعلمه بأنه كان مخلصًا في دعوته وعبادته، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر «مخلصًا» بكسر اللام وهي قراءة الجمهور أي: أخلص نفسه لله، وقرأ حمزة والكسائي

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١/ ٥٤٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٨٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٨٦.
(٤) أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٥٢١.

وعاصم «مخلصًا» بفتح اللام وهي قراءة أبي رزين ويحيى وقتادة، أي: أخلصه الله للنبوءة والعبادة[1].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

ولقد آتينا داود وسليمان علمًا أي: أعطينا كل واحد منهما طائفة خاصة به من علم الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختص به كل واحد منهما، كصنعة الدروع، ومنطق الطير. أو: علمًا لدنيا، وقالا أي: كل واحد منهما، شكرًا لما أوتيه من العلم: الحمد لله الذي فضلنا بما آتانا من العلم على كثيرٍ من عباده المؤمنين. قال النسفي: وهنا محذوف، ليصلح عطف الواو عليه، ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه: الفاء، كقولك: أعطيته فشكر، وتقديره: آتيناهما علمًا، فعملا به، وعرفنا حق النعمة فيه، وقالا: الحمد لله الذي فضلنا على كثيرٍ، والكثير المفضل عليه: من لم يؤت علمًا، أو: من لم يؤت مثل علمهما، وفيه: أنهما فضلا على كثير، وفضل عليهما كثير، وفي الآية دليلٌ على شرف العلم، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلًا على كثير من عباده، وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم في الشرف والمنزلة؛ لأنهم القوامون بما بعثوا من أجله، وفيها: أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله تعالى على ما أوتوه[2].

والإخلاص في الدعوة إلى الله هو تجريد القصد لله تعالى، وطلب مرضاته دون سواه، وهو روح الأعمال وأساس قبولها عند الله، ولا يتحقق الإخلاص في الدعوة إلا عندما يتأكد الداعية أن قصده رضا الله تعالى، ويتجرد من الانقياد وراء حظوظ النفس ونوازع الهوى ومطالب الذات، ويحرر نفسه من قيود الرياء، وطلب الشهرة أو المدح أو الظهور أو السمعة، أو حب التصدر والرئاسة والجاه، ويتخلص من السعي خلف شهوة المال والجاه، وطلب المنزلة في قلوب الناس واستقطابهم، أو السعي وراء أي متاع من متع الدنيا وجعل الدعوة وسيلة له.

٧. الإخلاص في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصديةٌ لهذا الشأن، وإن كان ذلك

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٢٠.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ١٨٠.

واجبًا على كل فردٍ من الأمة بحسبه[1].

كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[2].

ولابد للمسلم أن يحرص على أن يبتغي من عمله هذا وجه الله، وأن يكون مخلصًا لربه حتى يكون من الفائزين عند رب العاملين.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

لا خير في كثير من نجوى الناس جميعًا إلا من أمر بصدقة أو معروف، والمعروف: هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، أو إصلاح بين الناس، وهو الإصلاح بين المختصمين، بما أباح الله الإصلاح بينهما، ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة، على ما أذن الله وأمر به، ثم أخبر جل ثناؤه بما وعد من فعل ذلك فقال: «ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا»، يقول: ومن يأمر بصدقة أو معروف من الأمر، أو يصلح بين الناس «ابتغاء مرضاة الله»، يعني: طلب رضى الله بفعله ذلك «فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا» [3]، أي: في الدنيا والآخرة.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٩١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب النهي عن المنكر، ١/ ٥٠.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٩/ ٢٠١.

وسائل تحقيق الإخلاص

المؤمن بحاجة ماسة لوسائل عديدة لتحقيق الإخلاص، فقد ذكر الله في كتابه وسائل من خلالها يتحقق الإخلاص عند المؤمن في عبادته وطاعته، ومنها تعظيم الله سبحانه وتعالى، والدعاء في السر والعلن، ومحاربة الهوى، والعبادات السرية، ومخالفة الشيطان.

١ . تعظيم الله عز وجل.

إن تعظيم الله سبحانه أساس الفلاح، وكيف يفلح ويسعد قلب لا يعظم ربه وخالقه وسيده ومولاه، ومن عظم الله عرف أحقية الله عز وجل بالذل والخضوع والخشوع والانكسار، وعظم شرعه، وعظم دينه، وعرف مكانة رسله، ومن عظم الله سبحانه وقدره حق قدره تحقق فلاحه ونجاحه وسعادته في دنياه وأخراه، وهذا التعظيم لله سبحانه يعد أساسا متينا يقوم عليه دين الإسلام، بل إن أصل العبادة في الإسلام هو التعظيم.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [الحج:٣٢].

بعد أمر الله تعالى إبراهيم الخليل بالنداء للحج، أوضح الله ثواب تعظيم أحكام الله ومناسك الحج، وذلك هو المأمور به من الطاعات في أداء مناسك الحج، وتعظيم حرمات الله: وهي كل ما لا يحل هتكه، ومن يعظم أحكام الله بتعلمها واجتناب المعاصي والمحرمات، والتزام المأمورات فله الثواب الجزيل، الشامل أمرين: فعل الطاعة في حد ذاتها، واجتناب المحظور الحرام. وتعظيم شرائع الله خير محض للإنسان(١).

ومن أسماء ربنا وخالقنا ومولانا الحسنى « العظيم »، وهو جل وعلا عظيم في أسمائه، وعظيم في صفاته، وعظيم في أفعاله، وعظيم في كلامه، وعظيم في وحيه وشرعه وتنزيله، بل لا يستحق أحدٌ التعظيم والتكبير والإجلال والتمجيد غيره، فيستحق على العباد أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته والذل له والخوف منه، ومن تعظيمه سبحانه أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ومن تعظيمه وإجلاله أن يخضع لأوامره وشرعه وحكمه، وأن لا يعترض على شيء من شرعه.

وهو جل وعلا عظيم مستحق من عباده أن يعظموه جل وعلا حق تعظيمه، وأن يقدروه جل وعلا حق قدره، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٦٤٣.

[الزمر:٦٧].

يقول ابن كثير في تفسيره: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته[١].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعودٍ، قال: «جاء حبرٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبعٍ، والأرضين على إصبعٍ، والجبال والشجر على إصبعٍ، والماء والثرى على إصبعٍ، وسائر الخلق على إصبعٍ، ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبًا مما قال الحبر، تصديقًا له، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾»[٢].

فقد ذهبت عقول هؤلاء المشركين حين صرفوا ذلهم وخضوعهم وانكسارهم ورجاءهم وخوفهم ورغبهم ورهبهم وحبهم وطمعهم إلى مخلوقات ضئيلة، وكائنات ذليلة، لا تملك لنفسها شيئًا من النفع والضر، فضلًا عن أن تملكه لغيرها، وتركوا الخضوع والذل للرب العظيم والكبير المتعال، والخالق الجليل تعالى الله عما يصفون، وسبحان الله عما يشركون، وهو وحده المستحق للتعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذل، وهذا خالص حقه.

فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبين غيره فيه، ومن اتخذ الشركاء والأنداد له ما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، سبحانه وتعالى الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، ووجلت القلوب من خشيته، وذلت له الرقاب، تبارك الله رب العالمين، وإن من أعظم ما يعين العبد على تحقيق عبودية التعظيم للرب: أن يتفكر في مخلوقات الله العظيمة وآياته - جل شأنه - الجسيمة الدالة على عظمة مبدعها وكمال خالقها وموجدها.

يقول جل شأنه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾ [نوح:١٣-٢١].

يقول النسفي في تفسيره: ما لكم لا ترجون لله وقارًا، أي: لا تخافون لله

(١) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ١١٣.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الفتنة، ٤/ ٢١٤٧.

عظمة[1].

وإن تفكر المؤمن وتأمله في آيات الله العظيمة ومخلوقاته الباهرة تهدي قلبه وتسوقه إلى تعظيم خالقه، تفكر في هذه الأرض التي تمشي عليها والجبال المحيطة بك، إن نظرة منك متجردة إلى هذه الأرض متفكرًا فيها تجد أنها مخلوقات عظيمة؛ عظمة تبهر القلوب، فإذا ما وسعت النظر ونظرت فيما هو أعظم من ذلك.

وتأملت في السماء المحيطة بالأرض تتضاءل عندك هذه العظمة؛ عظمة الأرض بالنسبة إلى عظمة السماء، ثم إذا تأملت فيما هو أعظم وهو السماوات السبع المحيطة بهذه الأرض يزداد الأمر عظمة.

ثم إذا تأملت في ذلكم المخلوق العظيم الذي قال الله عنه في أعظم آية في كتاب الله.

قال جل شأنه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

يقول السعدي: وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتهما وعظمة من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلهذا قال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: يثقله ﴿حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي يتضاءل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء[2].

وإن تعظيم الله جل شأنه فرع عن المعرفة بالله جل وعلا؛ فكلما كان العبد أعظم معرفة بالله كان أشد لله تعظيمًا وأشد له إجلالًا وأعظم له مخافة وتحقيقًا لتقواه جل شأنه، وإذا عظم القلب ربه خضع له سبحانه وانقاد لحكمه وامتثل أمره وخضع له جل شأنه، وجميع صنوف الانحرافات وأنواع الأباطيل والضلالات في جميع الناس منشؤها من ضعف التعظيم لله أو انعدامه في القلوب، وسيندم جميع هؤلاء يوم لقاء الله، فهو يوم عصيب لمن كان لا يؤمن بالله العظيم.

(١) مدارك التنزيل، ٣/ ٥٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ١١٠.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة:٢٥-٣٢].

وسبب سوء العاقبة والهلاك والعذاب عدم إيمانه بعظمة الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحاقة:٣٣].

٢. الدعاء.

الدعاء أحد الوسائل المعينة على تحقيق الإخلاص، حيث يتوجه العبد إلى ربه طلبًا للعون والمساعدة والنصرة، وقد جاء الدعاء على لسان كثير من الأنبياء والرسل عليهم السلام، فهذا نبي الله زكريا توجه لربه وأخلص في دعائه فسرعان ما ا الاستجابة.

قال الله تعالى حكاية عنه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

فاستجبنا له، أي: دعاء زكريا عليه السلام، ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه، أي: أصلحناها للولادة بعد عقرها، معجزة وكرامة له، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى، المتعلقة بالأنبياء المذكورين، أي: كانوا يبادرون في كل باب من الخير. وإيثار (في) على (إلى) للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير. لأن (إلى) تدل على الخروج عن الشيء والتوجه إليه ويدعوننا رغبًا ورهبًا، أي: ذوي رغب ورهب، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة. وكانوا لنا خاشعين، أي: مخبتين متضرعين[(١)].

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان:٣٢].

وذكر تعالى حال الناس، عند ركوبهم البحر، وغشيان الأمواج كالظل فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ انقسموا فريقين:

فرقة مقتصدة، أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم.

وفرقة كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي: غدار، ومن غدره، أنه عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغدر ولم يف بذلك، ﴿كَفُورٍ﴾ بنعم الله، فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٧/ ٢٢٠.

القيام التام بشكر نعم الله[1].

في هذا الموقف والسفينة تشرف على الغرق يكون الإنسان في حالة من الإخلاص التام لله عز وجل، وتأمل معنى هذه الآية التي تلخص لنا الأحاسيس التي يمر بها من يركب السفينة منذ أول لحظة وحتى اللحظة التي تسبق الغرق: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢].

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ يجريكم ويحملكم، وقرأ أبو جعفرٍ وابن عامرٍ: «ينشركم» بالنون والشين من النشر وهو البسط والبث، ﴿فِي الْبَرِّ﴾، على ظهور الدواب، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على الفلك، ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: في السفن، تكون واحدًا وجمعًا ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ يعني: جرت السفن بالناس، رجع من الخطاب إلى الخبر، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينةٍ، ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي: بالريح، ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ﴾ أي: جاءت الفلك ريحٌ، ﴿عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب، ولم يقل ريحٌ عاصفةٌ، لاختصاص الريح بالعصوف. وقيل: الريح تذكر وتؤنث. ﴿وَجَاءَهُمُ﴾ يعني: ركبان السفينة، ﴿الْمَوْجُ﴾ وهو حركة الماء واختلاطه، ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ دنوا من الهلكة، أي: أحاط بهم الهلاك، ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحدًا سوى الله. وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ يا ربنا، ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الريح العاصف، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك بالإيمان[2].

وإذا أراد المؤمن أن يستجيب الله دعاءه فلا بد أن يخلص في الدعاء، وإذا أراد أن يتقبل عبادته فليخلص هذه العبادة لله، هكذا أمر الله نبيه بقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر:٢].

٣. مخالفة الهوى.

تعتبر مخالفة الهوى وسيلة من وسائل تحقيق الإخلاص، والمتأمل في كتاب ربنا يجد أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر الهوى إلا مذمومًا، فاتباع الهوى سبيل المضلين، ومخالفة الهوى درب المخلصين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله، وهو هداه الذي بعث به رسوله، وهو السبيل إليه.

وقد حذر الله سبحانه وتعالى أنبياءه من

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٥٢.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ١٢٨.

اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

فإن أصل الهوى محبة النفس، ويتبع ذلك بغضها، ونفس الهوى وهو الحب والبغض الذي في النفس لا يلام عليه؛ فإن ذلك قد لا يملك، وإنما يلام على اتباعه.

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣].

يقول السعدي: «يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ الرجل الضال الذي ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فما هويه سلكه سواء كان يرضي الله أو يسخطه. ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله تعالى أنه لا تليق به الهداية ولا يزكو عليها. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يعي الخير ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد يهديه وقد سد الله عليه أبواب الهداية وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله ولكن هو الذي ظلم نفسه وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعكم فتسلكونه وما يضركم فتجتنبونه»[1].

والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغض، ووجد وإرادة، وغير ذلك، فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو ممن اتبع هواه[2]، فلهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله، ويتوكل عليه في أن يقيم قلبه ولا يزيغه، ويثبته على الهدى والتقوى، ولا يتبع الهوى، كما قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [الشورى:١٥].

وقد بين سبحانه وتعالى أن مخالفة الهوى سبب من أسباب الفوز والفلاح.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

فالغفلة والشهوة أصل الشر.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل، وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعًا أن ذلك يضره ضررًا راجحًا، انصرفت نفسه عنه بالطبع؛ فإن الله تعالى جعل في

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٧٧.
(٢) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية ص ١٥.

النفس حبًا لما ينفعها، وبغضًا لما يضرها، فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضررًا راجحًا، بل متى فعلته كان لضعف العقل[1].

يقول ابن القيم: «من سار مع العقل، وخالف طريق الهوى، ونظر إلى العواقب، أمكنه أن يتمتع من الدنيا أضعاف ما تمتع من استعمل الشهوات؛ فأما المستعجل فيفوت على نفسه حظ الدنيا والذكر الجميل، ويكون ذلك سببًا لفوات مراده من اللذات»[2].

إن انقياد الإنسان واتباعه للشهوة يجعله في مصاف الحيوانات، ويجلب له الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة، إذا تمكنت الشهوة من الإنسان وملكته وانقاد لها كان بالبهائم أشبه منه بالناس؛ لأن أغراضه ومطلوباته وهمته تصير أبدًا مصروفة إلى الشهوات واللذات فقط، وهذه هي عادة البهائم، ومن يكون بهذه الصفة يقل حياؤه، ويكثر خرقه، ويستوحش من أهل الفضل، ويبغض أهل العلم، ويود أصحاب الفجور، ويستحب الفواحش، ويسر بمعاشرة السخفاء، ويغلب عليه الهزل وكثرة اللهو، وقد يصير من هذه الحالة إلى الفجور، وارتكاب الفواحش، والتعرض للمحظورات، وربما دعته محبة اللذات إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها، وربما حملته على الغضب والتلصص والخيانة وأخذ ما ليس له بحق؛ فإن اللذات لا تتم إلا بالأموال والأعراض، فمحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجوهها، جسرته شهوته إلى اكتسابها من غير وجوهها، ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحد، فهو أسوأ الناس حالًا، ويصبح من الأشرار الذين يخاف خبثهم، ويصير واجبًا على متولي السياسات تقويمهم وتأديبهم، وإبعادهم ونفيهم[3].

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: صاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في الأمر ولا يطلبه أصلًا، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، فليس قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العلياء، بل قصده الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء، ليعظم هو ويثنى عليه، أو لغرض من الدنيا، فلم يكن لله غضبه، ولم يكن مجاهدًا في سبيل الله، بل إن أصحاب الهوى يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهدًا معذورًا لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم، وإن كان جاهلًا سيء القصد، ليس له علم ولا حسن

(١) انظر: الحسنة والسيئة، ص ٦١.
(٢) صيد الخاطر، ص ٤٦٣.
(٣) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين، ٩/ ٣٧٥٢.



قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله[1].

٤ . العبادات السرية.

تعتبر العبادات السرية أحد الوسائل لتحقيق الإخلاص، فالله سبحانه وتعالى فرض علينا العبادات من صلاة وزكاة وصيام وقيام وصدقة إلى غير ذلك من العبادات، ورتب سبحانه وتعالى الأجر والثواب على من أخلص في عبادته لربه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة:٥].

«فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد، وخص الصلاة والزكاة [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم»[2].

الواجب على الإنسان أن يكون عبدًا لله، وأن يخلص العبادة لله جل وعلا، وخاصة في العبادات السرية، وألا يكون قلبه وعمله مفرقًا بين معبودات شتى، والله لا يقبل من العباد إلا أن يعبدوه وحده، وكل القرآن في هذا المعنى؛ لأن القرآن لا يخلو إما أن يكون في أوصاف الله حتى يدعو ذلك إلى تعظيمه وتوقيره، ويدخل في أوصافه أفعاله تعالى وتقدس، أو يكون الأمر صراحة أن نخلص له العبادة، كقوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة:٣١].

فهذا واضح جدًا، أو يكون في الأوامر والنواهي التي هي من حقوق هذا التوحيد، مثل: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم وفعل الخيرات كلها.

٥ . مخالفة الشيطان.

قد بين الله تعالى في كتابه الكريم مكايد الشيطان وطرق إغوائه للإنسان، فقال في محكم التنزيل حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ

(١) انظر: نضرة النعيم، ٩/ ٣٧٥٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩٣١.

﴿١٧﴾ [الأعراف:١٤-١٧].

يقول ابن كثير في تفسيره: يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: كما أغويتني، قال ابن عباسٍ: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي[١].

إن هذه الآيات الجليلة تبين لنا معالم حربٍ مشتدةٍ بين الشيطان وجنده من جهة، وبين أولياء الله وعباده من جهة أخرى، وهذه الحرب الشعواء لا عاصم للمؤمن منها، إلا استعانته بربه عز وجل، وبدأ الشيطان بغواية حينما أخرجه الله من الجنة، منذ أن خلق الله سبحانه نبيه آدم - عليه السلام - ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه:١٢٠].

ومن يومها والحرب سجالٌ بين الشيطان وبين أولياء الله تعالى.

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٩٣.

ومن مكايد الشيطان:

١. الوسوسة.

وهي حديث النفس، والصوت الخفي، والوسوسة من أعظم مكائد الشيطان؛ إذ لا يزال بالإنسان يوسوس له ويشككه حتى يخرجه من عقيدة الإسلام، كما جاء في (الصحيحين) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ ومن خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا وجد أحدكم ذلك، فليقل: آمنت بالله ورسله، فإن ذلك يذهب عنه)[٢].

٢. النسيان.

فينسي الإنسان ذكر ربه، ومجالسة الصالحين، والذب عن هذا الدين، والرد على المخالفين والمستهزئين.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

٣. التحريش وإيقاع العداوة بين المسلمين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة:٩١].

فتقع الشحناء بين المسلمين، وبين الإخوة والأصدقاء فيتفرقوا أحزابًا شيعًا؛ وكل ذلك من الشيطان.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ٤ / ١٢٣.

٤. التخويف.

فيخوف الإنسان من طاعة ربه؛ فإذا أراد بذل مالٍ في سبيل الله خوفه بالفقر ووعده به.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨].

وإذا أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر خوفه الشيطان من سوء العاقبة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥].

٥. القول على الله بغير علم.

قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩].

٦. التزيين لفعل المعصية.

بالنظر لما حرم الله؛ كالنظر مثلًا للمرأة الأجنبية، وهو بريد الزنا، ولأن النساء حبائل الشيطان؛ فيجب على الإنسان دحر كيده، بما ثبت من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه)[1].

ومما سبق تبيَن أن للشيطان مكائد متعددة، ولكن الإسلام أرشدنا إلى مخالفة الشيطان وطرق الوقاية من الوقوع في غوايته ووساوسه ومن هذه الأمور ما يأتي:

١. الاستعاذة بالله سبحانه.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:٩٨].

٢. البسملة.

فقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أما إن أحدكم إذا أتى أهله وقال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فرزقا ولدًا لم يضره الشيطان)[2].

٣. سجود التلاوة.

فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله - وفي رواية أبي كريبٍ يا ويلي - أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار)[3].

٤. عدم اتباع خطوات الشيطان.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب من أبصر امرأة فوقعت في قلبه، ٤/ ١٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس، ٤/ ١٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا قرأ ابن آدم السجدة، ١/ ٦١.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقرة:١٦٨].

يقول السعدي: «نهاهم عن اتباع ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر، وفسوق، وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوائب، والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضًا تناول المأكولات المحرمة، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقبح الأشياء، وأعظمها مفسدة فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾»[1].

ثمرات الإخلاص

إن الله سبحانه وتعالى بين في كتابه، أن من يحقق الإخلاص في دينه يجد ثمرات في الدنيا والآخرة لهذا الإخلاص؛ كقبول العمل، والتأييد الإلهي، والنجاة من الهلاك، والتمكين في الأرض، والنجاة من إضلال الشيطان وغوايته، وصرف السوء والفحشاء، والنجاة من النار، والفوز بالدرجات العلا في الجنة.

أولًا: الثمرات الدنيوية:

١ . قبول العمل.

من ثمرات الإخلاص قبول العمل، فحينما يتقرب المسلم إلى ربه بالعبادات والأعمال الصالحة ويكون بذلك مخلصًا فيها لله تعالى فإن الله سبحانه وتعالى يقبل عمله، ويثني عليه ويمدحه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينٗا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٞ﴾ [النساء:١٢٥].

وقد يتقرب المخلص إلى ربه بعمل فيخطئ في تأديته، ويضعه في غير موضعه، فتأتي نيته الصالحة شفيعًا، فتصحح له خطأه، وتكمل له نقصه، وفي هذا جاء حديث الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال رجلٌ: لأتصدقن بصدقةٍ، فخرج بصدقته،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٠.

فوضعها في يد سارقٍ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على سارقٍ، فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقةٍ، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانيةٍ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانيةٍ، فقال: اللهم لك الحمد، على زانيةٍ؟ لأتصدقن بصدقةٍ، فخرج بصدقته، فوضعها في يدي غني، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غنيٍ، فقال: اللهم لك الحمد، على سارقٍ وعلى زانيةٍ وعلى غنيٍ، فأتي به فقيل له: أما صدقتك على سارقٍ فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله»[1].

٢. التأييد الإلهي.

يعتبر التأييد الإلهي ثمرة من ثمرات الإخلاص، وإن المخلص مؤيد من الله، منتصر به سبحانه، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

وعلى قدر إخلاص المرء لربه، وتجرده له، يكون مدد الله تعالى وعونه وكفايته وولايته، وإن الإمداد على قدر الاستعداد، إمداد الله بالنصر والتأييد، أو بالتوفيق والتسديد، على حسب ما في القلوب من تجريد النية.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠﴾ [الأنفال:٧٠].

يقول السيوطي: «﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيمانًا وإخلاصًا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء بأن يضعفه لكم في الدنيا ويثيبكم في الآخرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[2].

وقال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ [الفتح:١٨].

يقول الواحدي في تفسيره: «﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكانوا ألفًا وأربعمائة، ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية على أن يناجزوا قريشًا ولا يفروا، ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني: سمرة كانت هنالك، وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص والوفاء ﴿فَأَنزَلَ﴾ الله ﴿السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وهي الطمأنينة وثلج الصدر بالنصرة من الله تعالى لرسوله ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فتح خيبر»[3].

وقد وعد الله سبحانه المؤمنين الذين أخلصوا بالأجر العظيم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، ٢/ ١١٠.

(٢) تفسير الجلالين، ص ٢٣٨.

(٣) الوجيز، ص ١٠١٠.

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء:١٤٦].

يقول ابن كثير: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: بدلوا الرياء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قل[١].

٣. النجاة من الهلاك.

ومن ثمرات الإخلاص في الدنيا نزول الفرج والنجاة من الهلاك والكرب والشدة، بحسب مشيئة الله تعالى وقدره، وقد تعجب لو قلت لك: إن الله تعالى يفرج بالإخلاص عن المشرك لو أخلص لله قليلًا، مع أنه مشرك، فما ظنك بالمؤمن الذي ينبغي أن تكون حياته كلها مبنية على الإخلاص، وأن يجتهد في تحقيق الإخلاص في كل عمل، إذا كان الله تعالى يفرج عن المشرك لو أخلص قليلًا، فإنه سبحانه لا شك يفرج عن المؤمن الذي يتحرى الإخلاص في عمله، وينجيه مما ينزل به من شدائد، وكل بحسب قدر إخلاصه وتوكله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان:٣٢].

يقول الطبري في تفسيره: يقول تعالى ذكره: وإذا غشي هؤلاء الذين يدعون من دون الله الآلهة والأوثان في البحر -إذا ركبوا في الفلك- موج كالظلل، وهي جمع ظلة، شبه بها الموج في شدة سواد كثرة الماء، وشبه الموج وهو واحد بالظلل، وهي جماع؛ لأن الموج يأتي شيء منه بعد شيء، ويركب بعضه بعضًا كهيئة الظلل.

وقوله: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وإذا غشي هؤلاء موج كالظلل، فخافوا الغرق، فزعوا إلى الله بالدعاء مخلصين له الطاعة، لا يشركون به هنالك شيئًا، ولا يدعون معه أحدًا سواه، ولا يستغيثون بغيره، قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ مما كانوا يخافونه في البحر من الغرق والهلاك إلى البر، وقوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يقول: فمنهم مقتصد في قوله وإقراره بربه، وهو مع ذلك مضمر الكفر به[٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة:١٠٩].

يقول السعدي: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ﴾ أي: على نية صالحة وإخلاص ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بأن كان موافقًا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص

(١) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٤٢.

(٢) جامع البيان ٢٠/ ١٥٦.

والمتابعة، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾ أي: على طرف، ﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: بالٍ، قد تداعى للانهدام، ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم[1].

٤ . التمكين في الأرض.

إن الله سبحانه وتعالى وعد عباده المؤمنين المخلصين بالنصر والتمكين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥].

فإن الله سبحانه وعد من أقام الإيمان وحرص على العمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جدًا بالنسبة إلى غيرهم، فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشاهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا، مخلصين له في العبادة، ولا يخافون أحدًا إلا الله، فقام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح[2].

لذلك جعل الله سبحانه وتعالى من ثمرات الإخلاص تحقيق النصر والتمكين في الأرض، وإلا فسيكون مصيرنا في معاركنا مع أعدائنا مرهونًا بمعايير القوة الطبيعية وحدها، ونحرم أنفسنا من الفوز بمعونة الله تعالى ومعيته، انظر إلى الصحابة رضي الله عنهم، كيف فتح الله تعالى لهم البلاد، حتى بلغوا في سنوات قليلة حدود الصين شرقًا والأندلس غربًا، والقسطنطينية شمالًا، مع

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٧٣.

أنهم لم يكن لهم من عدة الحروب وعتادها ما كان للفرس والروم، ولم تكن القوة بينهم وبين عدوهم متكافئة، فعدوهم كان يملك أضعاف ما يملكون من قوة بشرية وحربية، ولكن لأنهم أسسوا حركتهم في نشر الإسلام على الإخلاص، وأقاموها على فقه في الإعداد والتوكل، تحقق على أيديهم النصر المنشود.

بالإخلاص يفتح الله لك أبواب الهداية في كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].

فحددت الآية أولًا طريق الجهاد والمجاهدة، فقال تعالى: «جاهدوا فينا»، ثم بينت الآية نتيجة هذا الطريق المبني على الإخلاص: «لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين»، والمخلص موعود بالنجاحين، النجاح في الدنيا والنجاح في الآخرة، وليس هناك من طريق يجمع النجاح في الدنيا والآخرة غير طريق الإخلاص، فقد ينال غير المخلص مراده وينجح في تحقيق هدفه الدنيوي، لكنه لن يحصل على نجاح الآخرة وثوابها.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء:١٣٤] «من كان يريد» بعمله «ثواب الدنيا»؛ «فعند الله ثواب الدنيا والآخرة» لمن أراده لا عند غيره.

ثانيًا: الثمرات الأخروية:

١ . النجاة من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾ [الليل:١٧-٢١].

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ يبعد عن عذابها ﴿الْأَتْقَى﴾ بمعنى التقي[(١)]، فالمؤمن الذي يقوم بالأعمال الصالحات ستكون له النجاة من العذاب الدنيوي والأخروي، وحينما يحل العذاب بقوم ظالمين، فإن الله ينجي الذين ينهون عن السوء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف:١٦٥].

ومن ثمار الإخلاص النجاة من العذاب، قال الله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر:٦١].

ومنها أن الله عز وجل ضمن لمن اتقاه أن لا يخاف مما يستقبل، ولا يحزن على ما مضى، فقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا

---

(١) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، ص ٨١١

﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٣٥].

وإن مما يدلل على أهمية هذا الأمر أن دعاة الحق والإيمان والسنة، حينما يدعون الناس وأنفسهم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإلى الاقتداء بمنهج السلف الصالح في كل أمورهم العلمية والعملية، فإنهم إنما يدعون الأمة إلى الدواء الذي يشفي بإذن الله تبارك وتعالى من كل داء، ويكفي عن كل علاج؛ إنه الدواء الذي يستأصل جميع الأمراض من قلوب العباد وأمراض الأمم عامة، ويمنع أسباب الانهيار التي يتعرض لها الفرد أو تتعرض لها الأمة، مما يحقق لها النجاة من العذاب في الآخرة.

٢. الدرجات العليا في الجنة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه:٧٥-٧٦].

يقول الطبري في تفسيره: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ موحدًا لا يشرك به، ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول: قد عمل ما أمره به ربه، وانتهى عما نهاه عنه، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ يقول: فأولئك الذين لهم درجات الجنة العلى.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾.

يقول تعالى ذكره: ومن يأته مؤمنًا قد عمل الصالحات، فأولئك لهم الدرجات العلى، ثم بين تلك الدرجات العلى ما هي، فقال: هن ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ يعني: جنات إقامة لا ظعن عنها ولا نفاد لها ولا فناء، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يقول: تجري من تحت أشجارها الأنهار، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها إلى غير غاية محدودة؛ فالجنات من قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ مرفوعة بالرد على الدرجات[1].

فلا بد للمؤمن أن يتطلع دائمًا إلى الدرجات العلا، وأن يجعل هدفه في الحياة هو رضى الله عز وجل، والعمل من أجل الفوز بالجنة، أو بالأحرى الفوز بالفردوس الأعلى، وأن يعمل ما استطاع جاهدًا على تحقيق هذه الأهداف السامية.

موضوعات ذات صلة:

التوحيد، الرياء، الشرك، الصدق

(١) جامع البيان، ١٨/ ٣٤٢.





عناصر الموضوع



مفهوم الأخوة

أولًا: المعنى اللغوي:

الأخ: أصله أخو بالتحريك؛ لأنه جمع على آخاء مثل آباء، والذاهب منه واو؛ لأنك تقول في التثنية أخوان... وقد يتسع فيه فيراد به الاثنان؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء:١١].

وهذا كقولك: إنا فعلنا، ونحن فعلنا، وأنتما اثنان، وأكثر ما يستعمل الإخوان في الأصدقاء، والإخوة في الولادة(١).

والأخ -في الحقيقة- هو: كل من جمعك وإياه صلب أو بطن، ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في الصنعة أو في معاملة أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات، والأخت كالأخ، وقيل: الإخوة جمع الأخ من النسب، والإخوان جمع أخ من الصداقة(٢).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تقدم معنا أن الأخ هو كل من جمعك وإياه صلب أو بطن ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في الصنعة أو في معاملة أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات والأخت كالأخ.

والذي يهمنا هو تعريف الأخوة بمعناه العام وهي أخوة النسب، وفي القرآن الكريم بمعنى خاص وهي الأخوة الإسلامية.

فالأخوة عمومًا دون تخصيص:

هي: مشاركة شخص لآخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع، ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صنعة أو في معاملة أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات(٣).

والأخوة هي الميثاق الذي يربط بين الأفراد، وهذا معنى عام فهي ربط بين الأقرباء وغيرهم بأي نوع من أنواع الصلة بينهم.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٨/ ١٤١.
(٢) الكليات، الكفوي ص ٦٣.
(٣) نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٢/ ٩٢.



الأخوة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أخو) في القرآن (٩٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٦٠	﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٧٧]
المثنى	٢	﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٣]
الجمع	٣٤	﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات:١٠]

وجاءت الأخوة في القرآن على ستة أوجه[٢]:

أحدها: الأخ من الأب والأم أو من أحدهما: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾[النساء:١١]. يعني: الأخ من النسب.

الثاني: أخوة القبيلة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف:٦٥]. يعني: منهم.

الثالث: الأخوة في الدين: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠]. يعني: في الدين.

الرابع: الأخوة في المودة والمحبة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الحجر:٤٧].

يعني: جمعتهم المودة والمحبة.

الخامس: الصاحب: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾[ص:٢٣]. يعني: صاحبي.

السادس: الشبه: ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[الأعراف:٣٨]. يعني: شبهها.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص ١٤٣٣.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٨٤، ٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخلة:

الخلة لغة:

(الخليل) الصديق والجمع (أخلاءٌ)[١].

وهي أخص من الأخوة[٢].

الخلة اصطلاحًا:

أخوة خاصة لأخ معين من بين سائر الإخوان لشدة الموافقة بينه وبين أخيه. وهي أعلا مراتب المحبة[٣].

الصلة بين الأخوة والخلة:

الخلة مرتبة فوق مرتبة الأخوة وغيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء:١٢٥].

والخليل: المخال، وهو الذي يخالك، أي: يوافقك في خلالك، أو يسايرك في طريقك، أو يسد خللك كما تسد خلله، أو يداخلك خلال منازلك وحجبك[٤].

فلشدة قرابته من أخيه والتصاقه به وموافقته ومسايرته ومداخلته؛ صار خليلًا له.

فأما كون الخلة فوق الأخوة فمعناه أن لفظ الخلة: عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة، وتعرفه من قوله صلى الله عليه وسلم: «لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ولكن أخوة الإسلام... الحديث»[٥]؛ إذ الخليل هو الذي يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهرًا وباطنًا[٦].

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد بن علي المقري ١/ ٩٦.
(٢) فتح الباري، العسقلاني ١٠/ ١٥٤.
(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٣٢.
(٤) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٠١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم ٤٦٦، ١/ ١٦٢.
(٦) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ص ٦٥١.



٢ الصداقة:

الصداقة لغة:

الصداقة: صدق الاعتقاد في المودة، وذلك مختص بالإنسان، وقوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشعراء:١٠١]، إشارة إلى قوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف:٦٧] [(١)].

الصداقة اصطلاحًا:

قوة المودة مأخوذة من الشيء الصدق وهو الصلب القوي، وقال أبو علي رحمه الله: الصداقة اتفاق القلوب على المودة، ولهذا لا يقال: إن الله صديق المؤمن كما يقال إنه حبيبه وخليله [(٢)].

الصلة بين الأخوة والصداقة:

قال ابن عباس: الصديق أوكد من القرابة [(٣)].

ورفع الشارع الحرج في الأكل من بيت الصديق؛ لأنه أرضى بالتبسط وأسر به من كثير من ذوي القرابة [(٤)].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٤٨٠.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ١٢١.
(٣) روائع البيان، الصابوني ٢/ ٢١٧.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ٥٥٧.

أنواع الأخوة في القرآن

أولًا: الأخوة في العقيدة:

الأخوة في العقيدة هي أعظم الأخوات كما مر معنا، ويمكن أن نجعلها في قسمين رئيسين:

١. الأخوة بين أهل العقيدة الإسلامية الصحيحة.

والعقيدة التي نريدها: الإيمان الجازم بالله تعالى، وبما يجب له من التوحيد، والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبما يتفرع عن هذه الأصول ويلحق بها مما هو من أصول الدين.

وقد أطلق كثير من السلف على العقيدة الصحيحة اسم «السنة»، وذلك لتمييزها عن عقائد ومقولات الفرق الضالة؛ لأن العقيدة الصحيحة وهي عقيدة أهل السنة والجماعة مستمدة من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، التي هي مبينة للقرآن[(١)].

وقد وردت في ذلك آيات تحمل في مضمونها الأمر المباشر أو الحث أو مدح هذه الأخوة.

بيان حقيقة الأخوة: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

ومن أفضل ما قال المفسرون: وهذه الصورة النظيفة الرضية الواعية، وهي تبرز أهم ملامح التابعين، كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان.

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار- ولم يكونوا قد جاءوا بعد عند نزول الآية في المدينة، إنما كانوا قد جاءوا في علم الله وفي الحقيقة القائمة في هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان- سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة، لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان، مع الشعور برأفة الله ورحمته، ودعائه بهذه الرحمة، وتلك الرأفة، وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود، تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها، في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف، وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب وتتفرد وحدها

(١) تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين ص١٠.

في القلوب، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة، كما يذكر أخاه الحي، أو أشد، في إعزاز وكرامة وحب، ويحسب السلف حساب الخلف، ويمضي الخلف على آثار السلف، صفًا واحدًا وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان، تحت راية الله تغذ السير صعدًا إلى الأفق الكريم، متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم.

إنها صورة باهرة، تمثل حقيقة قائمة كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم، صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها... صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة في طريقها إلى الله، بريئة الصدور من الغل، طاهرة القلوب من الحقد[1].

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضًا.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: ﴿سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] دليل على المشاركة في الإيمان، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين؛ لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضًا، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضرًا وغائبًا، حيًا وميتًا، ودلت الآية الكريمة على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده[2].

إنها أخوة الإيمان، الأخوة التي ليس لها

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٧ وهذا النقل، وإن طال، مهم في هذا الباب لحسن صياغته وجمعه وحلاوة تعبيره.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٠٤.

نظير، وما لنا عنها ولا بها بديل.

كلهم يترحمون على السلف من المؤمنين الذين سبقوهم، ويسلكون طريق الشفقة على جميع المسلمين، ويستغفرون لهم، ويستجيرون من الله أن يجعل لأحد من المسلمين في قلوبهم غلًا، أي: حقدًا، ومن لا شفقة له على جميع المسلمين فليس له نصيب من الدين[(١)].

فهي عامة في جميع التابعين والآتين بعدهم- المهاجرين والأنصار- إلى يوم الدين[(٢)].

وهي أخوة تتوارثها الأجيال من السلف للخلف، بل تدوم إخوتهم إلى مماتهم حتى يجمعهم الله عليها مرة أخرى في دار كرامته أبد الآبدين.

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر:٤٧] وهذا من أعظم كمال اللذات حيث يكون الإنسان خالدًا مخلدًا، وحيث يكون هو وإخوانه ورفقاؤه في ذلك النعيم ليس بين اثنين منهم شحناء، ولا عداوة، ولا حقد، ولا حسد، ولا مخاصمة، وكل هذا من كمال النعيم[(٣)].

لمن تبذل الأخوة؟ الأصل أنها تبذل لكل من قام بالعقيدة الصحيحة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠] أي: الجميع إخوة في الدين[(٤)]، أو تاب مما كان عليه من اعتقاد باطل وعاد للإسلام الحق، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة:١١].

يقول: إن تركوا اللات والعزى، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:١١]. قال ابن زيد: افترضت الصلاة والزكاة جميعًا لم يفرق بينهما وقرأ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١١].

وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: رحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه[(٥)].

وهذا بيان أن يقوموا بكل ما أمر الإسلام به، دون تهاون في حق الله الذي أمرنا به.

فإن تابوا: مما هم عليه من الكفر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين أي: فهم إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، فعاملوهم معاملة الإخوان، وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم ما لا مزيد عليه[(٦)].

ويفهم من مفهوم الآية: أنهم إن لم يقيموا الصلاة لم يكونوا من إخوان المؤمنين،

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٥٦٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٢.
(٣) العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٢٦٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٥٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٢٨.
(٦) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٣٧٠.

ومن انتفت عنهم أخوة المؤمنين فهم من الكافرين؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠][1].

ويدل على أن من أظهر لنا الإيمان وأقام الصلاة وآتى الزكاة فعلينا موالاته في الدين على ظاهر أمره مع وجود أن يكون اعتقاده في المغيب خلافه[2].

٢. أخوة المنافقين وأهل العقائد الفاسدة.

والأصل فيهم أنهم قد اجتالتهم الشياطين، ولعبت بهم يمنة ويسرة هم ومن كان على شاكلتهم، أو تعاون معهم في غيهم.

وأن فريق الكافرين يزيدهم الشيطان غيًا إلى غيهم إذا ركبوا معصية من معاصي الله، ولا يحجزهم تقوى الله، ولا خوف المعاد إليه عن التمادي فيها والزيادة منها، فهم أبدًا في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيدهم أبدًا، لا يقصر الإنسي عن شيء من ركوب الفواحش، ولا الشيطان من مدهم منه[3].

وقد جاءت الآيات التي تحدثت عن أخوتهم السيئة؛ للتحذير منها والتنفير عنها.

ذكر أخوتهم على سبيل الذم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران:١٥٦].

وظاهر من مناسبة هذه الآيات في سياق المعركة، أن هذه كانت أقوال المنافقين الذين رجعوا قبل المعركة، والمشركين من أهل المدينة الذين لم يدخلوا في الإسلام ولكن ما تزال بين المسلمين وبينهم علاقات وقرابات[4].

فينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب، لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٥٦].

أي: سافروا للتجارة ونحوها ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ أي: كانوا في الغزو ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا﴾ أي: في البلد ﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ أي: ما ماتوا في السفر، وما قتلوا في الغزو[5].

فهم بكفرهم هذا ليسوا بإخوان، ومع

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٤٧.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٢٧٤ .
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٥٧.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٩.

ذلك فأخوتكم فيما بينكم ليست على طريقتهم.

فلا تكونوا كالمنافقين الذي ينهون إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله والضرب في الأرض في طاعة الله وطاعة رسوله، ويقولون إذا ماتوا أو قتلوا: لو أطاعونا ما ماتوا وما قتلوا[(١)].

فأخوة المؤمنين واضحة المعالم، وأخوة غيرهم سراب بقيعة لا حقيقة له.

بيان زيف أخوتهم، وأنه اجتماع وقت للإضرار بالمؤمنين:

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: ١١].

يعني بني النضير، وأخوتهم معهم أخوة دين واعتقاد، أو أخوة صداقة وموالاة؛ لأنهم كانوا معهم سرًا على المؤمنين[(٢)].

ولما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين، ذكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المقاولة لتعجيب المؤمنين من حالهم، فقال: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [الحشر: ١١] والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لكل من يصلح له، والذين نافقوا هم: عبد الله بن أبي وأصحابه، وجملة: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحشر: ١١]. مستأنفة لبيان المتعجب منه، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار، وجعلهم إخوانًا لهم لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان في الكفر[(٣)].

فقولهم هذا: لإخوانهم الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر، ولأنهم كانوا يوالونهم ويواخونهم، وكانوا معهم على المؤمنين في السر[(٤)].

فأثبت الله أن لهم أخوة؛ لكنها ليست على مرضات الله وليست كما وجه إليها رسوله صلى الله عليه وسلم؛ بل هي مغايرة لذلك تمامًا.

فهذه الأخوة قامت على الكفر بالله، ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم، والإضرار بعباد الله المؤمنين، فلسيت بأخوة على الحقيقة بل لها اشتراك لفظي كما يقال، ولقد ذكرت بصورتها البشعة؛ ليجتنبها عباد الله المؤمنين في أخوتهم، فأخوتهم قائم على أمر الله ورسوله.

ثانيًا: الأخوة في النسب:

أصل الأخوة النسب كما سبق، وأخوة

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٩٠.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٨٢.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٧١.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٨٢.

النسب إما لأشقاء أو غير أشقاء، ومن الآيات التي وردت في ذلك:

ذكر العلاقة بين الإخوة في النسب عمومًا:

قال تعالى -حاكيًا عن أهوال يوم القيامة-: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ [عبس: ٣٤].

وبدأ بالأخ، ثم بالأبوين؛ لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين؛ لأنهم أقرب وأحب[(١)].

فالأخ ليس أحب إلى أخيه من والديه؛ إنما الاعتماد عليه في المهمات أكثر منهما.

قال قتادة: الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب من هول ذلك اليوم[(٢)].

وهذا الترتيب في الأهل يتناسب مع سياق الآيات، ففي سورة عبس المشهد هو مشهد الفرار يخلو المرء بنفسه ويفر المرء أولًا من الأبعد إلى الأقرب إلى قلبه، يفر أولًا من أخيه ثم من أمه وأبيه ثم من صاحبته وبنيه الذين هم أقرب الناس إلى قلبه، أما في سورة المعارج فالمقام مقام عذاب وليس فرار؛ فيرى المرء مشهد عذاب فوق ما تصوره ولا يقبل المساومة فيبدأ يفدي نفسه بالأقرب إلى قلبه ثم الأبعد؛ لذا بدأ ببنيه أعز ما عنده ثم صاحبته وأخيه ثم فصيلته ثم من في الأرض جميعًا[(٣)].

فهم إخوة أشقاء، أو إخوة لأب، أو إخوة لأم؛ فيجتمعون في إخوة النسب.

حكم يعم الإخوة جميعًا وهو بيان للمحرمات عليهم من النساء:

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ٢٣].

عن ابن عباس قال: يحرم من النسب سبع ومن الصهر سبع، ثم قرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣] فهذه النسب[(٤)].

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء كما هو نص الآية الكريمة[(٥)].

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ١٨٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٩٩٣.

(٣) لمسات بيانية، السامرائي ١/ ٦٩٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٩١١.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٦.

فكل هؤلاء اللواتي سماهن الله تعالى وبين تحريمهن في هذه الآية، محرمات، غير جائز نكاحهن لمن حرم الله ذلك عليه من الرجال، بإجماع جميع الأمة[1].

فتحرم الأخوات، وبنات الأخ وبنات الأخت أبدًا.

بل يحرم الجمع بين أختين، وحكمته دفع الغيرة عمن يريد الشرع بقاء تمام المودة بينهما، وقد علم أن المراد الجمع بينهما فيما فيه غيرة، وكذلك في التسري[2].

تجريم الضرر بالأخ من النسب أو غيره:

فحرم الله القتل بين المؤمنين وشنعه بقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

وكان قصة ذلك قتل أحد ابني آدم لأخيه، وتحيره في مواراته ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة:٣١].

يقول تعالى مبينًا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور، وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله، بغيًا عليه وحسدًا له، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين... وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن[3].

فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه، وليجيش خاطر القتل في نفسه! فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة في هذا المجال... مجال العبادة والتقرب[4].

والأصل أنه لا يجوز الإتيان بشيء يضر بحقوق الأخ القريب أو البعيد.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند[5].

ثالثًا: الأخوة من الرضاعة:

كما أن الأخوة من النسب، فهي كذلك من الرضاع ولها الحكم ذاته، والذي ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٦٦٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٣٠١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٧٩.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٣٥٠.
(٥) الحيوان، الجاحظ ٣/ ٤٩٦.

﴿مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء:٢٣].

فقوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ وهي الأخت لأب وأم، التي أرضعتها أمك بلبان أبيك؛ سواء أرضعتها معك أو ولدت قبلك أو بعدك، والأخت من الأب دون الأم، التي أرضعتها زوجة أبيك، والأخت من الأم دون الأب، التي أرضعتها أمك بلبان رجل آخر... وهما محرمتان بالقرآن، ولم يذكر من المحرم بالرضاعة في القرآن سواهما، والأم أصل والأخت فرع؛ فنبه بذلك على جميع الأصول والفروع[(١)].

والأبناء ثلاثة: ابن نسب، وابن رضاع، وابن تبن.

فأما ابن النسب فمعلوم، ومعلوم حكمه.

وأما ابن الرضاع فيجري مجرى الابن في جملة من الأحكام معظمها التحريم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»، و ابن التبني كان في صدر الإسلام ثم نسخ[(٢)].

فنص في هذه الآية على حرمة الأمهات والأخوات من جهة الرضاعة إلا أن الحرمة غير مقصورة عليهن؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) وإنما عرفنا أن الأمر كذلك بدلالة هذه الآيات، وذلك لأنه تعالى لما سمى المرضعة أمًا والمرضعة أختًا؛ فقد نبه بذلك على أنه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب، وذلك لأنه تعالى حرم بسبب النسب سبعًا:

- اثنتان منها هما المتسبتان بطريق الولادة وهما الأمهات والبنات.
- خمس منها بطريق الأخوة وهو الأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت.

ثم إنه تعالى لما شرع بعد ذلك في أحوال الرضاع ذكر من هذين القسمين صورة واحدةً تنبيهًا بها على الباقي، فذكر من قسم قرابة الولادة الأمهات ومن قسم قرابة الأخوة الأخوات، ونبه بذكر هذين المثالين من هذين القسمين على أن الحال في باب الرضاع كالحال في النسب، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أكد هذا البيان بصريح قوله: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[(٣)] فصار صريح الحديث مطابقًا لمفهوم الآية وهذا بيان لطيف[(٤)].

ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء:٢٣].

فكل أقارب الأم المرضع أقارب

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٧٤.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٨٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، رقم ٢٦٤٥، ٢/ ٧٩٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٢٥.

للرضيع، فالمرضعة تصبح أمًا للرضيع، وبنتها أخته، وزوجها أبوه، وأولادها إخوته[1].

قلت: وكذلك ما تفرع عنهن أو تفرع عنه، فانظر لجلال الله وجمال شريعته.

وأثبت تعالى الأخوة بين بنات المرضعة وبين المرضع والحرمة بينهما مطلقًا من غير فصل بين أخت وأخت، وكذا بنات بناتها وبنات أبنائها وإن سفلن؛ لأنهن بنات أخ المرضع وأخته من الرضاعة، وهن يحرمن من النسب كذا من الرضاعة، ولو أرضعت امرأة صغيرين من أولاد الأجانب صارا أخوين لكونهما من أولاد المرضعة فلا يجوز المناكحة بينهما إذا كان أحدهما أنثى، والأصل في ذلك أن كل اثنين اجتمعا على ثدي واحد صارا أخوين أو أختين أو أخًا وأختًا من الرضاعة[2].

والمرضوع يصبح ولدًا لزوج المرضعة، فلو عنده أولاد من زوجة أخرى أصبح المرضوع أخًا لهم؛ فيجري بينهم ما للرضاع من أحكام.

والأصل في هذا ما ذكره ابن كثير بقوله: ذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم.

قال الترمذي[3]: «باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين»: حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة، عن هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل الفطام»، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم: أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئًا[4].

وعددها: خمس رضعات عن أكثر أهل العلم، وفيه أقوال في كتب الفقه.

ورضاع الكبير: منسوخ عند فقهاء الأمصار[5].

فتكون الأخوة من الرضاع: ما كانت في الحولين الأولى من الحياة، ويبلغ عددها خمسًا فأكثر، ولا اعتبار برضاع الكبير؛ لأن الحكم فيه منسوخ.

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٣١٢.
(٢) بدائع الصنائع، الكاساني ٤/ ٢.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان في الصغر، رقم ١١٥٢، ٣/ ٤٥٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦١.
(٥) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٦٧.

رابعًا: الأخوة في الأوطان والعشيرة:

جاء ذكر الأخوة في القرآن الكريم بمعنى أخوة الأوطان والديار، وهي من حقوق الجوار كذلك التي نبه عليها الإسلام، وجعلها حقًا من حقوق الأخوة.

فهم إخوة قوم أو عشيرة ديارهم واحدة ومساكنهم متقاربة، ومنه قول قريط[1]:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

ويمكن تقسيمها كالتالي:

١. أخوة الأوطان:

وفي القرآن الكريم وردت بهذا المعنى آيات قليلة وإن كانت في حق الأنبياء.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١﴾ [الشعراء:١٦١].

وجعل لوط أخًا لقومه ولم يكن من نسبهم وإنما كان نزيلًا فيهم، إذ كان قوم لوط من أهل فلسطين من الكنعانيين، وكان لوط عبرانيًا وهو ابن أخي إبراهيم ولكنه لما استوطن بلادهم وعاش فيهم وحالفهم وظاهرهم جعل أخًا لهم[2].

ولذا قال الله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣﴾ [ق:١٢-١٣].

ومن ذلك ما ذكره الله عن هود عليه السلام: فقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾ [الأعراف:٦٥].

أخاهم بمعنى: واحدًا منهم كما يقولون: (يا أخا العرب) وإنما أرسل منهم؛ لأنهم أفهم لقوله من قول غيره، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله، وأرغب في اقتفائه[3].

وكذلك قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠﴾ [هود:٥٠].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤﴾ [الشعراء:١٢٤].

أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، قال ابن عباس: أي: ابن أبيهم، -وتقدم أنه ليس كذلك- وقيل: أخاهم في القبيلة، وقيل: أي: بشرًا من بني أبيهم آدم، وفي مصنف أبي داود أن أخاهم هودًا صاحبهم[4].

وسماه أخًا تنبيهًا على إشفاقه عليهم شفقة الأخ على أخيه، وعلى هذا قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف:٧٣].

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف:٦٥].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف:٨٥][5].

(١) العقد الفريد، ابن عبدربه ٣/ ١٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٧٨.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٨، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١١٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٦.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٦٨.

فأخوة الأوطان تحمل الأخ على العيش مع إخوانه في ديارهم، وتقديم الخير لهم، ورفع الضر عنهم، والتعاون معهم، ودفع الصائل عنهم، فله ما لهم وعليه ما عليهم، وهذا ما نبه عليه الإسلام في اهتمامه الأعظم بحقوق الجار خاصة إن كانوا مسلمين أقرباء.

٢ . أخوة العشيرة:

وأخوة العشيرة[١] هي أخوة نسب لكنها ليست الأخوة المعتادة، فتكون بين الأشقاء أو غير الأشقاء أو بين الرضعاء، أو أبناءهم مجتمعين في عشيرة واحدة.

والعشيرة تنقسم فيها فخوذ الناس على مراتب النسب، وتكون نسبتها لأب مشهور من نسل والد قديم أشهر منه، وتطلق على قوم تعاشروا في ظروف معينة وكانت بينهم أمور تجمعهم.

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذر عشيرته الأقربين، أي: الأدنين إليه[٢]، فلما دعاهم دعا عشيرته الذي ينتمي وإياهم إلى جد واحد، فخص الأقربين؛ لأن الاهتمام بشأنهم أولى، وهدايتهم إلى الحق أقوم[٣].

ويمكن الاعتماد في هذا الجزء على البيان المتقدم في أخوة النسب.

(١) العشيرة: الجماعة أو القبيلة.
وقيل: الأدنى إلى الرجل من أهله، وهم ولد أبيه وجده.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٥٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٦٣ .

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٨ .

أحكام وعلاقات مرتبة على الأخوة

أولًا: الميراث:

من أعظم ما جاء به الإسلام قضية الميراث، بل وصل من حب الأخوة المؤمنين في بداية الإسلام أن يرث الأخ في الله أخاه، خاصة الذين آخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، ثم نسخ ذلك.

ولا ميراث للإخوة والأخوات مطلقًا مع الابن أو ابن الابن أو الأب وفي ميراثهم مع الجد خلاف، ويورثون مع البنات إلا الإخوة لأم ويسقط الأخ لأب مع الأخ لأبوين[(١)].

وفي بيان ذلك يقول الله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ١٢].

(١) انظر: الدراري المضيئة، الشوكاني ٢/ ٤٢٩.

يعني بقوله جل ثناؤه: «وله أخ أو أخت»، وللرجل الذي يورث كلالة أخ أو أخت، يعني: أخًا أو أختًا من أمه[(٢)].

وقوله تعالى: وله أخ أو أخت أي: من أم كما هو في قراءة بعض السلف، منهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكذا فسرها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فيما رواه قتادة عنه فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث[(٣)].

وميراث الأخوة له تفاصيل مرتبة عند الفقهاء وعلماء الفرائض.

فلم يجز أن يقطع على مراد الله تعالى إلا بالإجماع المتيقن الثابت إذا لم نجد نصًا مفسرًا؛ فوجب بهذا أن لا يرث الإخوة كيف كانوا، إلا حيث يعدم كل من ذكرنا، إلا أن يوجب ميراث بعضهم نص صحيح فيوقف عنده، وليس ذلك إلا في موضعين فقط: وهو الأخ الشقيق، أو للأب مع الابنة فصاعدًا، وأخت مثله معه فصاعدًا، ما لم يستوف البنات الثلثين، والموضع الثاني: الأخت كذلك مع البنت، أو البنات حيث لا عاصب للميت فقط وبالله تعالى التوفيق[(٤)].

وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم، وميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب مذكور في قوله عز وجل:

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٦٢٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤١٧.
(٤) انظر: المحلى، ابن حزم ٨/ ٢٨٥.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء:١٧٦].

فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف، والباقي من الثلثين للأخت أو الأخوات لأب وهو السدس تكملة الثلثين، وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين سقط الأخوات للأب كما تقدم في البنات وبنات الابن، وإن كان الإخوة رجالًا ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين[(١)].

وللأخ ميراث من أخيه معروف عند علماء الفرائض، وذلك لقوة الصلة بين الإخوة ومراعاة الإسلام لحالها بعد وفاة أحدهما.

ثانيًا: حرمة النكاح:

حرم القرآن الكريم نكاحًا وأحل آخر -ولا يحل إلا طيبًا- لترتيب التعايش بين المؤمنين، وأهم ما حرم نكاحه بين الأخوة ما ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء:٢٣].

فكانت المحرمات -بالأخوة- على الأخ بلفظ الآية ما يأتي:

١. الأخوات: من أم أو أب أو منهما[(٢)].
٢. أخوات الأب والأم وهما العمة والخالة: فإن العمة والخالة بمنزلة الأم[(٣)].
٣. بنات الأخ وفروعها: شقيقًا كان أو غير شقيق.
٤. بنات الأخت وفروعها: شقيقة أو غير شقيقة.

ولفظ البنات: شامل لبنات البنات وبنات بناتهن وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين، وهو نص قرآني صحيح في استواء بنات بنيهن وبنات بناتهن[(٤)].

١. الأخت من الرضاعة و ما تفرع عنها: وهي التي أرضعتها أمك بلبان أبيك، سواء أرضعتها معك أو مع من قبلك أو بعدك من الإخوة والأخوات[(٥)]،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٠.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٦٦.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٦٣٨.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٠٥.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٧١٤.

قلت: وكذلك من رضعت من أمها وإن سفلت.

٢. الجمع بين أختين: في الوطء بنكاح أو ملك يمين من نسب أو رضاع، لما فيه من قطيعة الرحم إلا ما قد سلف في الجاهلية فإنه معفو عنه[١].

ومن أعظم وأروع دلالات الحب التي وردت في هذا الباب، حب لم يقتصر في رجال المسلمين فحسب، بل فهمته نساؤهم كذلك، حتى بذلت الأخت المسلمة لأختها في النسب أو غيره من الخير أمورًا فاقت علاقات الأمم جميعًا.

فقد ورد أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله؟ هل لك في أختي؟ قال: «فأفعل ماذا؟» قالت: فتنكحها، قال: «أختك؟» قالت: نعم، قال: «أو تحبين ذاك؟» قالت: لست بمخلية بك، وأحب من شركني في خير أختي، قال: «فإنها لا تحل لي» قالت: فوالله لقد أخبرت أنك تخطب درة - أو ذرة -(شك زهير)، بنت أبي سلمة، قال: «بنت أم سلمة؟» قالت: نعم، قال: «أما والله لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأباها ثويبة، فلا تعرضن علي بناتكن، ولا أخواتكن»[٢].

والمحرمون -بالأخوة- على الأخت بمفهوم الآية ما يلي:

١. الأخ وأبناؤه: شقيقًا أوغير شقيق وكذلك من الرضاعة.

٢. إخوة أبيها: من النسب أو الرضاع.

٣. إخوة أمها: من النسب أو الرضاع.

٤. كل أصل وفرع من طريق الأخ يحرم بالنسب أو الرضاع.

لقد حث القرآن الكريم على الأخوة ولم يتركها هملًا، بل شيد لها أعظم بنيان ثابت الأركان، فلن تجد فيه أمرًا أو نهيًا إلا لتكون هذه الأخوة دائمة الوصال محكمة الحبال، تجمع أحبابها لينعموا في ظل كبير يسمى «الأخوة الإسلامية».

ثالثًا: الإصلاح بين الإخوان:

وأول الإصلاح ما هيأه الله سبحانه من إصلاح حال عباده المؤمنين بفضله وبرحمته، فإنه قال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

يعني: فأصبحتم بتأليف الله عز وجل بينكم بالإسلام وكلمة الحق، والتعاون على نصرة أهل الإيمان، والتآزر على من خالفكم من أهل الكفر، إخوانًا متصادقين، لا ضغائن

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٧٣.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، رقم ٢٠٥٦، ٢/ ٣٧٧.

بينكم ولا تحاسد[1].

وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحن، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام، فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣].

إلى آخر الآية، وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان، وقد امتن عليهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قسم غنائم حنين، فعتب من عتب منهم، بما فضل عليهم في القسم، بما أراه الله فخطبهم فقال: (يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟) فكلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن[2].

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام -من الركيزة الأولى- أساسها الاعتصام بحبل الله -أي: عهده ونهجه ودينه- وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، ولا على أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة! قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائمًا، وهو هنا يذكرهم هذه النعمة[3].

ومتى ما حصل لهذه الأخوة خلل أو خدش يخشى تفاقمه أوجب الله على جميع المؤمنين السعي بالصلح بين المؤمنين جماعات وفرادى.

فقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑨ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ⑩﴾ [الحجرات:٩-١٠].

يقول تعالى ذكره: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٥٣. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم ٤٣٣٠، ٣/ ١٣٠٦.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٤٢.

﴿عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ يقول: فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله له، وعليه وتعدت ما جعل الله عدلًا بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي﴾ يقول: فقاتلوا التي تعتدي، وتأبى الإجابة إلى حكم الله ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يقول: حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ يقول: فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها بالعدل: يعني بالإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلًا بين خلقه[1].

ويقول تعالى ذكره لأهل الإيمان به ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله وحكم رسوله، ومعنى الأخوين في هذا الموضع: كل مقتتلين من أهل الإيمان، وبالتثنية قرأ قراء الأمصار، وذكر عن ابن سيرين أنه قرأ بين إخوانكم بالنون على مذهب الجمع، وذلك من جهة العربية صحيح، غير أنه خلاف لما عليه قراء الأمصار ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وخافوا الله أيها الناس بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين المقتتلين من أهل الإيمان بالعدل، وفي غير ذلك من فرائضه، واجتناب معاصيه، ليرحمكم ربكم، فيصفح لكم عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، واتقيتموه بطاعته[2].

تنبيهات:

الأول: الاقتتال لا يكون إلا للميل إلى الدنيا، والركون إلى الهوى، والانجذاب إلى الجهة السفلية، والتوجه إلى المطالب الجزئية، والإصلاح إنما يكون من لزوم العدالة في النفس التي هي ظل المحبة، التي هي ظل الوحدة، فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما، على تقدير بغيهما، والقتال مع الباغية على تقدير بغي إحداهما، حتى ترجع؛ لكون الباغية مضادة للحق، دافعة له.

الثاني: في الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغي، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل، لقوله حتى تفيء.

الثالث: في الآية فوائد: منها أنهم لم يخرجوا بالبغي عن الإيمان، وأنه أوجب قتالهم، وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم، وإجازة كل من منع حقًا عليه، ووجوب معاونة من بغي عليه، لقوله: ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾ [الحجرات:٩].

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٨٦.

(٢) المصدر السابق، ١١/ ٣٨٩.

وعلى وجوب تقديم النصح، لقوله: فأصلحوا بينهما، وعلى السعي في المصالحة، وذلك ظاهر.

الرابع: وجه الجمع في اقتتلوا، مع أنه قد يقال: مقتضى الظاهر (اقتتلتا) هو الحمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس، والنكتة في اعتبار المعنى أولًا، واللفظ ثانيًا عكس المشهور في الاستعمال، ما قيل: إنهم أولًا في حال القتال مختلطون مجتمعون، فلذا جمع أولًا ضميرهم، وفي حال الإصلاح متميزون متفارقون، فلذا ثنى الضمير ثانيًا وسر قرن الإصلاح الثاني بالعدل، دون الأول؛ لأن الثاني لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة، أو لإبهام أنهم لما أحوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم[1].

وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين[2].

والمراد بالناس المرغب في الإصلاح بينهم في قوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤] هم المسلمون خاصة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠].

وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩].

فتخصيصه المؤمنين بالذكر يدل على أن غيرهم ليس كذلك كما هو ظاهر[3]، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١] يدل على أن من رجا صلاح ما بين متعاديين من المؤمنين أن عليه الإصلاح بينهما[4].

و﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، أي: لا أخوة إلا بين المؤمنين، وأما بين المؤمن والكافر فلا؛ لأن الإسلام هو الجامع ولهذا إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين ولا يكون لأخيه الكافر، وأما الكافر فكذلك؛ لأن في النسب المعتبر الأب الذي هو أب شرعًا، حتى أن ولدي الزنا من رجل واحد لا يرث أحدهما الآخر، فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لا يفيد الأخوة، ولهذا من مات من الكفر- أي: أهل الكفر- وله أخ مسلم ولا وارث له من النسب لا يجعل ماله (أي: لا يترك إرثه ليتقوى به الكفار فيأخذه أخوه المسلم لا للإرث ولكن لينفق في مصالح المسلمين غير المحترمة والله أعلم) للكفار، ولو كان

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٢٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٤٣.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٠٧.
(٤) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢٨٥.

الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار، كما أن مال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث، فإن قيل: قد ثبت أن الأخوة للإسلام أقوى من الأخوة النسبية، بدليل أن المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الأخ الكافر من النسب، فلم لم يقدموا الأخوة الإسلامية على الأخوة النسبية مطلقًا حتى يكون مال المسلم للمسلمين لا لأخوته من النسب؟ نقول: هذا سؤال فاسد؛ وذلك لأن الأخ المسلم إذا كان أخًا من النسب فقد اجتمع فيه أخوتان فصار أقوى والعصوبة لمن له القوة، ألا ترى أن الأخ من الأبوين يرث ولا يرث الأخ من الأب معه فكذلك الأخ المسلم من النسب له أخوتان فيقدم على سائر المسلمين، والله أعلم[1].

وقد قال ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى مكان كذا وكذا، أو فعل كذا وكذا، فله كذا وكذا» فتسارع إليه الشبان، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما فتح الله عليهم، جاؤوا يطلبون ما قد جعل لهم النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لهم الأشياخ: لا تذهبون به دوننا، فإنا كنا ردءًا -أي: معينين- لكم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١][2].

ولو اختصم الإخوة ولم يعلم بهم أحد ولم يصلوا إلى نتيجة، فينبغي عليهم البحث عن المصلحين وإشهار القضية فيهم ليتمكنوا من الإصلاح فيها، وهذا كما ذكره الله -عن المختصمين الذين جاءا داود عليه السلام ليصلح بينهم- بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص:٢٣].

فنص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضائها عدم البغي، وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره[3].

والمراد أخوة الدين، أو أخوة الصداقة والألفة، أو أخوة الشركة والخلطة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [ص:٢٤].

كل واحدة من هذه الأخوات تدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم[4].

والأصل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأمته منهج الأخوة الصحيح، بأسهل الأمور ابتداءً من طلاقة الوجه، إلى نهيه عن المعاملات التي تضر بالأخوة ليكونوا عباد الله إخوانًا، فجعل في هذا قاعدة أساسية ذكرها بقوله صلى الله عليه وسلم: (سباب المسلم فسوق، وقتاله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٨٣.
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الصلح، ذكر السبب الذي من أجله أنزل الله (وأصلحوا ذات بينكم)، رقم ٥٠٩٣، ١١/ ٤٩١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٣٦.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٣.

كفر)[1].

وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم حقوق الأخوة بين المسلمين في حرمة دمائهم وأعراضهم وأموالهم يوم النحر فكانت قاعدة عظيمة يسير عليها أهل الإيمان في إخوتهم، ويحافظ عليها جميع المسلمين في تعاطفهم ومودتهم[2].

خامسًا: الولاء والنصرة:

مما لا شك فيه أن الأخوة أصل الولاء، وقد بيَن الله الولاء الحقيقي ولمن يكون فقال عز وجل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة:٢٢].

فلا تجد يا محمد قومًا يصدقون الله، ويقرون باليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله وشاقهما وخالف أمر الله ونهيه ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ يقول: ولو كان الذين حادوا الله ورسوله آباءهم ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[3].

ووردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء، وهذا النهي الأكيد، والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد، من إيراده الإنشاء[4].

فكأنك تقول: إن هذا بين الإخوة يكون أو لا يكون إن كان خبرًا، لكنه جاء بلفظٍ إنشائي يفيد النفي، وهو أن المؤمن الحق لا يواد أخاه في شيء مع محادته لله عز وجل.

فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان: إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان، والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان، فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد، ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يوم بدر، وهمَ الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم، متجردين من علائق

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم ٤٨، ١/ ٤٠.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ٢١٤.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٥٧.

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٥٦٦.

الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة، وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله[1].

فهذا أصل في الولاء والنصرة وأنها كائنة بين العشيرة ومنهم الإخوان، شريطة الإيمان بالله واليوم الآخر، ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب:٥].

يقول الله تعالى ذكره: انسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم لآبائهم، يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألحق نسب زيد بأبيه حارثة، ولا تدعه زيد بن محمد.

وقوله: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يقول: دعاؤكم إياهم لآبائهم هو أعدل عند الله، وأصدق وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم ونسبتكم لهم إلى من تبناهم وادعاهم وليسوا له بنين، فعن قتادة في قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي أعدل عند الله.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فإن أنتم أيها الناس لم تعلموا آباء أدعيائكم من هم فتنسبوهم إليهم، ولم تعرفوهم، فتلحقوهم بهم، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ يقول: فهم إخوانكم في الدين، إن كانوا من أهل ملتكم، ومواليكم إن كانوا محرريكم وليسوا ببنيكم[2].

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى، المتضمنة للقول الباطل فقال: ﴿ٱدْعُوهُمْ﴾ أي: الأدعياء ﴿لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعدل، وأقوم، وأهدى.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ الحقيقيين ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي: إخوتكم في دين الله، ومواليكم في ذلك، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والموالاة على ذلك، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم، لا يجوز فعلها.

وأما دعاؤهم لآبائهم، فإن علموا، دعوا إليهم، وإن لم يعلموا، اقتصر على ما يعلم منهم، وهو أخوة الدين والموالاة، فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم، عذر في دعوتهم إلى من تبناهم؛ لأن المحذور لا يزول بذلك[3].

فالنصرة والولاء للأخوة في الدين، أما ما عداهم فلا أخوة لهم ولا نصرة ولا ولاء، والباب متسع للجميع؛ لأن المؤمنين

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ١٥٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٣.

والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.

ولو لم يعلم آباؤهم فهم إخوة في الدين؛ لأن هذه الأخوة كفى بها شرفًا، ويكفي المؤمنين هذه العزة التي من الله بها عليهم.

العلاقات الاجتماعية بين الإخوة

ذكر القرآن الكريم -من خلال الحديث عن الأخوة والعلاقات التي تكون بين الإخوة- أمورًا بين فيها بعض الأحكام التي تضبط العلاقات الاجتماعية وتجعلها تسير بيسر وسهولة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

أي: لأن هؤلاء محارمهن الذين تؤمن الفتنة من قبلهم[١].

وكل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج[٢].

فالإخوان ها هنا: أشقاء، أو لأب، أو

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٩٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٠٦.

لأم[1]،أو بالرضاع؛ لأنه لم يحدد الأخوة بالنسب، فيدخل الإخوة من الرضاع فيهم.

فيجوز للمرأة أن تكشف على أخيها وأبنائه وأبناء أخواتها ولو سفلوا؛ لأنهم في الحكم سواء وهم محارم المرأة في هذه الحالة، وهذا لرفع الحرج عنهم وعنهن ولاحتياج ذلك في الزيارات والمناسبات ولقاء بعضهم البعض.

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور:٦١].

كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه، فتتحفه المرأة بشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم[2].

ولما علم بالعادة أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب[3]، أباح الله لهم الأكل في بيوتهم متى أرادوا.

وهؤلاء معروفون[4]، فهم أهل بيت واحد وإن تباعدت بهم الديار.

وكذلك في شأن الحجاب قال الله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [الأحزاب:٥٥].

فلما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم[5]؛ لأنهم ذوو أرحام أصيلة وأخوة صحيحة.

ولما نزلت آية الحجاب شق عليهن- نساء النبي صلى الله عليه وسلم- وعلى النسوان وعلى الرجال في الاستتار، فأنزل الله عز وجل هذه الآية للرخصة في نظر هؤلاء إلى النساء، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة[6].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٢٤.
(٣) تفسير المراغي ٦/ ١٣٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٠٠.
(٦) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ١٦٩.

فوائد من قصص الإخوة في القرآن

أولًا: قصة يوسف وإخوته:

هو: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: من أكرم الناس؟ قال: (أكرمهم أتقاهم)، قالوا: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك، قال: (فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله...) الحديث[(١)].

وهو أحد أبناء يعقوب، وله شقيق واحد، والباقون إخوته من أبيه[(٢)].

مكانته عند والده:

كان يوسف وأخوه بنيامين من أم واحدة، وكان يعقوب شديد الحب ليوسف، وكان إخوة يوسف يرون منه من الميل إليه ما لا يرونه لأنفسهم[(٣)].

وجعلوا أخاه معه في مرتبة الحب عند أبيهم.

وهذا ما جعلهم يحسدون يوسف، وبيَّن الله ما آل إليه أمرهم في الحسد وتشاورهم في التخلص منه، حتى اتفق الجميع على مشورة ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف:١٠].

رؤيا يوسف عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف:٤-٦].

تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلًا سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه... فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغوائل حسدًا منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥].

أي: يحتالوا لك حيلة يردونك فيها[(٤)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (أم كنتم شهداء...)، رقم ٣٣٧٤، ٢/ ١٠٤٢.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ٣٥٠ وقال: «وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم، وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول».

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٥٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٤٧.

وإنما قال يعقوب ذلك؛ لأنه قد كان تبين له من أخوته قبل ذلك حسدًا[1].

فكان ما قرروه من الخروج به، ورميه في البئر، والكذب على والدهم، فتولى الله أمره، فصار معبرًا للرؤى، ومكن الله له في الأرض حتى صار حفيظًا على خزائن مصر ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

وقد نبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا نقع في مثل هذا، فعن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال»[2]، فبيَن لنا أن الوصول إلى الإضرار بالإخوة لا يأتي إلا بالتدرج، فمن تنبه لخطوات الشيطان أول الأمر عاد إلى رشده وعرف حق أخيه، ومن اتبع خطوات الشيطان وترك الهدي القويم ضل عن الحق وتدرجت به الخطوات؛ حتى توصله إلى الإضرار بإخوانه ومخالفة أمر الله ورسوله.

وصول إخوة يوسف عليه السلام ودخولهم عليه:

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون[3] طعامًا، وذلك بعد إتيان سني الجدب وعمومها على سائر العباد والبلاد.

وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية دينًا ودنيا.

فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة، فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ [يوسف:٥٩].

أي: أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته؛ من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه ﴿قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ [يوسف:٥٩].

وكان قد سألهم عن حالهم، وكم هم؟ فقالوا: كنا اثني عشر رجلًا، فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا.

فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم.

﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ [يوسف:٥٩] أي: قد أحسنت نزلكم وقراكم، فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ٦٠﴾ [يوسف:٦٠]

أي: فلست أعطيكم ميرة، ولا أقربكم بالكلية، عكس ما أسدى إليهم أولًا.

---

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٥٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم، رقم ٤٩١٠، ٥/ ١٣٥.

(٣) أي: يأتون بالطعام، والمائر: هو الذي يأتي بالطعام.
انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٣.

فاجتهد في إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف:٦١].

أي: سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن.

﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يوسف:٦١].

أي: وإنا لقادرون على تحصيله.

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة، في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف:٦٣-٦٨][1].

فهذا من أهم ما فعله يوسف مع إخوته دون تجريح، أو شفاء غليل، أو معاملة بالمثل، بل أحسن استقبالهم وجهز متاعهم، ورتب للقاء أخيه الأصغر بكل هدوء وطمأنينة، فهو يعلم أن الله معه وسيوفقه، فعاملهم بما يرضي الله لينال من الله ما يرضيه.

دخولهم على يوسف مع شقيقه:

عندما طلبوا من أبيهم اصطحاب أخيهم للذهاب معهم إلى مصر من أجل الميرة؛ ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

وبعد عهود ومواثيق قبل أبوهم ذلك، وأوصاهم بوصايا تعينهم في السفر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف:٦٩].

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس، أي: لا تأسف

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ٣٨٤.

على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززًا مكرمًا معظمًا[1].

احتواؤه لشقيقه والاجتهاد في إصلاح حال والده:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف:٧٠] وهي خطة منه عليه السلام ليحتوي أخاه بين يديه لأمر قادم.

عن ابن عباس: تعرف إليه أنه أخوه، وهو الظاهر، وهو قول ابن إسحاق وغيره، أعلمه أنه أخوه حقيقة واستكتمه، وقال له: لا تبالي بكل ما تراه من المكروه في تحيلي في أخذك منهم[2].

ويقال: لئن نسب يوسف أخاه للسرقة فقد تعرف إليه بقوله: إني أنا أخوك -سرًا-، فكان متحملًا لأعباء الملامة في ظاهره، محمولًا بوجدان الكرامة في سره[3].

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف:٧٦].

أي: ما صح له أن يأخذ أخاه في قضاء الملك، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق، لإيصال يوسف إلى أربه، رحمة منه وفضلًا، وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك، وإلا، لاستبد بما شاء، وهذا من وفور فطنته وكمال حكمته[4].

﴿۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يوسف:٧٧].

وبهذه الطريقة المحكمة استطاع يوسف احتواء أخيه، وأمرهم كبيرهم أن يعودوا لأبيهم ويخبروه بما حصل وقال عن نفسه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠].

فازداد حزن يعقوب وذكره هذا الحدث بفقدان يوسف من قبل، وكل هذا بسوء التعامل بين الأخوة، و اتباع الشيطان، والكيد بمن آتاه الله من فضله.

فقال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٦٠.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣١٠.
(٣) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ١٩٦.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢١٠.

يوسف يحزن لحال إخوته فيسعفهم:

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة، وقد أضرت بهم المجاعة، ونفدت منهم النقود، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد، يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف:٨٨].

وعند ما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته، فقد انتهت الدروس، وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر لهم على بال، فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم، ولم يطلع عليه أحد إلا الله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:٨٩-٩٠].

مفاجأة! مفاجأة عجيبة، يعلنها لهم يوسف ويذكرهم في إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه في دفعة الجهالة، ولا يزيد سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه، معللًا هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله في الجزاء.

اعتراف الأخوة بالخطأ على أخيهم والتوبة من ذلك:

أما هم فتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف، ويجللهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسنًا إليهم وقد أساؤوا، حليمًا بهم وقد جهلوا، كريمًا معهم وقد وقفوا منه موقفًا غير كريم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف:٩١].

اعتراف بالخطيئة، وإقرار بالذنب، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان، يقابله يوسف بالصفح والعفو وإنهاء الموقف المخجل، شيمة الرجل الكريم، وينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٩٢].

لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم، فقد انتهى الأمر من نفسي ولم تعد له جذور، والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم

الراحمين[1].

فالعزيز الحق عزيز بحق، وليس من عادة الكرام سرعة الانتقام، بل العفو عند المقدرة.

فلما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق -بسبب ما وقعوا فيه من الظلم لأخيهم أولًا ومعصية والدهم لحقدهم عليه- وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرف إليهم[2].

ومهما يكن من غي وسفه، فالاعتراف بالخطأ فضيلة، والرجوع إلى الرشد فلاح.

قبول الأخ لاعتذار إخوته وإكرامهم أينما كانوا:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:٩١] أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريد ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩١].

وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف[3].

فقال لهم: لا تعيير عليكم ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكن لكم عندي الصفح والعفو[4]، وهذه نعمة تحمد، وخلة تدوم، وصفة تلازم، فكانت هذه تيجان خلق مضافة إلى تيجان الملك.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

فلم يقل: «نزغ الشيطان إخوتي» بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد

(١) بتصرف: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٢٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٦٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٩١.

وضمائرهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها[1].

إخوة يقتدى بهم في الإصلاح وحسن العفو:

فلله ما أعظم الحسد في إفساده وداد الإخوان، وما أقبح الولوج في طاعة الشيطان، فمن حرم غيره حقه حرمه الله كذلك، ومن استغنى عن أخيه فقد يحتاج إليه في أصعب اللحظات، ومن قدر على الظفر من إخوانه بعد ظلمهم له فليحسن القضاء، والعظيم يبقى في محله إن لم يزدد رفعة وسموًا، أعطاهم حين منعوه، ووصلهم حين قطعوه، وعفا عنهم بعد إذ ظلموه، وتلك جماع الأخلاق.

جمعها يوسف عليه السلام في أحسن قصص، وجعلها رايات للسائرين، ومنارات للعارفين، ومقامات تنفع العامل بها إلى يوم الدين.

وقد اعترف إخوة يوسف بتعمد خطئهم، فكان دليلًا على صدق التغيير للأفضل.

فقالوا لأخيهم يوسف عليه السلام: إنا كنا -بلا استثناء- أي: والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك، وآثمين في أمرك، والخاطئ: الذي يتعمد الخطيئة[2]، وهذا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٠.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ٥٤.

غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف[3].

وصار هذا منهجًا عمليًا في تطبيق الصحابة رضي الله عنهم، فهم خير سلف لخير خلف.

فعن المعرور بن سويد، قال: مررنا بأبي ذر بالربذة وعليه برد وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: **«يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية»**، قلت: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمه، قال: **«يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»**[4].

قصة موسى وأخيه وهارون ودور أخته في طفولته.

موسى عليه السلام: وهو موسى بن

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، رقم ٣٠، ١/ ١٥.

عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام[1].

وفي بداية عمره وزمان ولادته، علا فرعون في الأرض وطغى على بني إسرائيل «يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين».

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه.

وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها[2].

ولما وضعته أمه؛ قال الله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].

دور أخته الكبرى في حياته:

عن ابن عباس ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١].

أي: قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرًا، أحي ابني أو قد أكلته دواب البحر وحيتانه؟ ونسيت الذي كان الله وعدها، وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:١١] يقول تعالى ذكره: فقصت أخت موسى أثره، فبصرت به عن جنب: يقول فبصرت بموسى عن بعد لم تدن منه ولم تقرب، لئلا يعلم أنها منه بسبيل[3]، قال الله:

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾

[القصص:١٢-١٣].

فكانت أعظم أخت سعت لرد الوليد لوالدته، وأحسنت لأخيها وهو طفل رضيع، فالأخوة باب واسع، للولوج إلى بيت جميل.

بركة موسى على أخيه هارون:

حين كبر موسى عليه السلام، وفر من بلده بعد قتل القبطي، ووصل مدين وتزوج منها، ثم عاد لأرضه أوحى الله إليه أن يدعو فرعون وقومه إلى توحيد الله.

فخاف مما مضى عليه السلام وقال لله: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾ [القصص:٣٤] أي: معينًا لي.

وهارون اسمٌ أعجميٌ غير منصرف،

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٤٥٥.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٤٥٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٧.

وقيل: معرب أرون، والأرن: النشاط، سمي به لنشاطه بالطاعة، ثم قيل: هارون.

وقد سماه الله تعالى في التنزيل بعشرة أسماء تصريحًا وتعريضًا:

١. وزيرٌ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾﴾ [طه:٢٩].

٢. أخٌ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف:١٥١].

٣. رسولٌ: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧].

٤. مرسلٌ: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

٥. نبيٌّ: ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ [مريم:٥٣].

٦. ردءٌ: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا﴾ [القصص:٣٤].

٧. أفصح: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ [القصص:٣٤].

٨. مصدقٌ: ﴿يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ [القصص:٣٤].

٩. خليفةٌ: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ [الأعراف:١٤٢].

١٠. هارون: اسمه.

وقد ذكره الله تعالى بهذا الاسم في مواضع من التنزيل:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ [الأنبياء:٤٨]. ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف:١٢٢]، [الشعراء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ [الأعراف:١٤٢].

وقوله تعالى: ﴿هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ [القصص:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

وقوله تعالى: ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ [مريم:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا﴾ [الفرقان:٣٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: (يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى)[(١)].

فكان مدح موسى لأخيه هارون بشيء صحيح يعلمه منه واقعًا، ولم يزد ثناءً عليه.

فطلب أن يعينه الله بمعين من أهله، هارون أخيه، فهو يعلم عنه فصاحة اللسان وثبات الجنان وهدوء الأعصاب، وكان موسى عليه السلام قويًا؛ فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه يشد أزره ويقويه ويتروى معه في الأمر الجليل الذي هو مقدم عليه[(٢)].

واستجاب الله له فقال: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم:٥٣] ليشد أزره في أداء الرسالة[(٣)]، أي: وأجبنا سؤاله

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٦/ ٧٦.
والحديث أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب علي رضي الله عنه، رقم ٣٧٠٦، ٣/ ١١٤٢.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٣٣.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٠٨.

وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبيًا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص:٣٤].

وقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٦]

وقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء:١٣-١٤].

ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيًا[١].

وفي هذه الشفاعة بيان الحرص العظيم من الأخ لأخيه في حب الخير له.

وجعله الله منة من مننه عليه فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [الفرقان:٣٥].

عن قتادة: عونًا وعضدًا[٢]، يوازره في الدعوة وإعلاء الكلمة ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة؛ لأن المتشاركين في الأمر متوازرون عليه[٣].

هارون عليه السلام وزيرًا لأخيه موسى عليه السلام:

صار خطاب القرآن الكريم يتوجه بالأمر للأخوين عليهما السلام، وذلك بعد إشراك الله لهارون في الرسالة ليكون عضدًا لأخيه، فقال الله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس:٨٧].

فالله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام[٤]، والمراد أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرًا لئلا يصيبهم من الكفار معرة بسبب الصلاة، ومما يؤيد هذا قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس:٨٧].

أي: التي أمركم الله بإقامتها فإنه يفيد أن القبلة هي: قبلة الصلاة إما في المساجد، أو في البيوت لا جعل البيوت متقابلة، وإنما جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهارون، ثم جعله لهما ولقومهما في قوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس:٨٧].

ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك، فقال: وبشر المؤمنين؛ لأن اختيار المكان مفوض إلى الأنبياء، ثم جعله عامًا في استقبال القبلة، وإقامة الصلاة؛ لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جعل خاصًا بموسى؛ لأنه الأصل في الرسالة وهارون تابع له، فكان ذلك تعظيمًا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٦٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٠٤.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٢٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩١٣.

للبشارة وللمبشر[1].

وهذا من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولًا: إذ كان موسى وهارون هما الرسولين المطاعين، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء، وإذا تبوءا البيوت لقومهما فهم تبع لهما، ثم جمع الضمير فقال: وأقيموا الصلاة؛ لأن إقامتها فرض على الجميع، ثم وحده في قوله: وبشر المؤمنين أن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه ردءًا ووزيرًا، وكما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولًا واحدًا كقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف:٤٦].

فهذا الرسول هو الذي قيل له: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧][2].

ولقد ذكر الله موسى بالقوة وكان يأخذه الغضب، إلا أن ذلك لا يمنع من معرفة حقوق الأخ لأخيه حتى يكون الأخ مع أخيه نفسًا واحدة كما تقدم.

خلافة هارون أخاه موسى حين ذهب للقاء ربه عز وجل:

قال الله: ﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف:١٤٢].

أي: كن خليفتي فيهم، قال موسى هذا لما أراد المضي إلى المناجاة -فقال لهارون- وأصلح أمر بني إسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقد أحوالهم ولا تتبع سبيل المفسدين، أي: لا تسلك سبيل العاصين ولا تكن عونًا للظالمين[3].

وهذا مع اعتماد موسى على أخيه؛ لكن لا بد من التوجيه لأخيه وإرشاده للسياسة الحسنة، والتحذير من طرق سبيل المفسدين، لكنهم خالفوا موسى وهارون، والخلاف شر كما يقال، وقد يكون سببًا في نزاع الأخوة.

التفاهم عند وجود الخطأ والتثبت بين الأخوة:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف:١٥٠].

«أخذ برأس أخيه يجره إليه»، فإن ذلك كان من فعل نبي عليه السلام، لموجدته على أخيه هارون في تركه أتباعه، وإقامته مع بني إسرائيل في الموضع الذي تركهم فيه، كما قال جل ثناؤه مخبرًا عن قول موسى عليه السلام له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٥٣.
(٢) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ٣٠٩.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٤٤.

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه:٩٢-٩٣]؟

وحين أخبره هارون بعذره فقبل عذره، وذلك قوله لموسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٤].

وقال: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف:١٥٠][1].

ونسبه إلى الأم -في سورة طه- مع كونه أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور؛ استعطافًا له وترقيقًا لقلبه[2]، فذكر له هارون أمورًا تبين أنه اجتهد في إصلاحهم، فلما خالفوه لم يستطع عليهم، لكنه لم يرض بما فعلوه ولم يقرهم على مخالفاتهم لأنبيائهم.

فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓا أَمْرِي ﴿٩٠﴾﴾ [طه:٩٠] فعند ذلك ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف:١٥١].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح؛ فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح)[3].

فلا بد لمن ظن فيه الخطأ أن يبين لأخيه ما يجب أن يزول عنه، وأن يكون العذر صحيحًا، مع مراعاة حال أخيه خاصة في غيرته لله، والأخ الناصح ينظر في عذر أخيه ويتأمله ليقبله، ولقد قبل موسى عليه السلام عذر أخيه مباشرة لعلمه بصدقه في ذلك.

لذا قال هارون: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٤].

فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم فلو تبعتك لتركت ما أمرتني بلزومه وخشيت لائمتك و ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ حيث تركتهم وليس عندهم راع ولا خليفة؛ فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء فندم موسى على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف:١٥١][4].

فكان موسى عليه السلام فاتحة خير

---

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٦٨.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٥٢.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة طه، رقم ٣٤٣٥، ٢/ ٤١٢.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
ولم يتعقبه الذهبي.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٦.

لأخيه هارون، فصارا أخوين في النسب والدين والرسالة، وقد امتن الله عليهما بذلك، وجعلهما قدوة لمن بعدهما، وخلد ذكرهما في العالمين، فكانت هذه الأخوة الحميمة والخصال العظيمة أرقى شيء بقي لنا ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٨].

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، البنوة، الصحبة، العلاقات الاجتماعية، الوحدة





عناصر الموضوع



مفهوم الأذى

أولًا: المعنى اللغوي:

الأذى: كل ما تأذيت به، ورجل أذيٌّ، أي: شديد التأذي، وآذى الرجل فعل الأذى، والأذي كغني؛ الشديد التأذي، ومصدره؛ أذىً، وكذلك أذاةً، وأذيةً(١).

و«منه الأذى؛ وهو الموج المؤذي لركاب البحر»(٢).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «الأذى ما يصل إلى الحيوان من الضرر؛ إما في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته؛ دنيويًا كان أو أخرويًا»(٣).

وذكر المناوي قريبًا من ذلك؛ فقال في التوقيف: «الأذى ما يصل إلى الحيوان من ضرر، أو مكروه في نفسه، أو بدنه، أو فتنه؛ دنيويًا أو أخرويًا»(٤).

وعرفه الدكتور أحمد مختار في المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن وقراءاته؛ بأنه الضرر(٥).

ويظهر من تعريف الأصفهاني والمناوي أنهما قصراه على الحيوان، ولعلهما يقصدان بالحيوان كل ما كان حيًا؛ وخاصة الإنسان، في حين أن الآيات التي ذكرت الأذى، تحدثت عن الأذى الذي يقع على الإنسان، وعليه فإن الأذى هو الضرر الذي يلحق بالإنسان في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته.

فالعلاقة بين المعنيين للفظ: أنه خص في الاصطلاح بالضرر الذي يقع على الإنسان أو الحيوان، بخلاف المعنى اللغوي فإنه يعم كل ضرر.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي، ٨/ ٢٠٦، مختار الصحاح، الرازي، ص١٦، لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٢٧.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ١/ ٢٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التوقيف، المناوي، ١/ ٤٦.
(٥) انظر: المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن وقراءاته، د. أحمد مختار، ص٦٧.

الأذى في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أذي) في القرآن الكريم (٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب:٦٩]
الفعل المضارع	٩	﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١]
فعل الأمر	٤	﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ [النساء:١٦]
المصدر	٩	﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة:٢٢٢]

وجاء الأذى في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: ما يصل إلى الإنسان من الضرر[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٢٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧١.

الألفاظ ذات الصلة

١ السوء:

السوء لغةً:

الشر والفساد وكل آفة، قال الكفوي في معناه: السوء جرى مجرى الشر، ويحمل معنى الشدة والذنب والضر والفقر والزنا والشرك والهزيمة[١].

السوء اصطلاحًا:

«كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية، والأخروية، ومن الأحوال النفسية، والبدنية، والخارجة، من فوات مال، وجاه، وفقد حميم»[٢].

الصلة بين السوء والأذى:

السوء نوع من أنواع الأذى الذي يمكن أن يتعرض له الإنسان.

٢ المصيبة:

المصيبة لغةً:

تعني النائبة وكل أمر مكروه[٣]، وجاء في لسان العرب أنها تعني الشدة[٤].

المصيبة اصطلاحًا:

هي البلية وكل أمر مكروه[٥].

الصلة بين المصيبة والأذى:

أن المصيبة لا تكون إلا ضراء، والضر قد يلحق الإنسان الأذى أو لا يلحقه.

---

(١) انظر: الكليات، ص٥٠٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٤١.
(٣) انظر: المصدر السباق، ص٣٧٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٣٤.
(٥) انظر: المصدر السابق.



٣ الضرر:

الضرر لغة:

ضد النفع من ضر يضر ضرًا، وهو سوء الحال[١].

الضرر اصطلاحًا:

«كل ما كان من سوء حال وفقر أو شدة»[٢].

الصلة بين الضرر والأذى:

لا يلزم من الأذية الضرر؛ فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه قد لا يتضرر بذلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذلك[٣].

(١) انظر: المصدر السابق، ٤/ ٤٨٣.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ١٠/ ٨٢٣.

أنواع الأذى

بيَن سبحانه في كتابه العزيز الهدف من هذه الحياة، والحكمة من تقدير الموت والحياة، فقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك:٢].

ولن يكون ابتلاء وامتحان دون معاناة، فكانت الحياة البشرية شاقة كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد:٤].

فيعيش الإنسان في «مشقة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة»[١]، التي يصدق على كثير منها مسمى الأذى، الذي يعود بعضه إلى طبيعة الإنسان، ويحدث بعضه الآخر تحت ظروف صحية، أو نتيجة لسلوك معين يصدر من الإنسان نفسه.

أولًا: الأذى الطبيعي:

الأذى الطبيعي: هو ما كان من طبيعة الأشياء، ومن لوازمها، ومثاله: ما نراه من طبيعة البشر، حيث خلق الله الإنسان، وجعل منه الذكر والأنثى، وجعل من طبيعة الأنثى؛ وبما يتوافق مع دورها في الحياة، أن يأتيها الحيض في فترات محددة، «فالحيض خلقة في النساء، وطبع معتاد معروف منهن»[٢].

(١) مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٦٤٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٨٢.

وهو أذى كما أخبر القرآن في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢]؛ فهو أي: الحيض من «دواعي الصفات البشرية، والحاجات الإنسانية»[٣]، ولأنه أذىً وقذر؛ وجدنا أن النفس السوية تتحاشاه، بل كانت الأمم السابقة تغالي في الأمر؛ فلا تخالط الحائض، وتبعدها؛ فعن أنس رضي الله عنه (أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت...)[٤].

فجاء الإسلام ليهذب هذا الأمر الطبعي، فحيث إنه من طبيعة الأشياء فإن خالق الأشياء «أراد أن تكون عملية الحيض في المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها، وحياة الإنجاب، وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض»[٥].

فبيَن بذلك كيفية التعامل المتزن مع هذا الأمر الطبيعي، الذي هو في حقيقته أذى للزوج والزوجة، وعقب سبحانه بتأكيد محبته للتائبين وللمتطهرين، فجمع بذلك بين طهارة الباطن، وطهارة الظاهر، لترسم

(٣) روح المعاني، الألوسي، ١/ ٥١٩.
(٤) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب اصنعوا كل شيء إلا النكاح، رقم ٦٢٠، ١/ ١٦٩.
(٥) تفسير الشعراوي، الشعراوي، ١/ ٩٦٦.

الآيات منهجًا تربويًا في تهذيب النفوس وتقويم السلوك.

ثانيًا: الأذى المرضي:

الأذى المرضي: والحديث هنا عن الأذى الذي يصيب الإنسان نتيجة مرض طارئ؛ فيسبب له الألم، والمعاناة، ومن هنا فهذا الأذى طارئ، يصيب الجميع الصالح والسيء، الصغير والكبير، الرجل والمرأة، الغني والفقير، إذا توافرت مسببات المرض، من إهمال بالنظافة، أو استهتار بطرق الوقاية من الأمراض، أو غير ذلك من أسباب قد تكون خارجة عن إرادة الإنسان، وتحدث القرآن عن جانب من هذا الأذى الذي قد يحدث أثناء أداء عبادة الحج، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦].

«والمراد بالأذى من الرأس ما فيه من قمل أو جراح ونحو ذلك»[(١)]، فالآية بينت فيما بينت بعضًا من محظورات الإحرام، ومنها حلق الرأس، «وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك، لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض، ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية»[(٢)]، على تفصيل في ذلك، فالأذى الذي يصيب الإنسان من هذا الباب هو من الأذى المرضي.

ثالثًا: الأذى المشروع:

الأذى المشروع: يقع الإنسان تحت طائلة المسائلة نتيجة تصرفاته الخاطئة، وحسب حجم الخطأ الذي ارتكبه يتلقى عقابًا مكافئًا، وهو وسيلة تأديبية أباح الإسلام اللجوء إليها؛ لتقويم سلوك معوج، ومن المؤكد أنها تسبب أذى للإنسان، ولكنه أذى مشروع؛ لأنه من باب التأديب، ومع ذلك فالأمر ليس على إطلاقه، إنما يتم وفق ضوابط شرعية؛ ومن الأمثلة على الأذى المشروع قوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء:١٦].

حيث بينت الآية أن من يرتكب فاحشة الزنى؛ «يؤذى بالشتم والتعيير والضرب بالنعال، فكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد والرجم»[(٣)].

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٢٢٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٣٥.

فهذا سلوك خاطئ أباح الشرع إيذاء صاحبه تأديبًا له، وزجرًا، «فالأذية بالقول والفعل والحبس، قد شرعه الله تعزيرًا لجنس المعصية الذي يحصل به الزجر»[1]، وكل أذىً يتعرض له الإنسان -تأديبًا وعقوبة وفق الضوابط الشرعية- هو من الأذى الشرعي.

رابعًا: الأذى غير المشروع:

الأذى غير المشروع: هو الأذى الذي يصيب الإنسان دون وجه حق، ولا يقره الإسلام؛ ولهذا اعتبر غير مشروع، فقد يتعرض الشخص للأذى من قبل أقرانه، أو منافسيه، أو خصومه، وقد يناله الأذى بسبب مواقفه، ومبادئه، وكل هذا أذىً غير مشروع، ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران:١٩٥] فهؤلاء المهاجرون كل جريرتهم أنهم آمنوا بالله وحده؛ فتعرضوا «للأذية من المشركين بسبب إيمانهم بالله، وعملهم بما شرعه لعباده»[2]، ومثلهم عبر التاريخ الإنساني كثير؛ تعرضوا للأذى والاضطهاد بسبب مواقفهم الإيمانية، ومبادئهم النبيلة.

ومن أمثلته أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤] فترى المنفق يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه اصطنعه، وأوجب عليه حقًا له، ويتطاول عليه بسبب ما أعطاه[3]؛ مما يسبب له الأذى، فالمتصدق وإن كان قدم مساعدة لغيره؛ إلا أنه بمنه، وتطاوله في الكلام سبب أذىً لصاحبه، وهو أذى غير مشروع؛ بدليل التحذير الإلهي ببيان أن ذلك السلوك يضيع، ويبطل أجر الصدقة.

وخلاصة القول أن مثل هذا النوع من الأذى؛ الواقع على الإنسان -كما في المثالين المذكورين- يعد من الأذى غير المشروع، الذي توعد الله فاعله بالعقاب.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٧١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٤٧٤.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٢١٧.

الآثار المترتبة على الأذى في العبادة

إن الأذى الذي يتعرض له المكلف، أو يصدر منه في حق الآخرين؛ ينعكس على عبادته، فينقلها حينًا من العزيمة إلى الرخصة، ويحولها في حين آخر من الصحة إلى البطلان.

ومن الآثار المترتبة على الأذى ما يأتي:

أولًا: التخفيف والتيسير:

يترتب من وقوع الأذى على المكلف؛ التخفيف والتيسير في العبادة، فمثلًا: «يحرم على المتلبس بالإحرام أن يزيل شعر رأسه بالحلق، أو القص أو غيرهما»[1].

لكن إذا أصابه أذىً في رأسه من قمل أو غيره؛ جاز له أن يحلق أو يقصر، فترتب التخفيف والتيسير بسبب الأذى، وقد جاء بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦].

و يؤكد هذا الفهم ما جاء في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لعلك آذاك هوامك)[2]، قال: نعم يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك بشاة)[3].

فكان التخفيف والتيسير بسبب العذر، وهو الأذى الذي أصاب الصحابي رضي الله عنه.

ثانيًا: بطلان العمل:

يترتب على الأذى غير المشروع؛ إذا وقع من المكلف، بطلان عمله، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

فحذرت الآية المؤمن المتصدق من المن وهو «أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه»[4]، وكذلك حذرت من الأذى، والمقصود به هنا «أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم إليه»[5].

وقد سبق بيان الفرق بينهما حيث إن الأذى أعم من المن؛ لأن المن جزء من الأذى؛ لكنه نص عليه لكثرة وقوعه.

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة، الجزيري، ١/ ٥٨٤.

(٢) هوامك: جمع هامة بالتشديد ويطلق على ما يدب من الحيوان كالقمل وشبهه. انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ٢٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، أبواب المحصر، باب قول الله تعالى: (فمن كان منكم مريضًا أو به أذًى من رأسه)، رقم ١٨١٤، ٣/ ١٠.

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٥٨.

(٥) المصدر السابق.

وبينت الآية أنه يؤدي إلى بطلان أجر الصدقة، تمامًا كذلك المنافق الذي ينفق ماله رياءً، وسمعةً؛ فلا أجر له.

والرياء هو «القول أو الفعل الذي لا يقصد معه الإخلاص، وإنما يقصد به التظاهر وحب الثناء»[1]، والعلاقة بينها أن النتيجة واحدة وهي بطلان العمل، «فالمن والأذى والرياء تكشف عن النية في الآخرة؛ فتبطل الصدقة؛ كما يكشف الوابل عن الصفوان، وهو الحجر الكبير الأملس»[2].

ولقد بينت السنة فداحة هذا الفعل من المن، وما يترتب عليه من أذى، فكان العقاب أن الله يعرض عنهم ولا يكلمهم يوم القيامة.

كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم)**. قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرار، قال أبوذر رضي الله عنه: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: **(المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)**[3].

الأذى في سبيل الله

إن الأذى في سبيل الله سنة إلهية ثابتة مع الأنبياء وأتباعهم ليمحص إيمانهم، ويزيد في درجاتهم، ولا بد من مواجهة الأذى سواء بالصبر أو التوكل والاحتساب، أو بالإعراض عن سفاهة المؤذين، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: الأذى في سبيل الله سنة إلهية:

من اللحظة الأولى التي بعث فيها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اتضحت أبعاد هذه الرسالة، ولقد صرح ورقة بن نوفل بذلك وهو يقول: **(يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذع ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم، قال: نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي)**[4].

فهي إذن سنة ثابتة فطن لها ورقة بن نوفل، وأدركها الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(١) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ٦/ ١١٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣١٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم إسبال الإزار، والمن بالعطية، رقم ١٧١، ١/ ١٠٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٣، ١/ ٧، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وتتابعت الآيات بعد ذلك تؤكد عظم هذه الأمانة، وتبعاتها الثقيلة فقال سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل:٥].

كما بينت وجود المستهزئين، والحماية الإلهية منهم، فقال سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر:٩٤-٩٥].

ووجه النبي صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام إلى هذا الفهم؛ فلقد روى البخاري في صحيحه عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة؛ قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: (كان الرجل في من قبلكم؛ يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب؛ وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر؛ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت؛ لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1].

فهذه النصوص وأمثالها تؤكد أن تعرض مسيرة الصالحين للأذى سنة إلهية، فمهمتهم ثقيلة والمستهزئون كثر، والمتتبع لمواقف الأذى في سبيل الله -الواردة في القرآن- يدرك ذلك، حيث يقرر المولى عز وجل هذه السنة التي لا تتبدل ولا تتغير، فيقول سبحانه: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦].

فالآية تؤكد أن وقوع الأذى حتمي، وتستعرض أصنافًا منه «كالبلاء في الأنفس؛ مثل: القتل والأسر والجراح، وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب، وفي الأموال؛ كالإنفاق في سبيل الخير، وما يقع فيها من الآفات، وكذلك ما يسمعون من أهل الكتاب من المطاعن في الدين الحنيف، وصد من أراد الإيمان، وتخطئة من آمن»[2]، كما وضحت الأطراف التي يقع منها الأذى، سواء من المشركين، أو أهل الكتاب، وكيفية مواجهته.

وفي موضع ثانٍ تبين الآيات كذلك؛ أن تكذيب الرسل هو ديدن الأمم السابقة؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ۝٣٤﴾ [الأنعام:٣٤].

«وهذا تسلية من الله تعالى ذكره؛ لنبيه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٦١٢، ٤/ ٢٠١.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٤٩.

محمد صلى الله عليه وسلم، وتعزيةٌ له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إياه؛ على ما جاءهم به من الحق من عند الله»[1].

فأكد لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه قد كذبت رسلٌ من قبله أرسلهم إلى أممهم، فنالوهم بمكروه، فصبروا على تكذيب قومهم إياهم، ولم يثنهم ذلك من المضي لأمر الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم الله بينهم وبينهم[2].

وفي موضع آخر تؤكد الآيات تعرض الرسل للأذى على يد أقوامهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا﴾ [إبراهيم:١٢].

وفي بيان إصرار هؤلاء الأقوام على محاربة رسلهم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم:١٣].

فهذه أنواع من الأذى الذي تعرض له الرسل عبر مسيرة الدعوة إلى الله فبين سبحانه «أن الكفار توعدوا الرسل بالإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم إن لم يتركوا ما جاءوا به من الوحي»[3]، وهذا ما فصلته الآيات في مواضع أخرى، فقوم شعيب عليه السلام هددوه بالطرد، وأخبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨].

والموقف ذاته مع لوط عليه السلام كما أخبر سبحانه: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [النمل:٥٦].

وتكرر الموقف نفسه من كفار قريش فوصفت الآيات ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء:٧٦].

وذكرت به تارة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال:٣٠].

وموسى عليه السلام من قبل يتهم ويشهر به في محاولة لتلويث سمعته؛ حتى يعجز عن تبليغ دعوة الله، وأشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ [الصف:٥].

إن الأمثلة السابقة تبين بوضوح أن الأمم السالفة كذبت المرسلين، وأتباعهم، وتناولتهم بصنوف الأذى المختلفة، فهي سنة الله التي تتمثل في دعوة صادقة؛ تتعرض للأذى من المدعوين، ويقابل أصحابها ذلك بالصبر، والتقوى، والتوكل على الله؛ حتى

(١) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٣٣٥.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ٢٤٤.

تكتمل أركانها بالنصر الموعود منه سبحانه.

ثانيًا: أسباب الأذى في سبيل الله:

يمكن استعراض أسباب الأذى الذي يتعرض له الدعاة المصلحون فيما يلي:

١. الأذى بسبب الإيمان بالله.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج:٨].

ولعله من أبرز الأسباب؛ حيث ينقم الطغاة دومًا من المؤمنين؛ بسبب إيمانهم بالله عز وجل، ومن هنا يتفننون في أساليب الأذى، التي قد تصل إلى حد الإبادة الجماعية، وحفر الخنادق للحرق والتنكيل، كما صورت ذلك سورة البروج؛ فبعد أن ذكرت فظائع المجرمين؛ بينت بوضوح سبب ذلك التنكيل في قوله سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج:٨].

«فهؤلاء الكفار الجبارة ما أنكروا عليهم ذنبًا إلا إيمانهم، ولا عابوا على المؤمنين إلا أنهم صدقوا بالله»[(١)]، وهذا الفعل منهم «- أي: حضورهم الإحراق- دليل على أنهم قوم غلاظ الأكباد، قساة القلوب، تمكن الكفر والباطل منهم، وتجردوا عن الإنسانية، وفقدوا الرحمة»[(٢)]، وقد جاءت الآيات تبين ذلك في مواضع أخرى، وقرنتها بالأذى الواقع على المؤمنين، ففي معرض الحديث عن سحرة فرعون، وردهم على تهديداته بالصلب والتنكيل، يقول سبحانه على لسانهم: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦﴾ [الأعراف:١٢٦].

فما أنكر منهم فرعون، وما وجد عليهم، إلا من أجل أن آمنوا[(٣)]، فبينوا بقولهم السابق أن عقاب فرعون لا غضاضة عليهم منه، لأنه لم يكن عن جنايةٍ تصمهم؛ بل كان على الإيمان بآياتٍ؛ لما ظهرت لهم[(٤)].

وهذا يؤكد بجلاء سبب الأذى الواقع على المؤمنين، وهو إيمانهم بالله عز وجل.

وكذلك عند بيان سبب عداء أهل الكتاب للمؤمنين وضحت الآيات ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ۝٥٩﴾ [المائدة:٥٩].

فهذا هو سبب النقمة، وحقيقة العداء بينهم وبين المسلم، الذي يتولد عنه الأذى بكافة أشكاله فهم «يعادونه لعقيدته ودينه، قبل أي شيء آخر، وهم يعادونه هذا العداء الذي لا يهدأ؛ لأنهم هم فاسقون عن دين الله، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٣٠/ ١٥٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٥٦- ٥٧.

دين الله»[1].

وتمثل الأذى في هذه الحالة في الاستهزاء بشعائر الدين، ويبين ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٞ لَّا يَعْقِلُونَ ٥٨﴾ [المائدة:٥٧-٥٨].

«والدين هو ما عليه المرء من عقائد وأعمالٍ ناشئةٍ عن العقيدة، فهو عنوان عقل المتدين، ورائد آماله، وباعث أعماله، فالذي يتخذ دين امرئٍ هزوًا؛ فقد اتخذ ذلك المتدين هزوًا، ورمقه بعين الاحتقار؛ إذ عد أعظم شيءٍ عنده سخريةً، فما دون ذلك أولى»[2].

وهذا الاستهزاء في حقيقته محاولة لتشويه الإسلام، كخطوة أولى في الصد عنه.

٢. الأذى بسبب العجز عن مواجهة منطق الدعاة.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾ [يس:١٨].

يتصور العصاة دومًا أن بإمكانهم مواجهة منطق الحق؛ الذي ينادي به المصلحون؛ فيعمدون في البداية إلى مقارعة الحجة بالحجة، إما اعتقادًا بصواب منطقهم؛ نتيجة الغفلة التي عاشوا فيها تحت موروثات الآباء والأجداد؛ كما وصفهم سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ٦﴾ [يس:٦].

أو اغترارًا بأنفسهم، كما حدث مع أصحاب القرية الذين ضربهم الله مثلًا في سورة يس، بل قد يصل الأمر بهم إلى تهيئة الأجواء لتلك المناظرة الفكرية، كشأن فرعون عندما دعا الناس وحشرهم في يوم الزينة ليروا فشل موسى عليه السلام حسب ظنه.

فأما أصحاب القرية فقد حاججوا الرسل؛ اعتقادًا منهم بأن الله لا يبعث رسلًا من البشر، وتصوروا بهذا الفهم المغلوط أن حجتهم قوية، ونقلت الآيات هذا في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ١٥﴾ [يس:١٥].

فحاججوا الرسل قائلين: «ما أنتم أيها القوم إلا أناس مثلنا، ولو كنتم رسلًا كما تقولون، لكنتم ملائكة»[3]، «وهذه شبهة كثيرٍ من الأمم المكذبة»[4]، فرد عليهم الرسل ببيان أن الله سبحانه يعلم حقيقتهم،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٩٠٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ٢٤١.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٥٠١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٦٩.

وأكدوا من جديد أنهم لمرسلون، وبينوا بكل تواضع، ومنطق سليم، أن مهمتهم تقتصر على البلاغ، والبلاغ المبين، كما أخبر القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝﴾ [يس:١٦-١٧].

«فراجعتهم الرسل بأن ردوا العلم إلى الله وقنعوا بعلمه، وأعلموهم أنهم إنما عليهم البلاغ فقط، وما عليهم من هداهم وضلالهم»[1]، دون أن يسألوهم أجرًا، أو مقابلًا ماليًا، أو شيئًا من الزعامة أو السلطان أو الجاه، كما حاجج عنهم الرجل الصالح؛ الذي جاء من أقصى المدينة، تاركًا مصالحه؛ لينافح عن الدعاة، «فوصفهم بما يرغبهم في اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوي»[2].

وذكرت الآيات ذلك في قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۝﴾ [يس:٢١].

وهنا عندما أدرك أصحاب القرية أنهم عاجزون عن مواجهة منطق الحق، لجأوا -وبدون مواربة- إلى منطق القوة، فكان التهديد الواضح، والتصريح بالرجم، والعذاب الأليم؛ إن لم يتوقف الرسل عن ممارسة مهمتهم، كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ [يس:١٨].

«أي: لئن لم تتركوا هذه الدعوى، وتعرضوا عن هذه المقالة؛ لنرجمنكم بالحجارة، وليمسنكم منا عذابٌ شديدٌ فظيعٌ»[3].

وهكذا «لما ضاقت بهؤلاء المكذبين الحيل، وأعيتهم الحجج؛ لجئوا إلى التهديد والوعيد»[4]، فهذا هو أسلوب المخالفين العاجزين دومًا، إذا شعروا بعجزهم عن مواجهة منطق الحق الصارخ، تحولوا دون وازع من ضمير، أو خلق، أودين، أو حتى مبادئ - تعارفوا عليها بينهم- إلى القمع والقتل والتنكيل.

وهذا المشهد يتكرر مع فرعون؛ الذي صور له صلفه، وغروره، أنه قادر على دحض منطق موسى عليه السلام فحشد الناس وجمعهم، «الميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم»[5].

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ٩/ ٥٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٦٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٤١٨.
(٤) تفسير المراغي، ٢٢/ ١٥٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٣٠١.

في مشهد سجله القرآن في قوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠﴾ [طه:٥٨-٦٠].

ثم كانت المواجهة الحاسمة التي اجتثت ما يأفكون، كما أخبر سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٨﴾ [الأعراف:١١٧-١١٨].

«فلما عجز فرعون عن دفع الحجة بالبرهان؛ عدل إلى البطش والفتك بالسنان، وهكذا حال كل ضال مبتدع؛ إذا أعيته الحجة مال إلى التهديد والوعيد»(١)، فكشر عن أنيابه، وتوعد السحرة بالصلب والتنكيل، وحرضته حاشيته على قتل المسلمين بقولهم: «أتترك موسى وجماعته ليفسدوا في الأرض؛ بالخروج عن دينك، وترك عبادة آلهتك!! وفي هذا إغراءٌ لفرعون بموسى وقومه، وتحريضٌ له على قتلهم، وتعذيبهم»(٢)، فوعدهم بأن يطالهم البطش، وبيَن القرآن هذا التعنت والطغيان في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۝١٢٧﴾ [الأعراف:١٢٧].

إن هذه المشاهد وغيرها تبين أن العجز عن مواجهة حجة الأنبياء والمصلحين كان سببًا من أسباب الأذى الذي وقع، ولا زال يقع على الدعاة والمصلحين في كل زمان ومكان.

٣. الأذى بسبب تأييد أهل الحق.

قال تعالى: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ [غافر:٢٥].

إن من الأسباب التي تدفع الطغاة إلى إيقاع الأذى بالناس؛ تأييدهم لأهل الحق، حيث كان الأذى عقابًا لهم على مواقفهم النبيلة، ومحاولة لدفعهم للتخلي عن هذه المواقف، وكذلك للحيلولة دون أن يلحق بهم آخرون.

وهذه المعاني واضحة في النموذجين السابقين، نموذج أصحاب القرية ونموذج فرعون، ففي نموذج فرعون كان التنسيق بينه وبين حاشيته على تعذيب من آمن مع موسى عليه السلام بتقتيل الأبناء واستحياء النساء، عقابًا لهم على مواقفهم، كما أخبر سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝٢٥﴾ [غافر:٢٥].

فقالوا غيظًا وحنقًا وعجزًا عن المعارضة:

(١) صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٤٣٢.
(٢) المصدر السابق.

أعيدوا عليهم ماكنتم تفعلونه بهم أولًا؛ كي تصدوهم عن مظاهرة موسى عليه السلام[1].

إذن هي المظاهرة لموسى عليه السلام وتأييده، التي أججت حقد فرعون وحاشيته، ودفعتهم إلى هذا الكيد، والتآمر، المحكوم بالضلال والفشل.

وكذلك في ذات النموذج، ومع السحرة كان العقاب بسبب تأييدهم لموسى -عليه السلام- كما قال سبحانه على لسان فرعون وهو يتوعد السحرة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤﴾ [الأعراف:١٢٤]. «فرجع فرعون في مقالته هذه إلى الخذلان، والغشم[2]، وعادة ملوك السوء إذا غولبوا»[3]، فيلجأون إلى «التعذيب والتشويه والتنكيل، وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح»[4].

وأما في نموذج أصحاب القرية؛ كان الصدح بالحق من الرجل المؤمن؛ متمثلًا في الدفاع عن الرسل، وبيان صواب موقفهم، حتى ارتفع بمستوى التأييد إلى تبني رأيهم، ومواصلة مهمتهم، كما أخبر سبحانه عنه؛ وهو يكمل رسالتهم: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ۝٢٥﴾ [يس:٢١-٢٥].

فناله منهم ما ناله؛ عقابًا له على موقفه الداعم للحق، فكان الأذى في واحدة من أشنع صور التنكيل، كما ذكر الطبري في تفسيره أنهم «وثبوا عليه، فوطئوه بأقدامهم حتى مات»[5].

وفي مثال ثالث: يتضح كيف يتفنن الحاقدون على الإسلام في إلحاق الأذى بكل من يساند الحق ويتبناه، فيقدمون - في أسلوب خسيس- على محاصرة الصالحين؛ بمحاربتهم في أرزاقهم، عقابًا لهم على تبنيهم للحق، فكان حصار قريش الجائر لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم في شعب أبي طالب، وامتد الحصار ليشمل كل من يتوقع منه مساندة المسلمين من الكفار أنفسهم، واستمر هذا الأسلوب الخسيس يستخدم على مدى الأيام؛ في محاولة لتجويع المسلمين؛ ليسهل من ثم تركيعهم،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي، ١٢/ ٣١٥.
(٢) الغشم: الظلم والغصب.
انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٤٣٧، والمراد عاد فرعون إلى ظلمه.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٤٤٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٣٥١.
(٥) جامع البيان، ٢٠/ ٥٠٨.

فكان تواصي المنافقين بعدم الإنفاق، فكانوا يقولون لأهل المدينة: لا تنفقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من فقراء المسلمين، ومن كانوا في رعايته من أهل الصفة، ومن كانوا يلحقون بالمدينة من الأعراب[1].

كما أخبر سبحانه وتعالى عنهم في قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ [المنافقون:٧].

فكانت هذه المحاولات عقابًا للمسلمين على مواقفهم وتأييدهم للحق.

إن هذه الأمثلة -وكثير غيرها- لتبين بجلاء، أن من أسباب الأذى الواقع على المسلمين؛ مساندتهم وتأييدهم لأهل الحق من الدعاة والمصلحين، فالداعية أوذي بسبب دعوته، وأتباعه أوذوا بسبب اتباعهم للحق الذي يدعو إليه.

٤ . الأذى بهدف تشويه الدعوة والداعية.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف:٥].

وينصب هذا الأذى على الدعوة والداعية على حد سواء، فتارة يشوهون صورة الداعية، وأخرى يشوهون حقيقة الدعوة؛ فأما الداعية فإن النيل من عرضه وشرفه وسمعته، شكل من أشكال الأذى؛ يهدف إلى تعطيله عن ممارسة رسالته الشريفة، وبث الإشاعات للطعن في نزاهته، وبالتالي لا يلتفت لكلامه أحد، ولا يثق في دعوته مدعو.

ومن الأمثلة الواضحة على هذا اللون من الأذى؛ ما وقع في حق موسى عليه السلام من قومه بني إسرائيل بهدف تشويه شخصيته، للحيلولة بينه وبين دعوة الناس، وقد ذكر سبحانه ذلك الأذى تارة في موضع تحذير المؤمنين من الوقوع في مثل ذلك السلوك الشيطاني من الإساءة لنبيهم، كما أساء اليهود من قبلهم؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾ [الأحزاب:٦٩].

وتارة أخرى على لسان موسى عليه السلام وهو يعاتب قومه على هذا الاتهام الباطل، رغم معرفتهم بحقيقته وصدق رسالته، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف:٥].

أما محاولات تشويه الدعوة؛ فمن الأمثلة عليها ما فعله اليهود ؛ ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٣/ ٢٤٦.

مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين»[1].

فيكون ذلك دافعًا للآخرين ليحجموا عن الدخول في الإسلام وقد فضح القرآن أسلوبهم الرخيص هذا في مواجهة منطق الحق فقال سبحانه: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران:٧٢].

ثالثًا: أساليب مواجهة الأذى:

إن تعرض أصحاب الدعوات الصالحة للأذى؛ هو سنة إلهية على مر الأزمان والعصور، والله سبحانه لم يترك أولياءه يواجهون كل هذا الكيد، والمكر، ويتعرضون لأشكال شتى من الأذى؛ دون أن يمنحهم عدة المواجهة، فدلهم سبحانه على طرق، وأساليب مقاومة هذا الأذى، ويتضح ذلك من خلال الآيات التي تحدثت عن الأذى في سبيل الله؛ حيث نستقرئ منها بعض الأساليب، وبيان ذلك فيما يلي:

١. التقوى.

إن اعتبار التقوى من أساليب مواجهة الأذى أمر بدهي؛ فما دمت تصدح بالحق، وتتلقى هذا الأذى بسبب ما تنادي به، وتدعو إليه من مبادئ فاضلة؛ فمن باب أولى أن تتبناه منهجًا في حياتك، وأن تحرص عليه قبل الآخرين الذين تدعوهم إليه، استجابة لقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف:٢-٣].

وهذا يعني وأنت الداعي إلى الحق أن تكون أكثر من الآخرين قربًا إلى الله وخشية منه وتقوى له سبحانه، فالتقوى هي التي تمنحك القدرة على تحمل الأذى في سبيل فكرتك ولهذا «ندب الله تعالى عباده إلى الصبر والتقوى، وأخبر أنه من عزم الأمور، أي: من أشدها وأحسنها»[2].

فقال سبحانه: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦].

ويمكن فهم دور التقوى في مجال مواجهة الأذى في سبيل الله من خلال ما يلي:

١. صاحب التقوى يلازمه شعور بأنه يتلقى الأذى بسبب قضيته العادلة، وبقدر ما يكتنفه من خشية لله وخوف من عقابه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٥٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٥٥١.

ورجاء لمغفرته بقدر ما يزداد صلابة وقدرة على التحمل، فهي «دليل على قوة الإرادة، ومضاء العزيمة، وعلو الهمة»[(١)].

٢. صاحب التقوى يدرك أن أي ضعف أو رضوخ تحت وطأة الجلاد سيكون على حساب قضيته العادلة، وقد يؤدي إلى سيطرة الظلم وضياع الحقوق ولن يبقى للمتقين مكان لممارسة منهج الله وشعائره التي تعكس مدى تقواهم لله، فهي إذن دعوة إلى «أن تتخذوا الوقاية بطلب رضا الله تعالى، ورجاء ما عنده، وأن تستعدوا، وتدفعوا الاعتداء بالحق، وتعملوا على الخروج من المحنة، فليس شأن المؤمن استسلامًا للمصائب تنزل به، بل شأنه صبر من غير جزع، وعمل من غير طمع، وجد وجهاد ودفع للشر»[(٢)].

٣. التقوى تحول بين صاحبها وبين تجاوز الحد في الرد على المعتدي المؤذي فتحميه من الهبوط إلى مستواه، فالأصل أن «تتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه، ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله»[(٣)].

٤. يمارس الطغاة الأذى على الصالحين ليدفعوهم للتخلي عن إيمانهم خوفًا من الأذى، فإذا تحلى الداعية بالتقوى فهو لا يخشى إلا الله، ومن يخشى الله لا يهاب أحدًا سواه، فكيف سيوثر فيه الأذى؟ ومن هنا كانت التقوى خير معين على مواجهة الأذى، فقد بين سبحانه أن التقوى والصبر من الأمور التي أمر بها؛ لأنها تؤدي إلى النجاح، فالصبر والتقوى بهما النجاح في الأمور[(٤)].

وهناك من يتحمل الأذى؛ دون أن يعود ذلك إلى تقواه، بل حرصًا على مصالحه، كما تحدثت الآيات عن الذين ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله، فيكابدون معاناة فقد الأموال، ويتحملون ذلك لا عن تقوى؛ وإنما عن حقد، وغيظ دفين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

وهذا يجعل التقوى فارقة؛ بين دائرة الذين يؤذون في سبيل الله، وغيرهم من

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ١٩٦.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٣/ ١٥٤١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٦٠.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٣/ ١٥٤١.



أصحاب الأهداف الهابطة، ويمنحنا فهمًا أوسع للحكمة من ذكر صفة التقوى ضمن وسائل مواجهة الأذى في سبيل الله.

٢ . الصبر.

أكد القرآن في أكثر من موضع أن الابتلاء أمر حتمي ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

ولتجاوز الإبتلاء والنجاح في الاختبار لابد أن يتسلح المسلم بالصبر، فمن المؤكد أن أي معاناة يتعرض لها الإنسان تتطلب منه قدرًا من الصبر؛ حتى يتمكن من تجاوزها، وهذا يجعل الصبر واحدًا من أساليب مواجهة الأذى، وقد صرحت به الآيات في أكثر من موضع؛ مرتبطًا بالأذى كما سبق في قوله تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ومن المواضع الأخرى الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٢].

وبالتأمل في هذه الآيات يتبين لنا بوضوح أن الصبر عامل مهم من عوامل مواجهة الأذى فآية سورة (الأنعام) «تضمنت عرض الأسوة التي ينبغي الاقتداء بها على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجيته أن يأتيه مثل ما أتاهم من النصر إذا امتثل ما امتثلوه من الصبر»[(١)].

فالصبر في مواجهة الأذى طريق يرجى بها تحقيق النصر، ورفع الأذى عن المؤمنين.

ويتكرر الأمر في آية سورة الأعراف على لسان موسى عليه السلام والذي يبين لقومه أن الاستعانة بالله، والصبر هما سبيل مواجهة تهديدات فرعون، فقال لهم: استعينوا بالله وحده، واطلبوا العون والتأييد منه على رفع ذلك الوعيد عنكم، واصبروا

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢٨٧.

ولا تحزنوا، فالله هو المعين على الشدائد، والصبر سلاح المؤمن ومفتاح الفرج[(١)].

وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين الله، وينتظر الفرج[(٢)].

أما في آية سورة إبراهيم نجد الرسل عليهم السلام يستعينون بالصبر في مواجهة أذى أقوامهم، وذلك لأنه دعامة قوية في التغلب على أذى الطغاة، فيعلنون موقفهم معتمدين على الله قائلين: «لنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى؛ احتسابًا للأجر، ونصحًا لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير»[(٣)].

٣. التوكل على الله.

في مواجهة الأذى لابد من التوكل على الله فهو المعتمد، وهو المقصود سبحانه في كل الحوائج وبدون معيته فالضياع محتوم والقدرة على المواجهة معدومة، ولهذا صرح به الرسل وهم يتحدون أقوامهم، وذكر الله ذلك على لسانهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١٢].

«فلا سبيل أمام الأنبياء إلا الصبر على الأذى والاعتصام بالله وتفويض الأمر إليه والتوكل التام عليه، فإن الصبر مفتاح الفرج، ومطلع الخيرات، والتوكل على الله والاعتماد على فضله محقق للنصر والفتوح»[(٤)]، «فأمام هؤلاء الأقوياء المتعنتين لابد من اعتماد على القوي القادر القهار»[(٥)]؛ «فليستمر المؤمنون، ويثبتوا على توكلهم على الله، وليثقوا به، وليتحملوا كل أذى في سبيل مرضاته، ففي ذلك الخير كله والنجاة الأبدية في عالم الآخرة»[(٦)].

٤. الاحتساب.

وذلك باحتساب الأجر على الله، وباليقين بأن الله حسبه وكافيه، فمن العوامل المعينة على مواجهة الأذى؛ شعور الإنسان أن ما يتعرض له من أذى يقابله الأجر الكبير من الله، فهو يحتسب ما يصيبه من أذى عند الله؛ مما يهون عليه شدة العذاب، وقسوة الجلاد، كما أن إدراكه بأن الله كافيه شرور المتربصين، يزيده عزمًا على المضي في نشر دعوة الحق، ولذلك وجه الله نبيه عليه الصلاة والسلام إلى الاعتماد عليه في وجه

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ٥٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٠٠.
(٣) المصدر السابق، ص٤٢٢.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١٣/ ٢٢٢.
(٥) زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٨/ ٤٠٠٤.
(٦) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١١٨٦.

متاعب الدعوة، وإعراض الناس عنه، فقال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩].

وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل مضطهد بأن الله «يعينك عليهم ويكفيك أمر توليهم وما يتبعه من عداوتهم وصدهم عن سبيله»[1].

وقد لجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام -رضوان الله عليهم- إلى هذا الدعاء، في مواجهة ما بلغهم من أخبار عن تجمع جيش قريش لهم، بعد غزوة أحد كما قال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩].

أما في رجاء الأجر، واحتساب تكاليف الاستجابة لنداء الحق عند الله، نجد المؤمنين يتوجهون إلى الله بالدعاء، أن يجزيهم أجر استجابتهم لرسالة الإيمان؛ بكل ما تحمله الاستجابة من تكاليف، كما قال سبحانه مخبرًا عنهم: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩٣-١٩٤].

فكانت الاستجابة من الله عز وجل كما أخبر سبحانه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران:١٩٥].

ومن المؤكد أن استشعار الداعية لمعية الله، ويقينه بجزيل الأجر؛ استشعاره هذا يمنحه إرادة قوية في مواجهة الأذى.

٥. الإعراض عن المؤذي.

وهذا منهج آخر ووسيلة مختلفة في مواجهة الأذى تتلخص في إعراض الداعية عن المؤذي كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب:٤٨].

«أي: لا تكترث بما يصدر منهم من أذًى إليك؛ فإنك أجل من الاهتمام بذلك»[2]، فإن تجاهلك للمؤذي يرفع من قيمتك ومكانتك، وقد يرفع من شأنك عند المدعوين الآخرين فيكون سببًا في هدايتهم.

---

(١) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٥٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٥٨.

إيذاء الله ورسوله

تعرض النبي عليه الصلاة والسلام خلال رحلته المباركة إلى كثير من الأذى؛ عبر أساليب متعددة، فمن السخرية به، والتكذيب لرسالته، إلى الأذى الجسدي له، ولمن تبعه، وقد ورد في ذلك روايات كثيرة؛ تصف هذه المحن التي تعرض لها النبي صلى الله عليه وسلم نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

١. **السخرية والتكذيب**: فعن سخريتهم وتكذيبهم قال سبحانه مبينًا ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١﴾ [المطففين:٢٩-٣١]. وكذلك ما رواه البخاري عن جندب بن سفيان رضي الله عنه، قال: اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين - أو ثلاثًا - فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين - أو ثلاثة - فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى:١-٣][1].

٢. **الأذى الجسدي**: أما عن الأذى الجسدي الذي تعرض له النبي عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام، ما رواه البخاري بسنده إلى (عروة بن الزبير، قال: سألت عبد الله بن عمرٍو، عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: رأيت عقبة بن أبي معيطٍ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكرٍ حتى دفعه عنه، فقال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [غافر:٢٨])[2].

ومن المؤكد أن الأذى الذي يتعرض له الصحابة؛ كان يؤلم النبي صلى الله عليه وسلم ولهذا نصحهم بالهجرة إلى الحبشة، فكانت الهجرة الأولى إليها.

وباستعراض الآيات التي تحدثت عن إيذاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وتناولت ذلك بلفظ الأذى، يمكن أن تكتمل الصورة أكثر:

أولًا: بالتأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (ما ودعك ربك وما قلى)، رقم ٤٩٥٠، ٣/ ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذًا خليلًا)، رقم ٣٦٧٨، ٥/ ١٠.

﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٦-٥٨].

يمكن ملاحظة بعض الأمور:

١. قبل أن يتحدث القرآن عن أذى النبي عليه الصلاة والسلام بينت الآيات عظم مكانته وشرفه صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب:٥٦] «فلما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه»(١)، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب:٥٧].

٢. والأذى هنا «يشمل كل أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم، أو تنقص له، أو لدينه، أو ما يعود إليه بالأذى»(٢). الذين يؤذون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في الآية «هم اليهود والنصارى والمشركون، أما اليهود فإنهم قالوا: يد الله مغلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وإن الله ثالث ثلاثة، وقال المشركون: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه، وسبوا رسول الله، وكسروا رباعيته وقالوا: مجنون شاعر كذاب»(٣)، وقد استدل الواحدي على صحة هذا التفسير بما رواه مسلم عن عبد الله ابن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ما أحدٌ أصبر على أذًى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له ندًا، ويجعلون له ولدًا، وهو مع ذلك يرزقهم، ويعافيهم، ويعطيهم**)(٤). ثم أضاف الواحدي مبينًا حقيقة معنى يؤذون الله: أي «يخالفون أمر الله، ويعصونه، ويقولون في وصفه ما هو منزه عنه، والله تعالى لا يلحقه أذى، ولكن لما كانت المخالفة فيما بيننا، والخروج عن أمر الله، يسمى إيذاء له؛ خاطبنا الله بما نعرفه في تخاطبنا»(٥)، وفي إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم إضافة إلى ما سبق من قولهم: مجنون وشاعر وكذاب، كذلك «قيل: هو كسر رباعيته، وشج وجهه الكريم

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٤٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٧١.
(٣) البسيط، الواحدي، ١٨/ ٢٩٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل، رقم ٧١٨٢، ٨/ ١٣٣.
(٥) البسيط، ١٨/ ٢٩٠.

يوم أحد، وقيل: طعنهم في نكاح صفية، والحق هو العموم فيهما»[1].

٣. جاء التعبير عن أذى الله عز وجل، وأذى رسوله صلى الله عليه وسلم معًا؛ في حين أفرد للحديث عن أذى المؤمنين آية أخرى، فقال سبحانه بعد الوعيد للذين يؤذون الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٨﴾ [الأحزاب:٥٨].

٤. فالأول -أي: ذكرهما معًا-: فإضافة إلى ما ذكر في معنى أذى الله عز وجل، فإنه سبحانه جعل أذى النبي عليه الصلاة والسلام أذى له؛ تشريفًا لمنزلته[2] صلى الله عليه وسلم. وأما الثاني -أي: إفراد أذى المؤمنين-: فلعل ذلك «لأن أذى الله ورسوله، لا يكون إلا غير حق أبدًا، وأما أذى المؤمنين والمؤمنات، فمنه»[3]«حق كالحد والتعزير ومنه باطل»[4]، كما أن «أذية الرسول صلى الله عليه وسلم ليست كأذية غيره؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا يؤمن العبد بالله، حتى يؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم وله من التعظيم، الذي هو من لوازم الإيمان، ما يقتضي ذلك، أن لا يكون مثل غيره، وإن كانت أذية المؤمنين عظيمة، وإثمها عظيمًا»[5]، ولهذا عقب بذكرها.

٥. بيَن سبحانه أن من يتجرأ على إيذاء الله عز وجل، وإيذاء رسوله صلى الله عليه وسلم عقابه «الطرد والإبعاد من رحمته، وجعل ذلك في الدنيا والآخرة؛ لتشملهم اللعنة فيهما، بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم، ومماتهم، إلا واللعنة واقعة عليهم، ومصاحبة لهم، وأعد لهم مع ذلك اللعن، عذابًا مهينًا يصيرون به في الإهانة في الدار الآخرة، لما يفيده معنى الإعداد من كونه في الدار الآخرة»[6].

ثانيًا: وفي موضع آخر نرى كيف يثبت الله نبيه صلى الله عليه وسلم ويسليه؛ ليتجاوز به آلام الأذى، ووقعها المحزن على النفس، فالأذى ليس سهلًا، حتى وإن كان مجرد تكذيب واتهام، ناهيك عن الأذى الجسدي، فقال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١١٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن، العز بن عبد السلام، ٢/ ٥٨٩.
(٣) الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٥٩.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٤٤.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٧١.
(٦) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٤٧.

﴿مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام:٣٣-٣٤].

وهنا نجد المواساة للنبي عليه الصلاة والسلام والتثبيت، والوعد بالنصر، فالمواساة لأنهم «لا يكذبونك في الحقيقة؛ وإنما يكذبون الله بجحود آياته»[١]، والتثبيت لأن هذا التكذيب حدث للأنبياء من قبلك، والوعد بالنصر حيث إنها إرادة الله التي لا مبدل لها، «فلما سلاه تعالى بأنهم بتكذيبك إنما كذبوا الله تعالى، سلاه ثانيًا بأن عادة أتباع الرسل قبلك، تكذيب رسلهم، وأن الرسل صبروا، فتأس بهم في الصبر»[٢].

ثالثًا: وفي موضع ثالث تعرض لنا الآيات بعض السلوكيات التي تصدر من بعض المسلمين، وتسبب أذىً للنبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب:٥٣].

فالآية تفصل في سلوك اجتماعي؛ يجب معرفة الصواب فيه، والتصرف بما هو لائق بخصوصه، فتبين كيفية التعامل مع بيوت النبي صلى الله عليه وسلم؛ من حيث دخولها أولًا، وتناول الطعام فيها ثانيًا، والتعامل المؤدب النظيف مع زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، وعليهن رضوان الله.

وقد كان ذلك لحادثة رواها البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: (لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا؛ فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت، فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٣] الآية)[٣].

وهذا تصحيح لسلوك خاطئ؛ أراد الله

(١) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ١٨.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٤٩٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (لا تدخلوا بيوت النبي)، رقم ٤٧٩١، ٦/ ١١٨.

سبحانه أن يعلمهم، ويعلم من بعدهم، فقد كانوا يجلسون عند النبي صلى الله عليه وسلم قبل الطعام، وبعد الطعام، يتحدثون عنده طويلًا، وكان يؤذيه ذلك، ويستحي أن يقول لهم قوموا، إذ أن دخول بيته بغير إذن، والقعود لانتظار الطعام، يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم فيستحي منهم أن يخرجهم منها، فيحتمل صلى الله عليه وسلم إطالتهم كرمًا منه، ويصبر على الأذى في ذلك، فعلم الله من يحضره الأدب، فصار أدبًا لهم ولمن بعدهم[(١)].

أما في مسألة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وهو أذىً آخر تحركت له حساسية عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما روى البخاري عن أنس، قال: قال عمر رضي الله عنه: قلت: (**يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب**)[(٢)]، فأذن الله «في مسألتهن من وراء حجاب، في حاجة تعرض، أو مسألة يستفتين فيها، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى، وبما تضمنته أصول الشريعة»[(٣)].

فالأمر إذًا ليس مقصورًا على أذى الكفار، بل هناك ممارسات يومية، قد تسبب الأذى للداعية، من المحيطين به، وعلينا أن نتبه لهذا، ونقوم سلوكنا نحو الأفضل؛ لا أن نكون مصدر إزعاج لبعضنا البعض.

موضوعات ذات صلة:

الاستهزاء، الثبات، الضر، الفتنة، المرض، المن

---

(١) انظر: البسيط، الواحدي، ١٨/ ٢٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (لا تدخلوا بيوت النبي)، رقم ٤٧٩٠، ٦/١١٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٢٢٧.





عناصر الموضوع



مفهوم الأرض

أولًا: المعنى اللغوي:

الهمزة والراء والضاد ثلاثة أصول، الأول كل شيء يسفل ويقابله السماء، والثاني الزكمة، يقال: رجل مأروض، أي: مزكوم، والثالث الرعدة، يقال: فلان به رعدة، أي: رعشة، والأصل الأول هو الذي يكثر تداوله، وأما الأصلان الآخران فلا ينقاسان بل يوضع كل واحد منهما حيث وضعته العرب، وكلمة أرض مفرد جمعها أرضون[١].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

بتتبع تعريفات الأرض اصطلاحًا، يلاحظ وجود ارتباط وثيق بين التعريف اللغوي الأول للأرض والتعريف الاصطلاحي لها، فكلمة الأرض تعني التربة، وتعني كذلك المكان الذي تستقر عليه القدم[٢]، وهذان المعنيان يرتبطان بالمعنى اللغوي الأول للأرض، فالتربة تقع في الأسفل بالنسبة للإنسان والحيوان والنبات وغيرهم، وكذا الأمر بالنسبة للمكان الذي تستقر عليه القدم، فالقدم لا تستقر إلا على ما هو أسفل منها.

وبالنظر في التعريفات الاصطلاحية للأرض يمكن القول أن أشمل هذه التعريفات هو ما ذكره علماء الجغرافيا والبيئة، وقد وضعوا لها التعريف الآتي:

«الأرض هي أحد الكواكب التسعة التي تدور حول الشمس، وهي الثالثة بالنسبة للقرب من الشمس، والثالثة من حيث درجة اللمعان إذا ما شوهدت من عند الشمس، والخامسة بين المجموعة الشمسية من حيث الحجم»[٣].

وعلى الرغم من شمولية هذا التعريف للأرض من الناحية الفلكية، إلا أنه يحتاج إلى إضافة بعض الأمور حتى يكون أدق وأشمل، وبالتالي فإن من الممكن القول بأن التعريف الأشمل والأدق للأرض اصطلاحًا هو: أحد الكواكب التي تدور حول الشمس، والذي هيأه الله تعالى ليكون الإنسان فيه خليفة، وليعيش عليه العديد من المخلوقات، وهو ثالث الكواكب من حيث القرب من الشمس، وهو الثالث من حيث درجة اللمعان، والخامس من حيث الحجم قياسًا بكواكب المجموعة الشمسية.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٨٠، المحكم، ابن سيده ١/ ٣٦٩.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد عمر ١/ ٨٤.
(٣) المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، محمد محمود محمدين ص ١٠٩.

الأرض في الاستعمال القرآني

وردت كلمة (الأرض) في القرآن الكريم (٤٦١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
معرفة	٤٥٩	﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣]
منكرة	٢	﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [يوسف:٩]

وجاءت كلمة الأرض في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الجرم المعروف المقابل للسماء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

الثاني: الجنة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر:٧٤].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٦- ٣٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهمزة ص ٥٣- ٦٣.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٥٣- ٥٦، الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان، ص١٥٨، ١٦٠، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، ص٧٦- ٧٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ السماء:

السماء لغة:

السماء في اللغة: يقال لكل ما ارتفع وعلا قد سما يسمو، وكل سقف فهو سماء، ومن هذا قيل للسحاب: السماء، لأنها عالية(١).

السماء اصطلاحًا:

سماء كلّ شيء: أعلاه، ومنه هذه السماء المعروفة التي فوقنا(٢).

الصلة بين الأرض والسماء:

صلة السماء بالأرض من حيث إن الأرض مهبط لما ينزل من السماء، والسماء مصعد لما يرفع إليها من الأرض، وقد ذكرتا مقترنتين في القرآن الكريم بألفاظ متقاربة في مواضع كثيرة.

قال ابن القيم: وأما الأرض فأكثر ما تجيء مقصودًا بها معنى التحت والسفل دون أن يقصد ذواتها وأعدادها، وحيث جاءت مقصودًا بها الذات والعدد أتى بلفظ يدل على البعد كقوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

وفرق ثان وهو أن الأرض لا نسبة لها إلى السموات وسعتها، بل هي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء فهي وإن تعددت وتكبرت فهي بالنسبة إلى السماء كالواحد القليل فاختير لها اسم الجنس(٣).

٢ الفلك:

الفلك لغة:

كل شيء دائر، والفلك مجرى الكواكب وتسميته بذلك لكونه كالفلك، قال الله عز وجل: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] وفلكة المغزل ومنه اشتق فلك ثدي المرأة، وفلكت الجدي إذا جعلت في لسانه مثل فلكة يمنعه عن الرضاع(٤).

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ١١٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٢٧.
(٣) بدائع الفوائد، ابن القيم ص ١٤٩.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٥٤، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٧٨.



الفلك اصطلاحًا:

والفلك واحد أفلاك النجوم. وفي حديث ابن مسعود: (تركت فرسي كأنه يدور في فلك). كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذي تدور عليه النجوم. قال ابن زيد: الأفلاك مجاري النجوم والشمس والقمر، وهي بين السماء والأرض[1].

الصلة بين الفلك والأرض:

الفلك جزء كبير تحت السماء الدنيا فيه كل ما يزينها من نجوم وكواكب، والأرض كوكب من تلك الكواكب السيارة في الفلك.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٨٦.

الأرض ودلائل التوحيد

إن من أبرز ما تميزت به الآيات القرآنية التي عنيت بذكر مخلوقات الله تعالى، وبعظيم صنعه جل وعلا في هذه المخلوقات هو الدعوة إلى الاعتقاد بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف، وبالأخص ما يتعلق من هذه المبادئ بمسألة التوحيد بأنواعه الثلاث (الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات)، وفيما يأتي بيان لما ركزت على إبرازه وتقريره الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الأرض من دلائل التوحيد:

١ . دليل على ربوبيته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

وقد استدلت هذه الآية القرآنية الكريمة على وحدانية الله تعالى من خلال تقريرها:

١ . ربوبية الله تعالى من خلال بيانها أنه سبحانه هو:

- الخالق للسماوات السبع التي أبهرت بعظمتها كل من تعرف على خصائصها.
- الخالق للأرض التي يعيش الناس عليها و فيها يجدون كل مستلزماتهم التي لا يستطيعون العيش بدونها.

٢ . بعضًا من أسماء الله تعالى وصفاته، والمتمثلة بأنه سبحانه:

- المتصف بالاستواء على العرش الذي يفوق كافة المخلوقات عظمة وجمالًا.
- المدبر للأمور جميعها.

٣ . وحدانية الله تعالى في ألوهيته.

وبذلك تكون الآية القرآنية قد بدأت بتقرير عقيدة توحيد الربوبية، ثم قررت بأنه سبحانه قد استوى على العرش، وأنه مالك التدبير، ثم ختمت بتوجيه الأمر للعباد بضرورة إفراد الله تعالى بكل صور العبادة[1].

٢ . دليل على قدرة الله تعالى على البعث والنشور.

قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٣- ٣٤].

استدلت هاتان الآيتان الكريمتان على قدرة الله تعالى على البعث والنشور من خلال الاستدلال بما هو مشاهد على ما هو غيبي غير مشاهد، فاستدلت على عقيدة البعث والنشور الغيبية، بحقيقة إحياء الأرض الميتة التي لا نبات فيها ولا حياة بعد نزول الأمطار عليها، فتصبح ذات زرع

(١) انظر: بيان التوحيد الذي بعث الله به الرسل، ابن باز ص١٧ .

وخضرة بعد أن كانت قاحلة لانبات فيها ولازرع.

وبالتالي فإن الآيتين الكريمتين قد استخدمتا الأرض لإثبات عقيدة البعث والإيمان بالآخرة استخدامًا يقنع ذوي الألباب بقدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة، فكما أن الله تعالى قد أحيا الأرض الميتة، فهو سبحانه سيحيي الأموات، وسيبعثهم من قبورهم للحشر والحساب.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٥-٧].

تبرهن هذه الآيات الكريمة على عقيدة الإيمان بالآخرة من خلال وصف حالتي الأرض قبل نزول الأمطار وبعدها، فالأرض في موسم الجفاف قبل أن ينزل عليها الغيث تكون هامدة، أي: يابسة لا نبات فيها ولا حياة[1]، أما بعد نزول الأمطار النافعة على ذات الأرض فإنها تصبح مصدرًا للحياة لما تخرجه من الزرع، وما تخزنه من الماء العذب، وعملية الإحياء هذه للأرض بعد موتها برهان على عملية البعث يوم القيامة؛ لأن الله تعالى الذي أخبر بأنه أحيا الأرض الميتة، وجعل ذلك واقعًا مشاهدًا للخلق هو الذي أخبر بأنه سيبعث الناس من قبورها للحساب في الآخرة، وهذا ما تم التأكيد عليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

يقول ابن أبي زمنين في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الحج:٦]: «إن الذي أخرج من هذه الأرض الهامدة ما أخرج من النبات قادرٌ على أن يحيي الموتى»[2].

٣. تسبيح الأرض.

مما لا شك فيه أن تسبيح المخلوقات جميعها لله سبحانه دليل على وحدانيته جل وعلا، فلو لم يكن سبحانه وحده الخالق الرازق المدبر لشؤون جميع المخلوقات لما سبحت له، ولما قدسته.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

و الأرض من ضمن المخلوقات العظيمة الخلق التي تسبح بحمد الله تعالى كما هو مبينٌ في الآية الكريمة.

(١) انظر: تحفة الأريب، أبو حيان الأندلسي ص٣٠٥.

(٢) تفسير القرآن العزيز ٣/ ١٧٢.

يقول سيد قطب في بيان معنى فاصلة الآية الكريمة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾: «وذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل هذا الموكب الكوني المسبح بحمد الله، بينما البشر في جحود وفيهم من يشرك بالله، ومن ينسب له البنات، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه. والبشر أولى من كل شيء في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد. ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر. ولكنه يمهلهم ويذكرهم ويعظهم ويزجرهم»[١].

٤. الله هو المالك المتصرف في الأرض.

أثبتت آيات الذكر الحكيم أن الله تعالى هو المالك المتصرف في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

وتعد ملكية الله تعالى للأرض والسماوات من أقوى الأدلة على وحدانيته جل وعلا؛ وذلك لأنه لو كان هنالك مالك لهما غير الله تعالى لفسدت أحوالهما.

قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٢].

وبالتالي فإن صلاح أمر الأرض والسماوات يعني أن المتصرف فيهما هو واحد أحد لا شريك له[٢].

٥. إحاطة علم الله تعالى بما في الأرض.

بينت آيات القرآن الكريم في غير موضع أن الله تعالى بكل شيء عليم، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النور: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

وتعد هذه الآيات الكريمة غيض من فيض إذا ما كان المراد هو الحديث عن اهتمام القرآن الكريم بصفة العلم الثابتة لله تعالى، ويعد علم الله تعالى بالأمور كلها وبالأخص ما يحدث منها على وجه الأرض

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣١.

(٢) انظر: معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، حسن الجمل ٣/ ٢٦٠.

من أقوى الأدلة على وحدانية الله تعالى، فلو أنه سبحانه لم يكن يعلم ما يحدث على الأرض للزمه شريك يزوده بما يخفى عليه من المعلومات حتى لا يقع في الظلم عند تقسيم الأرزاق، أوعند التشريع، أوعند الحساب، أو....إلخ، وبالتالي فلما ثبت للعباد قطعًا عدم وقوع الظلم من الله تعالى في أي أمر من الأمور، تبين أنه سبحانه واحد لا شريك له ولا مثيل.

٦. وراثة الله تعالى للأرض.

يعد انفراد الله تعالى بميراث السماوات والأرض من أبرز ما يدلل على وحدانيته جل وعلا، إذ لو كان معه إله غيره لقاسمه هذا الميراث، وبالتالي فإن تقرير آيات القرآن بتفرد الله تعالى بميراث السماوات والأرض دليل على وحدانيته جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وتقديم الجار والمجرور (لله) يأتي بغرض التخصيص، وبالتالي فلا منازع ولا شريك له سبحانه في الإرث للسماوات والأرض[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

يقول النسفي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «أي: نتفرد بالملك والبقاء عند تعميم الهُلْك والفناء»[2].

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٣٧٣.

(٢) مدارك التنزيل٢/ ٣٣٧، والهلك بمعنى الهلاك.

خلق الأرض

خلق الله تعالى الأرض وجعلها مهيأةً ليعيش عليها عباده، فوفر لهم فيها كل ما يلزمهم من مأكل ومشرب ومسكن وملبس و.....إلخ، وهذه النعمة لا تقتصر على العباد المكلفين وإنما تتعدى ذلك لتعم كافة المخلوقات التي تعيش على الأرض، وقد ذكر القرآن الكريم عدة خصائص زود الله تعالى بها الأرض حتى تكون صالحة لمعيشة ما عليها من مخلوقات، ومن هذه الخصائص ما يأتي:

١ . الرتق والفتق.

الرتق لغةً هو إصلاح الفتق[١]، أما الفتق فهو الشق[٢].

ذكر القرآن الكريم أن السماء والأرض كانتا رتقًا ففتقهما الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقد ذكر المفسرون ثلاثة أقوال في معنى الرتق والفتق هي:

أحدها: أن السماء كانت رتقًا لا تمطر، وأن الأرض كانت رتقًا لا تنبت، ففتق الله تعالى السماء بالمطر، وفتق الأرض بالنبات.

الثاني: أن السماء والأرض كانتا رتقًا، أي: متلاصقتين، ففتقهما الله تعالى.

الثالث: أن الله تعالى فتق الأرض من الأرض ست أرضين، فصار المجموع سبعًا، وأنه تعالى فتق من السماء ست سماوات، فصار المجموع سبعًا[٣].

وسواءٌ أكان المراد بالرتق والفتق هو واحد من المعاني الثلاثة السابقة الذكر، أو كان المراد بهما جميع المعاني الثلاثة السابقة، فإن الحاصل الآن هو أن السماء تمطر، والأرض تنبت، وأن السماوات سبعًا، وكذلك الأرض، وأن السماء والأرض منفصلتين، وهذه الأمور جميعها هي مما أنعم الله تعالى به على عباده.

٢ . المد والبسط والدحو.

المد في اللغة يعني الجذب والمطل، يقال: رجل مديد الجسد، أي: طويل[٤]، والبسط في اللغة يعني النشر[٥]، والدحو في اللغة يعني البسط[٦].

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى قد مد الأرض، وأنه قد بسطها، وأنه قد دحاها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٥/ ٣٣١.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٤/ ١٥٣٩.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ١٨٩.
(٤) انظر: المحكم، ابن سيده ٩/ ٢٨٧.
(٥) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٩/ ١٤٢.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٥١.

﴿فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩].

قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠].

والألفاظ الثلاثة كلها تدور حول المد والبسط.

فأما مد الأرض؛ فهو بسطها طولًا وعرضًا[١].

وأما بسطها؛ أي: جعلها ممهدة مهيأة للاستقرار[٢].

وأما دحو الأرض؛ أي: بسطها[٣].

وهذا المد والبسط للأرض من أعظم النعم، فلولا أن الله جعلها مبسوطة لما تمكن سكانها من التنقل بسهولة ويسر بين الأماكن المختلفة لقضاء الحاجات المتعددة، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩- ٢٠].

فجملة تسكنوا في قوله تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا﴾ في محل نصب مفعول لأجله، أي: أن الله تعالى قد بسط الأرض بغرض تمكين الناس من اتخاذ المسالك والطرق التي تربط بين الأماكن ذات الصلة بحاجاتهم.

٣. التذليل.

التذليل في اللغة: هو التسهيل[٤].

ذكر القرآن الكريم أن الله عز وجل قد ذلل الأرض.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقد ذكر المفسرون أن معنى كلمة ذلولًا الواردة في الآية الكريمة، أي: سهلة مهيأةً للمشي في طرقاتها[٥].

وبالنظر في آية الملك يمكن القول بأن الله تعالى لما من على عباده بأن جعل لهم الأرض مذللة، أعقب ذلك بـ:

- الأمر بالمشي وتحصيل الرزق، فالأمران مرتبطان مع بعضهما، فلو أن الله تعالى لم يذلل الأرض لشق على الناس التنقل في طرقاتها وبالتالي لشق عليهم أيضًا كسب أقواتهم وأرزاقهم.
- الدعوة إلى ضرورة توظيف هذه النعمة في طلب الرضا من الله تعالى، وذلك من خلال فاصلة الآية الكريمة، والتي قال تعالى فيها: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: المرد والمرجع يوم الدين، ويتحقق ذلك بالالتزام بما يأتي:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري١٦/ ٣٢٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢٣/ ٦٣٧.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٥٨.
(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي١/ ٢١٠.
(٥) انظر: لباب التأويل، الخازن٤/ ٣٢٠.

١. السعي لطلب الرزق بالحلال، وذلك امتثالًا لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

٢. إعطاء الطرقات حقوقها التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (إياكم والجلوس على الطرقات)، فقالوا: ما لنا بدٌّ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: (فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها)، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمرٌ بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر)[1].

٣. بالإضافة إلى لزوم التواضع أثناء المشي خلالها، وذلك تأدبًا بما أدب به لقمان الحكيم ابنه وهو يعظه.

قال تعالى حكاية لأحدى مواعظه لولده: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨ - ١٩].

٤. كما يضاف إلى ما تقدم ابتغاء العلوم النافعة من خلال السير في الطرقات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة)[2].

٥. إماطة الأذى عن الطريق، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضعٌ وسبعون - أو بضعٌ وستون - شعبةً، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان)[3].

٤ . السعة.

السعة في اللغة هي خلاف الضيق، والغنى.

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى قد جعل في الأرض السعة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

والسعة في هذه الآية بمعنى وفرة في الرزق، وتمكين للدين[4].

وتعد السعة من أعظم ما من الله تعالى به على عباده حيث تتيح الفرصة للمؤمنين للانتشار في الأرض والحصول على وسائل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب أفنية الدور والجلوس فيها، والجلوس على الصعدات، رقم ٢٤٦٥، ٣/ ١٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم، باب فضل طلب العلم، رقم ٢٦٤٦، ٥/ ٢٨.
قال الترمذي: حديث حسن.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم ٥٨، ١/ ٦٣.

(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٥٧.

التمكين والعزة، وتوظيف هذه الوسائل في بناء المجتمع المسلم الملتزم بأحكام الشريعة السمحة، كما كان المجتمع الذي بناه الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة.

٥. الزخرف والتزيين.

الزخرف في اللغة هو الذهب، والشيء المزخرف هو الشيء المزين[(١)]، والتزيين في اللغة هو التجميل[(٢)].

ذكر القرآن الكريم أن الأرض تتزخرف وتتزين وتتجمل.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ومعنى أخذت الأرض زخرفها وازينت، أي: تجملت بالنباتات والأزهار ذات الألوان الجميلة الزاهية[(٣)].

(١) انظر: مجمع بحار الأنوار، محمد طاهر الكجراتي ٢/ ٤٢٠.

(٢) انظر: مجمع اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر مختار ٢/ ١٠١٧.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٣٠.

الأرض والإنسان

خلق الله تعالى الأرض وجعلها مأوى للإنسان، ووفر له فيها كافة مستلزماته ومتطلباته من مأكل ومشرب وكسوة، كما أودع فيها من الكنوز ما يكفل للبشرية الرفاهية والسعادة، ولا تتوقف علاقة الإنسان بالأرض عند حد المعيشة فحسب وإنما تربطه بها عدة عناصر سيأتي بيانها بإذن الله تعالى فيما يأتي من مطالب.

أولًا: النشأة والخلق:

خلق الله تعالى الإنسان من طين الأرض.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ [ص: ٧١].

وقد وصف الله تعالى الطين في موضع آخر من كتابه العزيز بأنه طين لازب، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصافات: ١١].

والطين اللازب هو الطين اللزق[(٤)]، ومعلوم أن التراب هو أصل الطين، وأن التراب جزء من الأرض، أي: أن أصل الإنسان ونشأته من الأرض.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ

(٤) انظر: معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن الكريم، حسن الجمل ٣/ ٦٧.

﴿بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢].

يقول الخازن في بيان معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾: «يعني خلق أباكم آدم من التراب»[1].

وقال تعالى في بيان أصل الخلقة للإنسان: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٧-٩].

والمعنى: أي أن الله تعالى قد خلق آدم من من طين فلما نفخ فيه الروح صار لحمًا ودمًا وعظمًا[2]، ثم صار نسله من الماء الضعيف وهو عبارة عن مني الرجل والمرأة[3].

وهذه الخلقة العجيبة للإنسان تبرز مدى الارتباط بين الإنسان والأرض، فكما أن الأرض تحتوي على الماء والتراب، فإن الإنسان قد خلق من الطين الذي يحتوي على التراب والماء، وكما أن جسد الإنسان يحتوي على المواد الصلبة كالعظم، فإن الأرض تحتوي على أجزاء صلبة كالصخور، وكما أن جسد الإنسان يحتوي على المواد

(١) لباب التأويل ٤/ ٢١٢.
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٤٤٩.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤١٨.

السائلة كالدماء، فإن الأرض تحتوي عناصر سائلة كالماء وهكذا، كما بينت نصوص السنة أن العلاقة بين الإنسان والأرض تمتد إلى حد التشابه والتقارب، وأن الاختلاف في خصائص وصفات البشر إنما يعود إلى الاختلاف في خصائص وصفات العناصر التي تتكون منها التربة، وقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب»[4].

والترابط بين الأرض والإنسان لا تقتصر على المنشأ فحسب، وإنما يتعدى الأمر ذلك إلى المنتهى والمستقر بعد الموت.

قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

يقول الإمام الطبري في تأويل قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾: «وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم، فنصيركم ترابًا، كما كنتم قبل إنشائنا لكم بشرًا سويًا»[5]، كما يتعدى الأمر ذلك ليصل إلى الإخراج من القبور يوم القيامة للحساب، وهذا هو

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، رقم ٤٦٩٣، ٤/ ٢٢٢. وصححه الألباني.
(٥) جامع البيان ١٨/ ٣٢١.

المراد بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، يقول الإمام النسفي في بيان معنى الإخراج مرة أخرى: «والمراد بإخراجهم أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ويردهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر»[1].

مما سبق يمكن القول بأن علاقة الإنسان بالأرض هي علاقة قديمة قدم الإنسان نفسه حيث إن نشأته كانت منها، ومرقده عند موته يكون في باطنها، وبعثه يوم القيامة يكون من مكان قبره فيها.

ثانيًا: تهيئتها للسكن والاستقرار:

إن من أقوى الأدلة على وجود الله تعالى ورحمته عنايته بسائر مخلوقاته، وتتجلى عنايته جل وعلا بخلقه توفيره لهم كل ما يحتاجون إليه لشؤون بقائهم ومعيشتهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر خلق الله تعالى الجمل ووفر له ما يلزمه ليتمكن من العيش في البيئة الصحراوية القاسية كالسنام الذي يخزن فيه الغذاء، والأمعاء التي يخزن فيها المياه، والخف الذي يعينه على السير في الصحراء دون أن تغوص أقدامه في رمال الصحراء، وغير ذلك مما يسر له المعيشة في الظروف الصحراوية القاسية، ومن الأمثلة أيضًا أن الله تعالى لما خلق الإنسان

(١) مدارك التنزيل ٢/ ٣٦٩.

وفر له ما يحتاجه على هذه الأرض من مسكن وملبس ومأكل ومشرب ودواء وغير ذلك، وفيما يأتي تفصيل لبعض مظاهر تهيئة الله تعالى الأرض للإنسان:

أما عن المسكن والملبس.

فقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾

[النحل: ٨٠- ٨١].

والمعنى المستفاد من هاتين الآيتين هو أن الله تعالى يمن على عباده بأن جعل لهم من بيوتهم مأوى ومكانًا يستقرون فيه، كما جعل لهم الجلود التي يأخذونها من الأنعام بعد ذبحها بيوتًا كالخيام والفساطيط تنفعهم في حلهم وترحالهم، وجعل لهم كذلك من أشعار وأوبار هذه الأنعام أثاثًا وأمتعةً كالوسائد والبسط والأغطية وغير ذلك مما يعين الناس على قضاء حوائجهم المتعددة، كما يمن الله تعالى على عباده بأن جعل لهم مما خلق كالأشجار والأبنية والتلال أماكن يستظلون بها من شدة الحرارة، وأنه قد جعل

لهم كذلك من الجبال مواضع يسكنونها، كما جعل لهم ملابس تقيهم شدة الحر والبرد، وذلك كالملابس القطنية والصوفية وغيرها، وملابس تقيهم إصابات الحروب كالدروع وغيرها مما يتقى به من ضربات الأعداء[1].

وأما عن المأكل والمشرب.

فقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦].

وفي الآية الأولى يمن الله تعالى على عباده بأن يسر لهم اصطياد ما يقتاتون عليه من الأسماك وأنواع المأكولات البحرية من البحار[2].

وفي الآيات الآتية يمن الله تعالى على مريم عليها السلام بأن رزقها ماء يسري تحتها لتشرب منه، ورطبًا غضًا مكتمل النضج لتأكله[3]، ومن تمام فضل الله تعالى على عباده أن أحل لهم الطيبات، وجعلها كثيرة، وحرم عليهم الخبائث، وجعلها قليلة محدودة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويعتبر قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ نصًا فيما يحل ويحرم من الأطعمة، فلا عبرة لمن تلذذ بأكل ما حرم الله تعالى من المطعومات[4]، وقال تعالى أيضًا: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١].

فالحلال لا يحتاج إلى نص لمعرفة حله، بينما الحرام يحتاج إلى نص شرعي لمعرفة حرمته.

وتهيئة الله تعالى للأرض لا تقتصر عند توفيره جل علا المسكن والملبس والمأكل والمشرب بل تعدى الأمر ذلك ليشمل حتى الزينة.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

والمعنى أن الله تعالى يبين لعباده أنه ينبغي عليهم أن يتزينوا ويتجملوا بما أباح لهم من اللباس، وأن يتمتعوا بما أحله لهم مما يستطيبونه من المأكل والمشرب[5]،

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٩٣.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ١١٤.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٨٩.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٥٦.

وهذا مما يدلل على عظيم ما أنعم الله تعالى به على عباده.

ثالثًا: الاستخلاف فيها وعمارتها:

خلق الله تعالى الأرض، وجعل الإنسان فيها خليفة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ولتحقيق الخلافة في الأرض لابد من تحقق أمرين هما:

١ . العبادة الحقة.

ولا تتحقق العبادة الحقة إلا باخلاص النية فيها لله تعالى، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»[(١)]، وباتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأنهم مبعوثون من رب العزة جل وعلا منذرين ومبشرين.

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وقد أرسل الله تعالى رسله إلى أقوامهم خاصة، وأرسل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة، وقد جاء ذكر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهرٍ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً، وبعثت إلى الناس كافةً، وأعطيت الشفاعة»[(٢)].

ويتصل دور الأنبياء والرسل عليهم السلام بتحقيق العبادة الحقة، من خلال قيامهم بدور المعلم الذي يعلم العباد كيفية أداء العبادات التي يريدها الله تعالى منهم، وأحكامها، ومواقيتها، وكل ما يتعلق بها من أمور شرعية، وذلك ما دعا النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى توجيه الأمر للمسلمين من أمته بالاقتداء به عند قيامهم بأداء العبادات، ومن ذلك على سبيل المثال، أنه لما أراد أن يحج دعا الناس إلى الاقتداء به قائلًا: «لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»[(٣)]،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، ٤/ ٢٢٨٩، رقم ٢٩٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (جعل لي الأرض مسجدًا وطهورًا)، ١/ ٩٥، رقم ٤٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا، وبيان قوله صلى الله عليه وسلم: (لتأخذوا

لذلك فإنه لا ينبغي لمسلم أن يؤدي شيئًا من العبادات بطريقة تختلف مع الطريقة التي أدى بها النبي صلى الله عليه وسلم تلك العبادات، وأمر الناس بالالتزام بها، كما لا يجوز لمسلم أن يبتدع عملًا لم يأت به الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يؤديه على أنه من العبادات، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو ردٌّ»[1]، وبالتالي فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال ما كان غير موافق للشرع.

٢. عمارة الأرض.

وترتبط عمارة الأرض بطلب العلوم المختلفة، والله تعالى قد أودع في الأرض من السنن والقوانين التي يؤدي الكشف عنها، والتعرف على خصائصها، إلى ابتكار الصناعات والاختراعات المتعددة التي تعود بالنفع على البشرية، وقد أسند الله تعالى مهمة عمارة الأرض لعباده.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

والمراد باستعمار الله تعالى عباده في الأرض أنه أوكل إليهم مهمة العمارة والبناء والقيام بما يجلب النفع والسعادة للبشرية[2]، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقةٌ، وما سرق منه له صدقةٌ، وما أكل السبع منه فهو له صدقةٌ، وما أكلت الطير فهو له صدقةٌ، ولا يرزؤه أحدٌ إلا كان له صدقةٌ)[3].

والحديث يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حث العباد على بذل الجهود من أجل العمل على ما يعود بالنفع على كافة ما يدب على وجه الأرض.

رابعًا: النهي عن الإفساد فيها:

من أشد الأصناف ذمًا في القرآن الكريم هم الذين يفسدون في الأرض، وينشرون فيها الخراب والدمار.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

ويأتي هذا الذم الإلهي للمفسدين في الأرض؛ نظرًا لأن هؤلاء المفسدين يقومون بأعمال تتنافى مع الغاية التي خلق الله

مناسككم)، ٢/ ٩٤٣، رقم١٢٩٧.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ٣/ ١٨٤، رقم٢٦٩٧.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي٦/ ١٤٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، ٣/ ١١٨٨، رقم١٥٥٢.

تعالى من أجلها الإنسان على هذه البسيطة وهي الإصلاح والتعمير والصلة، وقد ذكر المفسرون لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ تفسيرات مفادها أن الخراب والفساد أمران مرتبطان بالمفسدين في الأرض، سواءً أكانوا ولاةً يحكمون، أو كانوا أناسًا عاديين، فإذا كانوا ولاةً فإنهم يفسدون من خلال أخذ الرشاوى، وظلم الناس بأكل الحقوق، وغير ذلك، وإذا كانوا أناسًا عاديين فإنهم يفسدون في الأرض من خلال أكل الربا، وتقطيع الأرحام، وسفك الدماء، وغير ذلك مما يغضب الله تعالى[1].

وقد جاءت الآية التالية لتبين نتيجة الإفساد في الأرض وهي الإبعاد عن رحمة الله تعالى[2]، ولتجنب هذه العقوبة المريرة لابد من امتثال العباد لأمر الله تعالى لهم، والذي يقضي بعدم الإفساد في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والمعنى أن الله تعالى ينهى عباده في هذه الآية الكريمة عن الإفساد في الأرض، سواءً بنشر الخراب والدمار، أو بالإعراض عن أحكام الشريعة الإسلامية، وذلك بعد أن أصلحها لهم بما أنعم به عليهم فيها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومركب، وبما بينه لهم من الشرائع والأحكام التي تنظم حياتهم وتجلب سعادتهم[3].

ومما يبرز مدى أهمية الإصلاح في الأرض ارتباط صلاح أحوال الأرض بإصلاح من عليها، وفساد أحوالها بفساد من عليها، ومن الأدلة على ذلك ما يأتي:

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

والمعنى أن الله تعالى يظهر لعباده أسباب سوء أحوال الأماكن التي يقع فيها ما حرم الله تعالى، وتتمثل هذه الأسباب باقتراف الناس للذنوب والمعاصي في تلك الأمكنة[4].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

تبين هذه الآية الكريمة أن الإيمان والتقوى هما السبيل إلى جلب البركات من السماء والأرض، وذلك من خلال استعمال أسلوب الشرط الذي يفيد امتناع تحقق الجواب (جلب البركات من السماء

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٤٥.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٦٢.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢١١.
(٤) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٢٧.

والأرض) لامتناع تحقق الشرط (الإيمان والتقوى)، وقد الله تعالى على هذا الأمر في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وبناءً على ما تقدم فإنه لابد للعباد من القيام بأمرين لتجنب سخط الله تعالى عليهم، وتبديل أحوالهم الحسنة بأحوال سيئة، وهذان الأمران هما:

١. تحقيق العبادة، وهو الغاية التي خلق الله تعالى الإنسان من أجلها، مع الإصلاح في الأرض وتعميرها، ومحاربة المفسدين فيها.

٢. المبادرة إلى التوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

تتحدث هاتان الآيتان الكريمتان عن أحد أشنع أصناف الذين يسعون في الأرض فسادًا، ويتمثل هذا الصنف في قطاع الطرق المحاربين لأولياء الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وذكرت الآية الأولى الحد الذي يقام على أولئك المفسدين في الأرض في حال القبض عليهم في الدنيا، كما ذكرت سوء عاقبتهم في الآخرة، ثم بينت الآية الثانية من يستثنى من أولئك المفسدين في الأرض، وهم التائبون الذين يبادرون إلى التوبة من قبل أن يلقى القبض عليهم ويقام عليهم حد الحرابة، فهؤلاء يقبل الله تعالى توبتهم، ويغفر لهم زلتهم[1].

خامسًا: توريث الأرض للصالحين:

بينت آيات القرآن الكريم في غير موضع أن الله تعالى يورث الأرض لعباده الصالحين الذين يعلون كلمته، ويطبقون شرعه، ويناصرون أولياءه، ويحاربون أعداءه، ومن هذه المواضع ما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ويتضح من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى قد قرر في شرائعه أن وراثة الأرض أمر يتوقف على إيمان وتقوى وصلاح ورثتها، ومن الشواهد التي تدلل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

(١) انظر: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ١/ ٣١٤.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧].

ومفاد الآيتين الكريمتين أن الله تعالى قد أورث المؤمنين الأرض التي كان يهود بني قريظة يسكنونها، وذلك عقب غزوة بني قريظة والتي كان سببها خيانة بني قريظة للرسول صلى الله عليه وسلم وتآمرهم مع الأحزاب ضد المسلمين، وبالتالي فإن فساد بني قريظة أدى إلى انتزاع أرضهم منهم، وتوريثها للمؤمنين الصالحين.

ومن الشواهد أيضًا قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

ومفاد هذه الآية الكريمة أن العبد التقي هو الذي يحصل على الإقامة والخلود في الجنة[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

[النور: ٥٥].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن الوعد الإلهي للمؤمنين الثابتين على دينهم المداومين على عمل الصالحات بالتمكين في الأرض، وقد يكون التمكين للأفراد كما حصل لنبي الله تعالى يوسف.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

وقد يكون للجماعات كما حدث مع الرسل وأتباعهم من المؤمنين لما صبروا على أذى الكافرين لهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾

[إبراهيم: ١٣-١٤].

سادسًا: السعي في الأرض:

من عناية الله تعالى بمن خلق على هذه الأرض أن جعلها ممهدةً مذللةً لهم.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وأمر الإباحة الذي وجهه الله تعالى لعباده بقوله: فامشوا في مناكبها، عقب منه سبحانه عليهم بتذليله الأرض لهم فيه بيان ارتباط التذليل للأرض بإمكانية المشي

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٤٦.

والسعي فيها، فتذليل الأرض يسر للعباد السعي فيها والتنقل بين أرجائها، وبما أن الله تعالى قد خلق العباد على هذه الأرض وأسند إليهم مهمتي العبودية والاستخلاف، فلابد أن يكون سعيهم في الأرض مقيدًا بما يرضي الله تعالى.

وقد أثنى الله تعالى على الذين يسعون في الأرض لينشروا فيها الخير والفضيلة، وفي المقابل ذم الذين يسعون فيها لنشر الفساد والرذيلة، وفيما يأتي عرض لبعض الآيات التي مدحت السعاة للخير، وذمت السعاة للشر:

أولًا: من الآيات التي امتدحت السعاة في الأرض بالخير.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

تذكر هذه الآية الكريمة حكاية رجل صالح أتى قومه ناصحًا لهم بأن يتبعوا هدي رسل الله تعالى، ويؤمنوا بربهم جل وعلا، فكانت عاقبته أن أكرمه الله بدخول الجنة جزاء سعيه بالخير.

قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وتتحدث هذه الآية الكريمة عن العاملين في هذه الدنيا خيرًا، وشكر سعيهم يكون بقبول حسناتهم، والتجاوز عن سيئاتهم[1].

قال تعالى في شأن المصلحين في الأرض: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

ثانيًا: من الآيات التي ذمت السعاة في الأرض بالشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن صنف ذميم من الناس، وهؤلاء هم الذين يحاربون أولياء الله تعالى، ويقطعون عليهم الطريق، فيروعونهم ويسلبونهم ويقتلونهم، وهؤلاء قد جعل الله تعالى لهم عقوبة في الدنيا وتتمثل في حد الحرابة، كما جعل لهم عقوبة في الآخرة وتتمثل في عذاب النار العظيم، وما ذلك إلا جزاءً على سوء سعيهم في الأرض[2].

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٢٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢٩.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن طغيان اليهود في الأرض، فهم الذين أساؤوا إلى ربهم جل وعلا، فنسبوا لله تعالى البخل على الرغم من أنهم يعيشون على أرضه، ويتقلبون في نعمه،كما تجاوزوا ذلك إلى نشر الفتن، والسعي في الأرض فسادًا، وهذا ما أدى إلى حلول الغضب الإلهي عليهم.

الأرض بين النعيم والعذاب

خلق الله تعالى الأرض لينعم الناس بالعيش عليها، مع العلم بأن العيش الطيب مشروط بالمداومة على الإخلاص في العبادة لله تعالى، والإحسان في العمل وفق ما أمر جل وعلا، يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وعلى الرغم من معرفة الناس لهذا الأمر إلا أن كثيرًا من الناس أعرضوا عن ذكر ربهم، فسلط الله تعالى عليهم المعيشة الضنك.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

ومن الناس من تمادوا في ظلمهم وطغيانهم حتى حق عليهم عذاب الله تعالى، فأزال الله تعالى ما بهم من نعمة وأهلكهم، وفيما يأتي نصوص من القرآن تؤكد حصول النعيم للمتقين، والعذاب للمفسدين:

أولًا: نعيم الله في الأرض:

لقد ركزت آيات القرآن على بيان ما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين من النعيم في الآخرة؛ وذلك لأن نعيم الدنيا لا يقارن أبدًا بنعيم الآخرة.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

ومع ذلك فإن آيات القرآن الكريم لم تغفل الحديث عما أكرم الله تعالى به عباده المؤمنين على الأرض في الدنيا، وفيما يأتي عرض لبعض تلك الآيات:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

تتحدث هذه الآية عن مصير المؤمنين الأتقياء، حيث يورثهم الله تعالى أرض الجنة جزاء حسن أعمالهم في الدنيا[(١)].

وقد تكرر على ألسنة الأنبياء عليهم السلام الوعد لأقوامهم بالتنعم في خيرات الأرض إن آمنوا واتقوا، ومن الآيات التي ذكرت ذلك:

قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وقد جاءت هذه الدعوة على لسان هود عليه السلام أثناء هدايته قومه[(٢)]، كما جاءت على لسان نوح عليه السلام دعوة مشابهة لقومه.

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقد بينت آيات القرآن الكريم أن التنعم في الأرض لا يقتصر على المؤمنين فحسب، وإنما يشمل غيرهم من الناس، ولكن الفرق بين تنعم المؤمنين وتنعم غيرهم أن الله تعالى يبدل نعمة غير المؤمنين إلى نقمة إذا استمروا وتمادوا في غيهم وطغيانهم، وذلك كما حدث لأصحاب القرون الأولى كعاد وثمود وغيرهم، بينما لا يحدث ذلك للمؤمنين، ولا يعني عدم حدوث النقمة للمؤمنين أن نعيم الدنيا دائم مستقر لهم، وإنما قد يصيبهم شيء من البلاء من باب الاختبار والامتحان لهم، وبيان صبرهم وثباتهم.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

ولكن ما يميز المؤمنين في فترة بلائهم أنهم يكونون على ثقة ويقين بأن الله تعالى معهم ينصرهم ويؤيدهم، وذلك راجع إلى أمرين هما:

- إيمانهم بأن الله تعالى سيجعل لهم بعد العسر يسرًا؛ لذلك فهم على ثبات رغم

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٦٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الإيجي ٢/ ١٨١-١٨٠.

ما بهم من بلاء، وقد جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: (كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[(1)].

- علمهم بما أعده الله تعالى لهم من جزيل الثواب ووفير الأجر على صبرهم وتحملهم في سبيله.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقد أخبر الله تعالى عن حال الصابرين في الآخرة في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

يقول الشوكاني في تفسير هذه الفاصلة من الآية الكريمة من سورة الزمر: «أي: يوفيهم الله أجرهم في مقابلة صبرهم بغير حساب»[(2)].

ثانيًا: عذاب الله في الأرض:

كثيرًا ما تحدثت آيات القرآن الكريم عن عذاب الله تعالى في الأرض، وهذا يدل على كثرة من أهلك الله تعالى من الأقوام الظالمة.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

ومن المعلوم أن التعاطي السلبي مع عوامل الفساد في الأرض يؤدي بشكل حتمي إلى الظلم والفساد، وهذا الأمر هو الذي تسبب في فساد الأمم وغفلتها ومن ثم هلاكها، وقد بين الله تعالى أنه لا يرضى لعباده الفساد والكفر والفجور، بل يرضى لهم الصلاح والاستقامة.

قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقد حذر ربنا جل وعلا من اتباع أهل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٤/ ٢٠١، رقم٣٦١٢.

(٢) فتح القدير ٤/ ٥٢١.

الغواية وعباد الشهوات.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وعلى الرغم من ذلك البيان والتحذير إلا إن أكثر الناس يتركون ما يرضى الله تعالى لهم من الخير، واتبعوا من يأمرهم بما لا يرضى لهم ربهم جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

فكانت النتيجة الحتمية نزول العذاب بهؤلاء الكفرة، وفيما يأتي صور من عذاب الله تعالى في الأرض:

١. خسف الله تعالى الأرض بقارون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٧٦ - ٨١].

وفيما يأتي عرض لما ذكرته الآيات الكريمة من عناصر الفساد التي خسف الله تعالى بسببها الأرض بقارون:

- البغي في الأرض بغير الحق، والتمادي في ظلم الضعفاء، ومحاولة إغوائهم.
- الفرح المذموم، والمراد به فرح البطر الذي ينسي أن المنعم هو الله تعالى، وأن الواجب على العبد هو شكر هذه النعمة[1].
- عدم الاستجابة لنصح الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من أهل العلم والصلاح والتقوى، واحتقارهم.
- إنكار فضل الله تعالى، والكفر به، ونسبة الفضل إلى الذات.
- عدم الاعتبار بما حل في أصحاب القرون السابقة ممن أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وكفرهم.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧١١.

- التكبر في الأرض، والمبالغة في إظهار الزينة بغية الإفساد في الأرض.

فكانت نتيجة ذلك كله أن خسف الله تعالى بقارون وبداره الأرض، والخسف هو: الذهاب في الأرض، وخسف الله الأرض بقارون وداره أي: غيبه فيها[1].

وقد استثنى الله تعالى أهل الإيمان من العذاب لوجود الدعاة الصالحين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقد أفصح القرآن الكريم في غير موضع عن استثناء الله تعالى لأهل الورع والتقوى من العذاب الذي ينزل بالمفسدين من أقوامهم، فعلى سبيل المثال: فقد أهلك الله تعالى قوم نوح عليه السلام، وأنجى نوحًا عليه السلام ومن معه في الفلك، وقد أهلك الله تعالى قوم لوط عليه السلام، وأنجى لوطًا عليه السلام ومن معه من المؤمنين، ولكن ومع ذلك إلا إنه قد يهلك الله قومًا وفيهم الصالحون، وذلك إذا عم الفساد.

فعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج يومًا فزعًا محمرًا وجهه، يقول: (لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بإصبعه الإبهام، والتي تليها، قالت فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[2].

٢. ومن قصص العذاب في الأرض ما حدث مع ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٨].

وفيما يأتي عرض لما ذكرته الآيات الكريمة من عناصر الفساد التي أهلك الله تعالى بسببها ثمود بالصيحة:

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، ٤/ ٢٢٠٨، رقم ٢٨٨٠.

١. إنكار ألوهية الله تعالى وحده.
٢. الإعراض عن اتباع الرسول الذي بعثه الله تعالى.
٣. التنكر لنعم الله تعالى عليهم.
٤. الاستكبار في الأرض بغير الحق.
٥. المجاهرة بالسوء.
٦. الغرور بالنفس، والاستخفاف بعذاب الله تعالى.
٧. سوء التعامل مع آيات الله تعالى الدالة على صدق رسوله.

وقد أدت هذه العوامل من الفساد إلى هلاك ثمود، كما أدت غيرها من العوامل إلى إهلاك أقوام آخرين، وبالتالي فإن الله تعالى قد أنعم على خلقه بوافر النعم، ولكنهم بدلوا هذه النعم بنقم أهلكتهم، وجعلتهم عبرة لمن بعدهم.

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٥٢ - ٥٤].

الأرض يوم القيامة

ذكر الله تعالى في غير موضع من كتابه العزيز آيات كريمة بين فيها أحوال الأرض يوم القيامة حيث تطرأ عليها تغيرات كبرى تبدل معلمها؛ وذلك التغيير يأتي تناسبًا مع هول الحالة التي يكون عليها الموقف يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ - ٢].

ومما ذكرته آيات القرآن الكريم من أحوال للأرض يوم القيامة ما يأتي:

١. الرج.

قال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤].

الرج لغةً: من رج الراء والجيم أصل يدل على الحركة المضطربة[1].

من الأحداث المهولة التي تحدث للأرض يوم القيامة أنها تهتز وتضطرب من شدة ذلك اليوم العظيم.

يقول الخازن في تفسير الآية الكريمة:

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٨٤، والمحكم، ابن سيده ٧/ ٢٠٢.

«أي: إذا حركت وزلزلت زلزالًا وذلك أن الله عز وجل إذا أوحى إليها اضطربت فرقًا وخوفًا»(1).

٢. الدك.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١].

الدك لغةً: من دك الدال والكاف أصلان أحدهما يدل على الانسطاح، يقال: الأرض الدكاء، أي: المنسطحة المستوية، والأصل الثاني يدل على الدق، يقال: دككت الشيء، أي: دققته(2).

ومن أهوال يوم القيامة التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز دك الأرض، أي: تحطيمها ودق أجزائها بأجزائها حتى تصير مستويةً(3).

٣. المد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣].

المد لغة: الميم والدال أصل واحد يدل على الزيادة والوصل والإطالة والجذب؛ يقال لما يكتب به مداد؛ لأنه يمد بالماء، ويقال أيضًا: رجل مديد الجسد، أي: طويل، وحرف المد هو الحرف الذي يزاد في صوته، والمدد للجيش هو ما يتم تزويد الجيش به من رجال وعتاد(4).

ومما ذكر القرآن من أحوال الأرض يوم القيامة أنها تمد، وذلك بمعنى أنه تزداد مساحة سطحها.

يقول الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾: «وإذا الأرض بسطت، فزيد في سعتها»(5).

٤. الزلزلة.

قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

الزلزلة لغةً: هو الهز والاضطراب بشدة، يقال: زلزل الشيء زلزلةً أو زلزالًا، ويقال زلزل الشخص، أي: أزعجه وخوفه وحذره(6).

وزلزلة الأرض تعني: أنها تتحرك وتضطرب بشدة حتى يتكسر كل ما عليها، ويخرج كل ما في باطنها(7).

٥. إخراج الأثقال.

قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢].

(1) لباب التأويل ٤/ ٢٣٤.
(2) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٥٩، جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ١١٤.
(3) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٦٧، تفسير جزء عم، مساعد الطيار ص ١٤٣.
(4) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٦٩، المحكم، ابن سيده ٩/ ٢٨٧.
(5) جامع البيان ٢٤/ ٢٣٢.
(6) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٢٠١، معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد عمر ٢/ ٩٩٠.
(7) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٤/ ٢١٥، الوسيط، الواحدي ٤/ ٥٤٢.

الثقل في اللغة هو: ميزان الشيء، يقال: ثقل الشيء ثقلًا فهو ثقيل، وثقل المسافر هو ما يحمله معه من متاع، وثقل مفرد جمعها أثقال[1].

وإخراج الأرض أثقالها يوم القيامة يعني: أن تقوم الأرض بإخراج ما فيها من أثقال وأحمال.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ [الانشقاق: ٣- ٤].

إلقاء الأرض ما بداخلها يشمل الموتى من المخلوقات وبالذات المكلفين منهم؛ وذلك لمحاسبتهم على ما قدموا في الحياة الدنيا[2].

وقد صرحت بذلك آيات القرآن الكريم في مواضع منها:

- قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس: ٥١- ٥٢].
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤].
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

٦. التبديل.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

التبديل لغةً: الباء والدال واللام أصل واحد يدل على التغيير وقيام الشيء مقام شيء آخر، بدل فلان موقفه تجاه أمر، أي: غير موقفه تجاهه[3].

تبديل الأرض يوم القيامة يعني: حدوث تغيرات كبرى تجعل منها أرضًا جديدةً غير الأرض التي عهدها الناس في الدنيا، وسواءٌ أكان التبديل للأرض بتغيير معالمها فقط، أو بتغيير ذاتها كليًا، وذلك على ما اختلف عليه المفسرون[4]، فإن الأمر بالنسبة للناس شديد الهول؛ لأنهم سيرون ما يجعلهم كالسكارى من شدة ما سيعاينون.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢].

(١) انظر: كتاب العين، الفراهيدي ٥/ ١٣٧.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٥٩٧.
(٣) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٣٠٠، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٢١٠.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٥.

لمسات إعجازية في الأرض

من الله تعالى على البشرية بكتاب معجز فيه ما يدل على صدق الوحي والنبوة مما لا يدع مجالًا لأي منصف نزيه يبحث عن الحق في أمور الدين والعقيدة إلا أن يقر بعلو منزلة هذا الكتاب، ثم يتبع هذا الإقرار بالإيمان بالله تعالى الذي أنزل هذا الكتاب، وبرسوله الذي شرح ووضح للناس تعاليم هذا الكتاب، ولابد لمن أراد التطرق إلى موضوع الإعجاز القرآني، أو ما يتصل به من جوانب، من أن يسرد تعريفات أهمها ما يأتي:

الإعجاز: هو في اللغة من العجز الذي بمعنى الضعف[1].

أما في الاصطلاح فهو بمعنى عدم قدرة القوم عن الإتيان بمثل المعجزة التي تحداهم بها نبيهم.

إعجاز القرآن: وهو عجز المكلفين جميعًا وفرادى عن معارضة معجزة القرآن الكريم[2].

وقد سجل الله تعالى ذلك العجز بقوله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ذكر العلماء للمعجزة عدة تعريفات منها:

١. تعريف الدكتور مساعد طيار: «آية النبي المختصة به، الخارقة للعادة، التي لا يقدر الخلق على الإتيان بمثلها، الدالة على صدق النبي تارة، وعلى غير ذلك تارة»[3].

٢. تعريف الأستاذ محمد معبد: «هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة»[4].

وبالنظر في التعريفين السابقين يمكن القول بأنهما لم يشتملا على كافة الجوانب التي تتوافر في المعجزة، وبالتالي فإن أدق وأشمل تعريف للمعجزة هو أمر خارق للعادة، يجريه الله تعالى على يد مدع النبوة، على وفق مراده، تصديقًا له في دعواه، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، وذلك كله في زمن التكليف بالنبوات.

وفيما يأتي عرض لبعض المواضع القرآنية ذات اللمسة الإعجازية، والدلالات العلمية والغيبية المبرهنة على صدق الوحي والنبوة:

قال تعالى: ﴿ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴾ [القمر: ١٢].

جاءت هذه الآية القرآنية الكريمة لتصف للعباد ما حدث لقوم نوح عليه السلام لما

---

(١) انظر: كتاب العين، الفراهيدي ١/ ٢١٥.
(٢) انظر: نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد معبد ص١٠١.
(٣) الإعجاز العلمي إلى أين؟ ص١٦.
(٤) نفحات من علوم القرآن ص١٠٢.

جاءهم عذاب الله تعالى في الدنيا عقب تكذيبهم لنبيهم.

وقد جاء الوصف القرآني في أبلغ صورة يمكن التعبير من خلالها عن الحالة التي كانت عليها الأرض حين حل العذاب بقوم نوح عليه السلام.

فالله تعالى قال: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾، ولم يقل: (وفجرنا عيون الأرض)، والسر في ذلك أن تقديم الأرض على العيون يبين أن كل الأرض انفجرت بالمياه، ولو قال: وفجرنا عيون الأرض، لما تفجرت المياه إلا من المواضع التي جعلها الله تعالى في الأرض عيونًا من قبل أن يحل العذاب بقوم نوح عليه السلام، وبالتالي لكان وصف العذاب أخف في التأثير على السامع[1].

وقال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: ٤].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

تقدم ذكر الأرض على السماوات في الآية رقم (٤) من سورة طه، بينما تقدم ذكر السماوات على الأرض في الآية رقم (١٢) من سورة الطلاق، وتقدم ذكر السماوات على الأرض راجع إلى أن تتمة خلق السماوات كان قبل دحو الأرض، وتقدم ذكر الأرض على ذكر السماوات راجع إلى أن الله تعالى قد بدء خلق الأرض قبل أن يسوي السماوات.

وقد ذكر القرآن الكريم أن خلق السماوات والأرض قد كان على مراحل.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ٩ - ١١].

وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾

[النازعات: ٢٧ - ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

وخلاصة ما بينته الآيات الكريمة أن الأرض قد خلقت في أربعة أيام، وأن السماوات قد خلقت في يومين، أما التفصيل فإن الله تعالى قد خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء فخلقها في يومين، ثم دحا الأرض في يومين[2].

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ص١٠٢.

(٢) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ٧/ ٣٢٦.

وقال تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: ٢-٥].

تتحدث الآية الثانية من سورة الروم عما جرى بين الفرس والروم حيث دخلتا في حرب غلبت على إثرها الروم مقابل الفرس، وقد انعكست هذه النتيجة إيجابيًا على نفوس المشركين فاستبشروا خيرًا، والسر في استبشارهم يرجع إلى نظرتهم لطبيعة طرفي القتال؛ فالفرس يعبدون النار وقد هزموا الروم وهم أهل كتاب، وبالتالي فقد رأى المشركون أن هذا الأمر يقاس عليهم، فهم عبدة أصنام والمسلمون حملة قرآن، وأي معركة ستدور بينهم وبين المسلمين ستكون النتيجة فيها لصالحهم كما حصل مع نظرائهم في المعتقد الفرس.

فجاءت هذه الآية لتخبر عما حدث، ثم جاءت الآية الثالثة لتخبر بما سيحدث بين الفرس والروم من جديد، وذلك أنه ستحدث معركة أخرى خلال سنوات معدودة وستكون النتيجة فيها لصالح الروم، فأبطل بذلك استنتاج المشركين، وخاب ظنهم، ثم جاءت الآيتان التاليتان من سورة الروم لتنسفا بشرى المشركين وتبدلانها بخيبة أمل كبيرة، حيث إنهما أخبرتا بأن الله تعالى سينصر عباده المؤمنين على أعدائهم المشركين من كفار قريش في المستقبل، وقد تحقق انتصار المسلمين فعلًا عقب نزول هذه الآيات حين حدثت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة[1].

وقد دلت آيات سورة الروم على صدق الوحي والنبوة من خلال أمور هي:

- الإخبار بأن المكان الذي دارت فيه المعركة بين الفرس والروم، والذي غلبت فيه الروم هو أدنى بقعة على سطح الأرض، ويقع بين العراق والشام، وينخفض عن مستوى سطح البحر بعمق٣٩٥م، وهذا ما لم يكن مكتشفًا بالوسائل التي كانت معروفة زمن نزول القرآن[2].
- الإخبار بأن الروم سيخوضون حربًا مع الفرس خلال سنوات معدودات، وسيكون النصر فيها حليفًا للروم، وهذا ما حدث بعد نزول آيات سورة الروم ببضع سنين، وبالتالي فلو لم يكن القرآن من عند الله تعالى لما تمكن أحد من الإخبار بما سيحدث مستقبلًا.
- بشارة الله تعالى للمؤمنين بالنصر على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٦.
(٢) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي ٢/ ٦٣٦.

المشركين قبل حصول غزوة بدر، وهذا أيضًا من الغيب الذي لا سبيل لمعرفته إلا من خلال الوحي.

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠].

تمثل هذه الآية الكريمة وصفًا علميًا لهيئة الأرض، فالأرض وإن كانت منبسطة فهي بيضاوية أيضًا، وانبساطها مع بيضاويتها راجع إلى اتساعها وكبر حجمها، وقد أثبت العلم أن الأرض تشبه البيضة، فهي عبارة عن كرة منبعجة من وسطها كما البيضة تمامًا[١].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

تتحدث هذه الآية الكريمة عن الأرض والسماوات حيث كانتا عبارة عن كتلة واحدة يتصل بعضها ببعض على هيئة دخان أو جزيئات غازية، ثم انفصلتا عن بعضهما البعض، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة قبل أن يكتشف العلماء ذلك بقرون عديدة، وما يؤكد أن السماوات والأرض كانتا عبارة عن دخان أو سديم قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت: ١١].

وقد أثبت العلماء حديثًا أن الكون قد تكون من مواد غازية[٢].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، البحر، الجبال، السماء، الماء، النبات

(١) انظر: الإعجاز العلمي إلى أين؟، مساعد الطيار ص١٢١.

(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص٣٧١.



عناصر الموضوع

مفهوم الاستئذان

أولًا: المعنى اللغوي:

الهمزة والذال والنون أصلان أحدهما أذن كل ذي أذنٍ، والثاني العلم، وهو من استأذن يستأذن استأذانًا، والاستئذان يعني طلب الحصول على الإذن، واسم الفاعل مستأذِن، واسم المفعول مستأذَن، وإذن مفرد جمعها أذون، يقال: أذن له في الدخول أي: سمح وأباح له الدخول، والأذان هو الإعلام، وبالتالي فالمقصود بالاستئذان هو طلب السماح والإباحة والرخصة والإعلام[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني في تعريف الإذن: هو «فك الحجر وإطلاق التصرف لمن كان ممنوعًا شرعًا»[2].

والتعريف الأدق للإذن هو: السماح باعتقاد الشيء، أو قوله، أو فعله مع إمكانية ترتب ثواب أو عقاب على إتيان المأذون به، أو تركه.

وبالتالي يكون تعريف الاستئذان اصطلاحًا: طلب السماح باعتقاد الشيء، أو قوله، أو فعله مع إمكانية ترتب ثواب أو عقاب على إتيان المأذون به، أو تركه.

مما سبق يظهر الترابط الوثيق بين تعريفي الاستئذان اللغوي والاصطلاحي، فكلاهما ضمن إطار السعي للحصول على الرخصة، والإباحة، وعدم الممانعة.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٧٥، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ١/ ٧٧- ٧٩.
(٢) التعريفات، ص١٦.

الاستئذان في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (أ ذ ن) في القرآن الكريم (١٣٣) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة:٨٦]
الفعل المضارع	٩	﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب:١٣]

وجاء الاستئذان في القرآن بمعناه في اللغة وهو: طلب الإذن[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٥-٢٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٧١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإباحة:

الإباحة لغة:

من بوح، والباء والواو والحاء أصل واحد وهو الظهور، والإباحة مفرد، وهي ضد المحظور، وهي مصدر أباح، يقال: أباح الشيء: أي أحله، ويقال: أباح السر: أي أظهره ونشره وجهر به، ويقال: أباح الفعل: أي سمح وأجاز الإتيان به، والإباحة: هي التخيير بين الفعل والترك[(١)].

الإباحة اصطلاحًا:

هي السماح بإتيان الفعل دون قيد أو شرط[(٢)].

الصلة بين الاستئذان والإباحة:

تستخدم كلمة استئذان لكل ما يتم طلب السماح به عن طريق السماع، أما كلمة إباحة فتستخدم لما يسمح به عقلًا أو سماعًا[(٣)].

٢ الإجازة:

الإجازة لغة:

من جوز الجيم والواو والزاء أصلان أحدهما يدل على قطع الشيء والآخر يدل على وسطه، والإجازة مصدر أجاز، والإجازة مفرد وجمعها إجازات، والمقصود بها: الإذن أو الرخصة[(٤)].

الإجازة اصطلاحًا:

هي رفع الحرج عن إتيان الفعل[(٥)].

الصلة بين الاستئذان والإجازة:

الاستئذان: هو طلب السماح بالفعل قبل إيقاعه، أما الإجازة: فهي السماح بالفعل بعد إيقاعه[(٦)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس١/ ٣١٥، تاج العروس، الزبيدي٦/ ٣٢٣، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ١/ ٢٦٠.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٨.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري١/ ٢٢٨.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس١/ ٤٩٤، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر٢/ ٤٢٠.
(٥) انظر: فصول البدائع، شمس الدين الفناري ٢/ ٣٥.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٣٣.

٣ الاستئناس:

الاستئناس لغة:

من أنس الهمزة والنون والسين أصلٌ واحد، والاستئناس من أنس يأنس فهو آنس، وهو طلب الأنس، ومعنى أنس: ظهر، وألف، واطمأن، يقال: أنس بفلان، أي: اطمأن إليه[١].

الاستئناس اصطلاحًا:

هو عبارة عن السكينة الحاصلة من جهة المجالسة[٢].

الصلة بين الاستئذان والاستئناس:

يظهر من خلال تعريفي الاستئذان والاستئناس أن الاستئذان هو طلب الإذن، بينما الاستئناس هو طلب الطمأنينة، وإذا أريد بالاستئناس طلب الإذن، فهذا يعني أن يكون الطلب مصحوبًا بالطمأنة للمستأذن.

٤ المنع:

المنع لغة:

من منع الميم والنون والعين أصل واحد، والمنع من منع يمنع منعًا، أي: حرم، يقال: منعه من السفر، أي: حرمه إياه، ويقال: منع الشرع التدخين، أي: حرم الشرع التدخين، والمقصود بالمنع الحرمان والتحريم والصد والحجب والإمساك[٣].

المنع اصطلاحًا:

هو عدم السماح بإتيان الممنوع[٤].

الصلة بين الاستئذان والمنع:

بالنظر في تعريفي الاستئذان والمنع يمكن القول بأن الفارق بينهما هو أن الاستئذان هو طلب السماح بإتيان المأذون فيه، بينما المنع فهو عدم السماح بإتيان الممنوع.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٥، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ١/ ١٢٨.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي، ص١١٥.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس٥/ ٢٧٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢١٢٨.
(٤) انظر: تفسير ابن عرفة، ٣/ ٧٧.

الاستئذان لدخول البيوت

مما يدركه كل عاقل أن البيت هو مكان الراحة والسكون والتستر وقضاء الحاجات المتعددة، وبالتالي فإن الإنسان يعمل في بيته الكثير مما يواريه عن أنظار الآخرين؛ لذلك فقد جعل الله تعالى أحكامًا وآدابًا خاصة تضمن عدم التعدي على خصوصيات الآخرين عند دخول بيوتهم، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: الاستئذان لدخول بيوت الآخرين:

١ . البيوت المسكونة.

شرع الله تعالى لعباده جملة من آداب الاستئذان عند الرغبة في دخول بيوت الآخرين، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٧-٢٨].

ينهى الله تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين عباده عن دخول بيوت الآخرين إلا بعد الحصول على الإذن منهم للدخول إلى بيوتهم، والتسليم عليهم، ثم يوجه الله تعالى عباده إلى عدم الدخول في حال لم يجدوا أحدًا في البيوت التي قصدوها للزيارة أو غير ذلك، ويوجههم كذلك إلى الرجوع في حال طلب أصحاب تلك البيوت منهم ذلك[١].

ويستفاد من الآيتين السابقتين جملةً من الآداب، منها:

١ . عدم جواز دخول بيوت الغير إلا بعد الحصول على موافقتهم.

٢ . السلام قبل الاستئذان أو بعده.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

والمعنى أن الله تعالى ينهى عباده عن دخول بيوت الآخرين إلا بعد الاستئذان والسلام على أهل تلك البيوت[٢].

ويلاحظ أن الله تعالى قد عطف جملة (تسلموا) على جملة (تستأنسوا) باستخدام حرف العطف (الواو)، ومن المعلوم أن الواو كحرف عطف إنما تفيد العطف والمشاركة[٣]، وهذا يعني أن السلام قد يسبق الاستئذان، وقد يلحقه، فمن ذهب إلى

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٥٤٠-٥٤٢.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٠٧.

(٣) انظر: أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك، ابن هشام ٣/ ٣١٧.

أن الاستئذان يسبق السلام يكون قد وافق الترتيب الوارد في الآية الكريمة من سورة النور.

ومن ذهب إلى أن السلام يسبق الاستئذان يكون قد وافق ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه فيمن يستأذن قبل أن يسلم قال: **(لا يؤذن له حتى يبدأ بالسلام)**[1].

وقيل: إذا وقع بصر المستأذن على أحد أفراد البيت المقصود قدم السلام، وإلا فيقدم الاستئذان[2].

٣. عدم جواز النظر إلى عورات البيوت، وقد حرص الإسلام على التيسير على الناس عند قضائهم لحوائجهم المختلفة دون التسبب بالأذى أو الإحراج للآخرين، ومن ذلك تشريعه خلق غض البصر عما لا يليق بالمؤمن أن ينظر إليه.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣٠-٣١].

ومما لا يخفى على أحد ما لغض البصر من فوائد جمة، أهمها: تهذيب النفس، وتوطيد العلاقات بين أفراد المجتمع، وتعويد الأفراد على المحافظة على خصوصية الآخرين، وعدم التسبب بالإحراج لهم.

والمناسبة بين آيتي غض البصر وما قبلها من الآيات التي فصلت أحكام الاستئذان هي:

لما شرع الله تعالى أحكام الاستئذان لدخول بيوت الآخرين، ناسب أن يضبط الاستئذان بآداب، منها: غض البصر عن النظر إلى ما لا ينبغي للمؤمن أن ينظر إليه حين دخوله إلى بيوت الغير.

وجاء في السنة المطهرة عن سهل بن سعدٍ، قال: اطلع رجلٌ من جحرٍ في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، ومع النبي صلى الله عليه وسلم مدرًى يحك به رأسه، فقال: **(لو أعلم أنك تنظر، لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر)**[3].

والحجر هو الثغر، والحجر جمع حجرة، والمدري حديدة يمشط بها الشعر[4].

يقول البقاعي: «إياكم ومشتبهات الأمور، فإذا وقفتم للاستئذان فلا تقفوا تجاه الباب،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب الاستئذان غير السلام ص٣٦٦، رقم ١٠٦٦. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن٣/ ٢٩١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر ٨/ ٥٤، رقم ٦٢٤١.

(٤) انظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني ٢٢/ ٨٣.

ولكن على يمينه أو يساره؛ لأن الاستئذان إنما جعل من أجل البصر، وتحاموا النظر إلى الكوى التي قد ينظر منها أحد من أهل البيت ليعرف من على الباب: هل هو ممن يؤنس به فيؤذن له، أو لا فيرد»[1].

٤. عدم جواز تخويف الآخرين عند قصد بيوتهم، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

والاستئناس هو طلب الأنس[2]، وحصول الأنس إنما يكون في التلطف عند الاستئذان، والتسليم على من في البيوت المدخول فيها، وبالتعريف بالذات، وبتحديد الغرض من الزيارة وغير ذلك من الأمور التي تدخل الأنس لأصحاب البيوت المراد دخولها، وقد علم الله تعالى هذا الأدب الرفيع للملائكة عليهم السلام حين أرسلهم إلى نبيه إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٥١-٦٠].

توضح هذه الآيات أن الملائكة عليهم السلام سلموا على إبراهيم عليه السلام حينما أرسلهم إليه ربهم جل وعلا، ثم ساقوا له البشرى، ثم عرفوه بما أسند إليهم من مهمات بخصوص قوم لوط المجرمين، وطمأنوه على سلامة نبي الله لوط عليه السلام من العذاب الذي سيحل بقومه[3].

٥. وجوب الإحسان إلى الضيف الذي أحسن الاستئذان، ويتمثل ذلك الإحسان فيما يأتي:

- وجوب رد التحية بمثلها أو بما هو أحسن منها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

وقد علم ربنا جل وعلا عباده حسن الرد على التحية من خلال بيان أفضلية سلام نبيه إبراهيم عليه السلام من سلام الملائكة الذين أرسلوا إليه على هيئة ضيوف.

قال تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥].

(١) نظم الدرر، ١٣/ ٢٥٢.
(٢) انظر: معجم وتفسير لغوي لألفاظ القرآن، حسن الجمل ١/ ١٢٠.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٥٤٩.

فسلام الملائكة يقدر بـ (نسلم سلامًا) فجاء على تقدير وجود الفعل (نسلم)، بينما رد إبراهيم عليه السلام للتحية فجاء بالاسم (سلام) أي: سلامٌ ثابتٌ، ومن المعلوم أن الخطاب بالاسم يدل على الثبوت بينما الخطاب بالفعل يدل على التجدد[1].

- وجوب إكرام الضيف، وقد علمنا ذلك ربنا جل وعلا من خلال بيان سلوك نبيه إبراهيم عليه السلام مع ضيفه.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٦].

كما علمنا ذلك الخلق الرفيع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)[2].

- في حال عدم التمكن من استقبال الضيف فيجب أن يكون رده حسنًا.

٦. في حال عدم حصول المستأذن على الإذن لدخول البيت المقصود بالزيارة فعليه أن يرجع، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المقام: **(إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له، فليرجع)**[3].

٧. عدم جواز الدخول إلى البيوت المأهولة بالسكان أثناء فترة غيابهم عنها.

٨. مراعاة حال أهل البيت عند الاستئذان، ومما لا شك فيه أن أحوال العباد في تقلب مستمر، وبالتالي فقد يكون المرء في حال لا يمكنه من مخالطة الناس ومجاملتهم، وقد حصل ذلك فعلًا مع نبي الله لوط عليه السلام.

وقد حكى القرآن الكريم قصة ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣].

والمعنى أنه قد أصاب لوط عليه السلام الهم والضيق لما بعث الله تعالى إليه الملائكة على هيئة ضيوف؛ لخوفه من أن يخزيه قومه في ضيفه، فما كان من الملائكة إلا أن طمأنوه وبشروه بالنجاة هو ومن صلح من أهله من الهلاك الذي سيحل بقومه الفجرة[4].

ويفهم من قصة لوط عليه السلام أنه

(١) انظر: المصدر السابق ١١/ ٦٥٤٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ٨/ ١١، رقم ٦٠١٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب الاستئذان، ٣/ ١٦٩٤، رقم ٢١٥٣.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٥٢، فتح البيان، القنوجي ١٠/ ١٨٩.

ينبغي على الناس مراعاة الظروف التي يمر بها الآخرين والتي قد تكون عصيبة في كثير من الأحيان.

ومن هذا الباب دعا القرآن الكريم الزائرين إلى عدم الإلحاح على الآخرين عند الاستئذان منهم لدخول بيوتهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨].

ويفهم من الآية الكريمة أنه في حال لم يُسمح للمستأذن بالدخول وطلب منه الرجوع، فعليه أن يلبي دون انزعاج؛ وذلك مراعاة لأحوال أهل البيت المقصود بالزيارة[١].

يقول سيد قطب رحمه الله: «ارجعوا دون أن تجدوا في أنفسكم غضاضة، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم، أو النفرة منكم. فللناس أسرارهم وأعذارهم. ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملابساتهم في كل حين»[٢].

وقد علم رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم أدب مراعاة أحوال الناس عند زيارتهم فقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيدٍ الخدري، قال: كنت في مجلسٍ من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى كأنه مذعورٌ، فقال: استأذنت على عمر ثلاثًا، فلم يؤذن لي فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فليرجع**). فقال: والله لتقيمن عليه ببينةٍ، أمنكم أحدٌ سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبي ابن كعبٍ: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم فقمت معه، فأخبرت عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك[٣].

ويفهم من هذا الحديث الشريف أنه لا بد من أن يراعى عند الاستئذان أمران، هما:

١. أن يكون الاستئذان مسمعًا؛ ولذا كان التكرار ثلاثًا.
٢. عدم الإلحاح في طلب الإذن؛ ولذا كان الأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجوع في عدم إعطاء الإذن بعد الاستئذان ثلاثًا.

٢. البيوت غير المسكونة.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥١٨، لباب التأويل، الخازن٣/ ٢٩١.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٠٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثًا، ٨/ ٥٤، رقم٦٢٤٥.

﴿تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور: ٢٩].

يبين الله تعالى لعباده أنه يباح لهم الدخول إلى البيوت الغير مسكونة بسبب ترك أصحابها لها، وذلك للانتفاع بها من خلال النوم فيها، أو تناول الطعام بداخلها أو غير ذلك من الحاجيات المأذون بها شرعًا[1].

ويستفاد من الآية السابقة جملةً من الآداب، منها:

- يجب تحري المباحات في حال طلب الانتفاع بالبيوت غير المسكونة، والحذر من استخدامها في المحرمات، يفهم ذلك من قوله تعالى في فاصلة الآية التي تحدثت عن جواز الانتفاع بالبيوت غير المسكونة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، فذكر الله تعالى ذلك ليحذر المؤمنون من استغلال تلك البيوت لارتكاب المحرمات[2].
- من الأدب المحافظة على البيوت الغير مسكونة صالحة لانتفاع الآخرين بها بعد الانتفاع بها لقوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾.
- جواز الدخول إلى الأماكن العامة دون استئذان؛ لكون هذه الأماكن معدة لاستقبال الزوار في جميع الأوقات التي تفتح هذه الأماكن أبوابها.

ثانيًا: الاستئذان داخل البيت بين أفراد الأسرة وخدمهم:

١. إذا كانت الأبواب مفتوحة قبل البلوغ.

علم الله تعالى عباده ضرورة المحافظة على نعمة الولد، ومن ذلك تعويدهم على عدم النظر إلى العورات، وعلى التأدب عند دخول الغرف، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨].

يوجه الله تعالى في هذه الآية الكريمة عباده المؤمنين إلى ضرورة تعليم العبيد والإماء والأطفال الصغار الذين لم يبلغوا سن الاحتلام أدب الاستئذان في أوقات ثلاث، الأول وقت ارتداء الثياب قبل صلاة الفجر، والثاني وقت القيلولة حين يكون تخفيف الملابس وقت الظهيرة، والثالث في موعد النوم بعد صلاة العشاء، ثم بين الله تعالى أن الأوقات الثلاثة المذكورة هي

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٩١.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٥٤٣.

أوقات عورة، أما في غير هذه الأوقات فلا داعي للاستئذان عند الدخول إلى الغرف ما دامت الأبواب مفتحة، فهي أوقات حركة وتنقل ومخالطة بين الآباء وأولادهم، وكذا بين الأسياد وعبيدهم.

ويستفاد من الآية السابقة ما يأتي:

١. جواز دخول العبيد والإماء والأطفال الصغار الذين لم يبلغوا سن الحلم على أسيادهم وأوليائهم دون استئذان في جميع الأوقات عدا الأوقات الثلاث التي ذكرتها الآية الكريمة.

٢. ضرورة تعويد الأطفال على عدم النظر إلى العورات والمحرمات عمومًا حتى يسهل عليهم التحلي بخلق غض البصر عند البلوغ، وهذا ما عود عليه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين، فعن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: «أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل بن عباسٍ يوم النحر خلفه على عجز راحلته، وكان الفضل رجلًا وضيئًا، فوقف النبي صلى الله عليه وسلم للناسِ يفتيهم، وأقبلت امرأةٌ من خثعم وضيئةٌ تستفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطفق الفضل ينظر إليها، وأعجبه حسنها، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده فأخذ بذقن الفضل، فعدل وجهه عن النظر إليها، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله في الحج على عباده، أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: (نعم)[١]

.

٣. ضرورة عدم إزعاج الغير في الأوقات التي تخصص للراحة بالعادة، فإذا كان من الواجب على الأطفال والعبيد والإماء أن يستأذنوا قبل الدخول على أوليائهم، فكيف بغيرهم من الناس.

٤. ضرورة مخالطة الآباء لأبنائهم، والأسياد لعبيدهم وإمائهم؛ من أجل تربيتهم على الأخلاق الطيبة، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، وكيف للطفل أن يتعلم آداب الاستئذان إذا لم يتلق ذلك عن والديه، وكذا الأمر بالنسبة للعبد والأمة فيجب على الأسياد أن يخصصوا الأوقات الكافية لتعليمهم وتعويدهم على محاسن الأخلاق.

٥. ضرورة الإحسان عند اختيار الزوج أو الزوجة، فكيف للأب والأم أن يعلما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب ٨/ ٥١، رقم٦٢٢٨.

الأبناء محاسن الأخلاق إذا لم يكونوا ذوي أخلاق حسنة، وفي هذا المقام يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض، وفسادٌ عريضٌ)(1). هذا عند اختيار الزوج، أما عند اختيار الزوجة، فقال صلى الله عليه وسلم: (تنكح المرأة لأربعٍ: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك)(2)، فكلا الحديثين الشريفين يحثان على اختيار ذي الخلق للزواج، وذلك حرصًا على إنتاج جيل صالح.

٢. إذا كانت الأبواب مفتوحة بعد البلوغ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩].

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يجب على الأبناء الذين بلغوا سن الحلم أن يلتزموا خلق الاستئذان قبل دخولهم إلى غرف آبائهم أو إخوانهم، سواءٌ أكانت الأبواب مفتوحة أو مغلقة، وذلك في جميع الأوقات(3).

ويستفاد من الآية السابقة ما يأتي:

١. وجوب استئذان الأطفال والرقيق على آبائهم وأسيادهم إذا بلغوا سن الحلم.

٢. وجوب استئذان البالغين من أفراد الأسرة عند دخولهم على بعضهم البعض، فقد جاء عن عطاءٍ قال: سألت ابن عباسٍ فقلت: أستأذن على أختي؟ فقال: نعم. فأعدت فقلت: أختان في حجري وأنا أمونهما وأنفق عليهما أستأذن عليهما؟ قال: نعم أتحب أن تراهما عريانتين؟! ثم قرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [النور: ٥٨]. قال: فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا في هذه العورات الثلاث. قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩]. قال ابن عباسٍ: فالإذن واجبٌ. زاد بن جريج: على الناس كلهم(4).

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، ٣/ ٣٨٦، رقم١٠٨٤.
وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ٧/ ٧، رقم٥٠٩٠.

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٢٠٨-٢٠٧.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب

٣. من السنة للزوج أن يعلم زوجته بإرادته الدخول عليها من خلال التنحنح أو الطرق على الباب أو ذكر الله تعالى أو غير ذلك من سبل الإعلام، وذلك كي تستعد الزوجة لاستقبال زوجها بصورة تدخل السرور إلى قلب الزوج، وقد جاء عن الإمام أحمد بن حنبل أنه استحب لمن دخل على زوجته أن يتنحنح[(١)].

٤. ضرورة الإقرار بكمال علم الله تعالى وحكمته من خلال التأمل في عظمة تشريعاته، والتي منها خلق الاستئذان.

٣. إذا كانت الأبواب مغلقة في أي وقت، وفي أي سن، قبل البلوغ أو بعده.

شرع الله تعالى خلق الاستئذان حتى لايقع البصر على ما لا يحل النظر إليه من العورات، وقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**)[(٢)].

ومن المعلوم أن الفرد من الأسرة إذا أغلق باب غرفته على نفسه، فإنه يقصد بذلك منع الآخرين من باقي أفراد الأسرة والمتواجدين في البيت من النظر إليه، أو إلى ما ينوي القيام به، لذلك فإنه من الواجب على جميع من في البيت صغارًا كانوا أو كبارًا ألا يدخلوا إلى الغرف المغلقة إلا بعد الاستئذان والسماح لهم بالدخول.

يستأذن على أخته، رقم١٠٦٣، ص ٥٩٥. وصحح إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(١) انظر: الآداب الشرعية، ابن مفلح، ١/ ٤٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر، ٨/ ٥٤، رقم٦٢٤١.



الاستئذان في النكاح

حث الله تعالى عباده المؤمنين على النكاح، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

كما حث عليه أيضًا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: (من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاءٌ)[١].

ومعنى الباءة هو القدرة على القيام باستحقاقات الزواج، أما معنى الوجاء فهو الوقاية[٢]، وحتى يؤدي النكاح الأغراض المرجوة منه يجب أن يبنى على أصول وقواعد راسخة، ومن ضمن تلك الأصول والقواعد، النكاح بالاستئذان، أي: بطلب الإذن بنكاح المرأة من وليها، لذلك قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

يبيح الله تعالى في هذه الآية الكريمة لمن لا يستطيع نكاح الحرائر من النساء بسبب قلة ذات اليد، ويخشى على نفسه الفتنة أن ينكح المؤمنات من الإماء، شريطة أن يكن عفيفات غير عاهرات ولا متسترات بالزنا مع أصدقائهن السريين، وأن يطلبهن الراغب في نكاحهن من أهلهن، وأن تدفع إليهن مهورهن بالمعروف.

ثم يبين الله تعالى حكم الأمة إذا ارتكبت فاحشة الزنا وهو خمسون جلدة، ثم يعقب الله تعالى بحث المؤمنين على الصبر والتريث حتى يتمكنوا من نكاح الحرائر[٣].

ويستفاد من الآية السابقة مجموعة من الأحكام، وهي كما يأتي:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة، ٣/ ٢٦، رقم١٩٠٥.

(٢) انظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني ٩/ ٨٩-٨٨.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٦٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٧٤.

١. من أهم وأولى أولويات التشريع الإسلامي صيانة المجتمع المسلم من انتشار الرذيلة بين أفراده.

٢. يجوز للمؤمن أن ينكح الأمة إذا خاف على نفسه العنت، أي: في حال خشي على نفسه الفتنة.

٣. وجوب دفع المهور للإماء في حال نكاحهن، ويجب ألا يقل المهر عن المتعارف عليه من مهور مثيلاتها من الإماء.

٤. وجوب الاستئذان من أهل الأمة وأخذ موافقتهم في حال الرغبة في نكاحها.

٥. تجلد الأمة خمسين جلدة إن ارتكبت الزنا.

٦. الأولى بالمؤمن أن يصبر ويتريث حتى يأتي الوقت الذي يتمكن فيه من نكاح الحرة، فنكاحها أفضل من نكاح الأمة.

ولا يقتصر الاستئذان في النكاح على استئذان ولي المرأة المراد الزواج بها، وإن كان ذلك أمرًا ضروريًا؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: **(أيما امرأةٍ نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطلٌ، فنكاحها باطلٌ، فنكاحها باطلٌ)**[1].

وإنما يتعدى ذلك إلى ضرورة الحصول على موافقة المرأة نفسها بكرًا كانت أم ثيبًا، وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: **(الثيب أحق بنفسها من وليها، والبكر يستأذنها أبوها في نفسها، وإذنها صماتها)**[2].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي، ٢/٣٩٨، رقم١١٠٢.
قال الترمذي: حديث حسن.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق، والبكر بالسكوت، ٢/ ١٠٣٧، رقم١٤٢١.



الاستئذان في الجهاد

يهدف الإسلام العظيم إلى إخراج الناس من الظلام إلى النور، ومن الجور إلى العدل، وليس لذلك أن يتحقق إلا بالقضاء على أعداء الإسلام، ولا يكون القضاء على أعداء الإسلام إلا بالجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفس.

أولًا: ليس من صفات المؤمنين الاستئذان في الجهاد:

المؤمنون الأتقياء هم أكرم العباد عند الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وليس من المتوقع أبدًا من المؤمن التقي الذي شرفه الله تعالى، ورفع قدره من بين العباد أن يتخلف عن المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى، ونصرة الحق، ثم يرضى بحياة الذلة والهوان، وهذا ما أقره الحق جل وعلا في قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٨٨-٨٩].

وهذا الإخلاص الذي ترجمته فعال المؤمنين في كل المواطن التي كانت تتطلب البذل والفداء هو السبب الذي أكسبهم رضا الله تعالى عنهم.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وفي سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ما يشهد للمؤمنين الأتقياء بالمسارعة والمسابقة في ميدان الجهاد في سبيل الله تعالى، وعدم خذلان الحق وأهله، ومن ذلك ما يأتي:

١. في غزوة بدر.

في غزوة بدر لما طلب النبي صلى الله عليه وسلم المشورة من الصحابة الكرام وكان يريد رأي الأنصار منهم، (فقام سعد ابن معاذ رضي الله تعالى عنه، وقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: (أجل)، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء.

لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله)[1].

٢. في غزوة مؤتة.

في غزوة مؤتة لما علم جيش المسلمين بما أعده لهم الروم، وأخذ المسلمون يتشاورون في أمرهم، فأشار عليهم الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه بقوله: «يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهورٌ وإما شهادةٌ»[2].

فعلت حينها همم المسلمين، وانطلقوا لمواجهة عدوهم ذو العدد والعدة، غير مبالين بما قد يصيبهم في سبيل الله تعالى.

٣. في غزوة تبوك.

في غزوة تبوك لما حرض النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله تعالى، أخذ الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم بالتسابق للبذل والفداء، فجاء عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بنصف ماله، وجاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه بكل ماله، ولم يبق لأهله شيئًا من المال وأوكل أمرهم لله تعالى، وجاء عثمان رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بألف دينار، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها في حجره ويقول: (ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين)[3].

وجاء فقراء المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم راجين منه صلى الله عليه وسلم أن يحملهم معه إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، فلما اعتذر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حملهم تولوا عنه وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا على ما ظنوا أنه قد فاتهم من الأجر عند الله تعالى[4].

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١-٩٢].

ولا يقتصر بذل وعطاء المؤمنين على الرجال فقط، بل تعدى الأمر ذلك ليشمل الصغار والنساء أيضًا، فهذا رسول الله صلى

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٦١٥.
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ٤٥٩.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، وله كنيتان، يقال: أبو عمرو، وأبو عبد الله، ٦/ ٦٧، رقم ٣٧٠١.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.
(٤) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ٥/ ٢١٨.

الله عليه وسلم يعرض عليه الغلمان يوم أحد ليأذن لهم بالمشاركة بالغزو فيردهم لصغر سنهم، فيؤتى برافع بن خديج رضي الله عنه، وكان أحد الغلمان، فيقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه رامٍ، ويتطاول رافع رضي الله عنه على خفيه، فيأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشاركة في الغزوة، ثم يؤتى بسمرة بن جندب رضي الله عنه وكان أيضًا صغير السن، فيقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن سمرة يصرع رافعًا، فيطلب منهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتصارعا فيصرع سمرة رافعًا، فيأذن الرسول صلى الله عليه وسلم لكليهما بالمشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى[1].

وهذه الصحابية الجليلة أم سليم رضي الله عنها تأتي يوم حنين ومعها خنجر، فيسألها أبو طلحة رضي الله عنه عن هذا الخنجر الذي تحمله، فتقول له: «خنجرٌ أخذته معي، إن دنا مني أحدٌ من المشركين بعجته به»[2].

فهؤلاء هم المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان، والتقوى، والإحسان في طاعة الله تعالى، والتقرب إليه، والجهاد في سبيله، وذلك امتثالًا لما أمرهم الله تعالى به في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وما كان ذلك الإقبال على الله تعالى من قبل المؤمنين الصادقين، إلا سعيًا منهم لنيل رضا الله تعالى، وإلا ليكون تعالى معهم ناصرًا ومؤيدًا، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ثانيًا: استئذان المنافقين عن الجهاد:

تحدثت آيات القرآن الكريم عن أساليب المنافقين في المرواغة للتنصل من تنفيذ ما يصدره الشارع الحكيم من أوامر وتشريعات، خصوصًا ما كان منها يعلي منزلة المؤمنين، ويحط مكانة الكافرين، وفي مقدمة تلك التشريعات الجهاد في سبيل الله تعالى الذي يعد من أبرز ما يظهر المنافقين على حقيقتهم، ويكشف زيفهم، فهم يتكرون دائمًا الآليات التي تعفيهم من المشاركة في جهاد أعداء الله تعالى.

وقد وضع القرآن الكريم حدًا لهؤلاء المنافقين الذين يستأذنون للتخلف عن الجهاد بأعذار واهية تارة، وأخرى يتظاهرون برغبتهم المشاركة في الجهاد، فبين أحوالهم، وحذر منهم، وبيان ذلك كما يأتي:

(١) انظر: المغازي، الواقدي ١/ ٢١٦.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٩٠٤.

استئذان المنافقين للتخلف عن الجهاد:

شرع الله تعالى الجهاد في سبيله لتبقى كلمته هي العليا، وليبقى أهل الإيمان في عزة وكرامة، ولما كان الجهاد بذل وتضحية وعطاء فقد لزم معه التمييز بين المؤمن الصادق المطمئن، وبين المنافق الكاذب المضطرب، فالمؤمن الصادق الواثق بنصر الله تعالى يقدم على البذل والتضحية في سبيل الله تعالى بلا تردد، فكان بذلك جديرًا بشهادة الله تعالى على صدقه وثباته.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وأما المنافق الكاذب المرتاب فيبحث له عن مخرج ينفذ من خلاله إلى التهرب من البذل والتضحية في سبيل الله تعالى، كما تظهر على قسمات وجهه علامات الجبن والخوف لمجرد سماعه لآيات الدعوة إلى القتال في سبيل الله تعالى، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠].

وهؤلاء توعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم في الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس: ٧- ٨].

ومن الأعمال التي يعكف هذا الصنف السيئ من الناس عليها الاستئذان لعدم مشاركة المؤمنين في الجهاد في سبيل الله تعالى، وقد ذكرت غير آية من كتاب الله تعالى ذلك العمل السيء.

١. إبراز تخاذل منافقي المدينة عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى مع المؤمنين في غزوة الخندق.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً

﴿عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ١٢-١٩].

يذكر الله تعالى لعباده ما كان من المنافقين يوم الخندق حيث إنهم أخذوا بالتشكيك بوعد الله تعالى لعباده المؤمنين بنصرهم وتمكينهم، كما أنهم قاموا ببث الفتنة بين صفوف المؤمنين من خلال تحريضهم على التراجع عن مواجهة الأحزاب، كما أنهم قاموا بالاستئذان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمح لهم بملازمة بيوتهم بحجة أن بيوتهم منكشفة للأعداء.

ثم بيَن الحق جل وعلا أن بيوتهم ليست كذلك، وأن القضية أنهم يسعون للفرار من المشاركة مع المؤمنين في الجهاد في سبيل الله تعالى، ثم يكشف الله تعالى عن جاهزية المنافقين التامة لاعتناق أي معتقد شركي في حال كان هذا هو السبيل للنجاة من بطش الأحزاب، وذلك مع أنهم سبق لهم وأن عاهدوا الله تعالى أن يثبتوا أمام الأعداء، وألا يفروا أبدًا.

ثم يبين سبحانه أن هؤلاء المنافقين سيسألون عن عهودهم يوم القيامة، وسيحاسبون عليها أشد الحساب، ثم يبين الله تعالى أن الفرار من ملاقاة الأعداء لا يطيل عمرًا، ولا يرد سوءًا، وأنه لا راد لأمره أبدًا، سواءٌ أراد لعباده شرًا من هزيمةٍ أو هلاكٍ أو نحو ذلك، أو أراد لهم خيرًا من نصرٍ أو نجاةٍ أو نحو ذلك؛ فهو سبحانه الولي والنصير.

ثم يبين سبحانه أنه على علم تام بأعمال المنافقين الخبيثة وصفاتهم القذرة والتي تتمثل بتثبيط المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله تعالى، واعتذارهم عن المشاركة فيه بأعذار واهية أو كاذبة، وعدم قتالهم للمشركين إذا تواجدوا في الغزوات مع المؤمنين، وارتعابهم الشديد عند ملاقاة الأعداء، وتعمدهم الإساءة للمؤمنين ورسولهم صلى الله عليه وسلم، وكل ذلك فضلًا عن كفرهم بالله تعالى.

ثم بيَن سبحانه أن عقوبة أولئك المنافقين هي إحباط العمل في الآخرة، وأن تنفيذ هذه العقوبة هو أمر يسير عليه سبحانه؛ فهو على كل شيءٍ قدير[(١)].

ومما يستفاد من الآيات الكريمة ما يأتي:

١. يعكف المنافقون على تشكيك المؤمنين بوعد الله تعالى لهم بالنصر والتمكين، ومن أبرز الشواهد على ذلك ما كان من المنافقين يوم الأحزاب حين قاموا بعملين أساسيين هما:

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤١٦ - ٤١٨.

- تثبيط المؤمنين عن الرباط مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرب من الخندق.
- الاستئذان من رسول الله صلى الله عليه وسلم للمكوث في البيوت بحجة أنها عورة، والحق أنها ليست بعورة.

٢. المنافقون على أتم الجاهزية لاعتناق أي معتقد مخالف للعقيدة الإسلامية في حال تم عرض ذلك عليهم من قبل أعداء الإسلام.

٣. المنافقون كاذبون فيما يصدر عنهم من عهود ومواثيق في عدم التولي عن نصرة الإسلام.

٤. الفرار من أرض المعركة لا يطيل عمرًا، والبقاء فيها لا يقصر أجلًا.

٥. النفع والضرر بيد الله تعالى وحده، وليس لأحد أن يدفع ضررًا أو نفعًا كتبه الله تعالى. ويؤكد هذا المعنى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله ابن عباس رضي الله عنهما: (**يا غلام إني أعلمك كلماتٍ، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**)[1].

٦. يعمد المشركون إلى تثبيط المسلمين عن نصرة الدين، وذلك من خلال تحقير إمكانات قوى الإيمان، مقابل تعظيم إمكانات قوى الكفر.

٧. المنافقون إما أن تظهر عليهم علامات الخوف والجبن الشديدين في أوقات الشدة، وإما أن يسلطوا ألسنتهم الحادة للسخرية من الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وكيل الشتائم لهم.

٢. إبراز تخاذل منافقي الأعراب عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى مع المؤمنين، والتعذر لذلك بأعذار كاذبة.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

يبين الله تعالى موقف الأعراب السلبي من الخروج للجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث إنهم كانوا يقدمون له الأعذار الواهية ليقعدوا عن الجهاد في سبيل الله تعالى ونصرة الدين، ثم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب رقم٥٩، رقم٢٥١٦، ٤/ ٢٤٨.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

توعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم لكفرهم وفجورهم[(١)].

ويستفاد من الآية الكريمة ما يأتي:

- ضعفاء الإيمان يختلقون الأعذار للتخاذل عن نصرة الحق، وهذا ليس من صفات المؤمنين الصادقين.
- يسلب الله تعالى ضعفاء الإيمان الحكمة في القول، فتكون عباراتهم مضطربة، وحججهم واهية.
- العذاب الأليم هو المصير الذي ينتظر الكاذبين على الله تعالى، ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

٣. إبراز تخاذل منافقي المدينة عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٤٢-٥٠].

يبين الله تعالى لعباده أن المنافقين لا يترددون في الخروج إلى الأسفار التي يجنون منها المرابح الدنيوية، أما الأسفار التي يبتغى فيها وجه الله تعالى ونصرة الدين فيختلقون الأعذار الواهية لعدم الخروج فيها رغبةً منهم في خذلان الحق، وفرارًا من البذل والتضحية في سبيل الله تعالى، ثم يعاتب الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم على سماحه للمنافقين بالتخلف عن الخروج في غزوة تبوك وكان الأولى هو عدم السماح لهم بالتخلف؛ لأن في ذلك كشفًا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤١٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٨٠.

لنفاقهم، ثم يبين الله تعالى أن المؤمنين الصادقين لا يختلقون الأعذار للتخلف عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى، وأن الاستئذان للتخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى هو سمة المرتابين من الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا باليوم الآخر، كما يبين أن هؤلاء المرتابين يبيتون النية لعدم المشاركة مع المؤمنين في الجهاد، والدليل على ذلك هو امتناعهم عن الإعداد للخروج مع المجاهدين.

ويبين أيضًا أن عدم خروج المنافقين إلى الجهاد يصب في مصلحة المؤمنين؛ لأن وجود المنافقين في صفوف المؤمنين من أبرز عوامل الاضطراب والخلل لتلك الصفوف.

ثم يحذر الله تعالى المؤمنين من الانجرار خلف هؤلاء المتخاذلين عن نصرة الحق من خلال الاستماع أو التداول والنقل لأقوالهم التي يعمدون من خلالها إلى بث الفتن، وتثبيط العزائم أثناء فترات الصراع بين الإيمان والكفر من قبل أن يأذن الله تعالى للحق أن ينصر، ولكلمته أن تعلو.

ثم يبرز الله تعالى خبث المنافقين من خلال عرضه لما قاله بعضهم ليستأذنوا للتخلف عن الخروج للجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن أحد المنافقين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ائذن لي في التخلف عن المشاركة في جهاد الروم؛ لئلا أفتتن في نسائهم الجميلات فأقع في المحظور، ثم يبين الله تعالى أن المنافقين قد وقعوا أكثر المحظورات خطورة، وأشدها عقوبة حين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان[1].

ويستفاد من الآيات السابقة ما يأتي:

١. المنافقون لا يترددون في الخروج إلى الأسفار التي يجنون منها المرابح الدنيوية، أما الأسفار التي يبتغى فيها وجه الله تعالى ونصرة الدين فيختلقون الأعذار الواهية لعدم الخروج رغبةً في خذلان الحق، وفرارًا من البذل والتضحية في سبيل الله تعالى.

٢. المنافقون يحلفون بالله تعالى الأيمان الكاذبة ليعتذروا عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى.

٣. الأولى ألا يأذن القائد المسلم للمتخاذلين عن الجهاد في سبيل الله تعالى ونصرة الحق، يفهم ذلك من معاتبة الله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم على إعطائه الإذن للمنافقين للقعود عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى في غزوة تبوك، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٦٩.

﴿الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

٤. المؤمن لا يستأذن للقعود عن نصرة دين الله تعالى وإعلاء كلمته.

٥. التردد في اتخاذ قرار الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى ونصرة الحق علامة من علامات النفاق.

٦. استئذان المنافقين لعدم الخروج للجهاد أمر ناجم عن حيرتهم وشكهم المصحوب بالقلق.

٧. ترك الإعداد للجهاد في سبيل الله تعالى ماديًا ومعنويًا دليل واضح على نيتهم المبيتة لخذلان الحق وأهله وهذا ما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ فلو هي أداة امتناع لامتناع، فامتنع الجواب (إعداد العدة) لامتناع الشرط (إرادة الخروج).

٨. يكره الله تعالى خروج المنافقين في صفوف المؤمنين الصادقين المجاهدين، للأسباب الآتية:

- لخبث نواياهم تجاه الإسلام والمسلمين.
- لأن موقفهم يكون متخاذلًا عند المواجهة مع الأعداء، وهذا قد يؤدي إلى انكشاف ظهر المسلمين، وربما يؤدي إلى انهزامهم أمام أعدائهم.
- لأنهم يبثون روح الهزيمة في نفوس المؤمنين، وربما يؤدي ذلك إلى تقاعس البعض ممن لم يستقر الإيمان في قلوبهم.

٩. المنافقون لا يفترون من السعي للقضاء على الدولة الإسلامية، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾، في هذه الآية الكريمة يذكر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بموقف المنافقين في غزوة أحد، حيث رجع رأس النفاق عبد الله بن سلول بجزء من الجيش رغبةً منه في انهزام المسلمين والقضاء على دولتهم.

١٠. المنافقون يستاؤون من انتصار المؤمنين، وحصول المسرات لهم، وفي المقابل يفرحون بانهزام المسلمين، وحصول المكاره لهم.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٩٥ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝٩٦﴾ [التوبة: ٩٣ - ٩٦].

يبين الله تعالى لعباده أن الإثم في الاستئذان عن الجهاد إنما يكون على الذين يستأذنون للتخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى مع قدرتهم على البذل والعطاء، ليقعدوا في بيوتهم كما يقعد النساء والصبيان، ثم يعقب سبحانه ببيان أن تخلف أولئك الأغنياء مرتبط بالكفر والطغيان والغفلة عن وخامة العاقبة المترتبة على تخلف المقتدرين عن الجهاد في سبيل الله تعالى.

ثم يبين سبحانه أن المنافقين يستقبلون المؤمنين العائدين من الغزو بالاعتذارات لعدم مشاركتهم في الجهاد في سبيل الله تعالى، ثم أعقب سبحانه بتلقين المؤمنين الرد على هؤلاء المنافقين، والمتمثل في تكذيبهم وإعلامهم بأن الله تعالى قد كشف أمرهم وكذبهم، وأن الله تعالى مطلع على أعمالهم في الدنيا، وأن مردهم إليه في الآخرة وحينها سيخبرهم بما قدموا من أعمال في الدنيا، ثم سيحاسبهم عليها.

ثم يبين سبحانه للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين المتخلفين عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيحلفون للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الأيمان الكاذبة لتبرير تخلفهم عن الغزو معهم، وبالتالي عدم حصول التأنيب لهم، فأرشد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى ترك تأنيبهم، وتخليتهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، وسوء العاقبة.

ثم يؤكد الله تعالى أن علة الأيمان التي يحلفها المنافقون هي محاولة كسب رضا المؤمنين عنهم، ثم عقب سبحانه ببيان أنه لو رضي المؤمنون عن المنافقين، فإن ذلك الرضى لا يستلزم رضاه جل وعلا عن أولئك المتخاذلين المتخلفين عن الجهاد والبذل والتضحية[(١)].

ومما يستفاد من الآيات السابقة ما يأتي:

١. لا عذر عند الله تعالى للذين يتخلفون عن الجهاد في سبيله بأموالهم وأنفسهم وهم قادرون على البذل والتضحية نصرة للإسلام والمسلمين.

٢. الكفر بالله تعالى، والغفلة عن جزائه، والجهل بعذابه، هي الأسباب التي أدت بالمنافقين إلى التخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى.

٣. اختلاق الاعتذارات الكاذبة أو الواهية هو من طباع المنافقين لتبرير تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٩٥- ٣٩٧.

تعالى.

٤. أنسب الردود على المنافقين هو مطالبتهم بالكف عن تقديم الأعذار، ومقاطعتهم، والإعراض عنهم.

٥. الغاية من الأيمان التي يحلفها المنافقون للمؤمنين هي محاولة نيل رضاهم.

٦. لا يرضى الله تعالى عن المنافقين؛ لأنهم كفروا به، وتخلفوا عن نصرة دينه.

ولا تقتصر أعمال المنافقين الخبيثة على التخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى، بل تتعدى ذلك إلى محاولة حث المؤمنين على التخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى، ومن الآيات التي تحدثت عن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

ومما يستفاد من الآية السابقة ما يأتي:

١. ينتاب المنافقين حالةٌ من الفرح حينما يقعدون عن المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى، وعلة ذلك أنهم كارهون للإسلام الذي يحمل أتباعه مسؤولية المحافظة على أمن وعزة وكرامة المجتمع الذي وضعت أسسه، وأرست دعائمه أحكام الشريعة الإسلامية، وبالتالي فهم يبخلون على المؤمنين مع امتلاكهم لمقومات الدعم والنصرة.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [التوبة: ٨٥- ٨٦].

يبين الله تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين عدم انتفاع المجرمين بأموالهم، ولا أولادهم ففي الدنيا يكونون عليهم همًا وغمًا، وعند الموت حسرةً، ويوم القيامة عند السؤال ندامةً، كما يبين الله تعالى أن موقف زعماء ووجهاء المنافقين عند نزول سورة تأمر بالإيمان والجهاد في سبيل الله تعالى، وهو الاستئذان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمح لهم بالقعود عن الجهاد في سبيل الله تعالى على الرغم من كثرة أموالهم، ورجاحة عقولهم(١).

٢. يكره المنافقون أن يكون هنالك أيًا من مصادر الدعم المادي أو المعنوي، ويسعون جاهدين لقطع كافة سبل الإمداد عنهم، يظهر ذلك جليًا من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤١١، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٤٤٢، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٩٤.

خلال أمرين، هما:

- الإمساك عن توفير أي دعم للمؤمنين من أجل تقوية شوكتهم.
- تحريض من يمكنهم تحريضه من المسلمين لعدم المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى.

فرح المنافقون بتخلفهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى في غزوة تبوك، وشعروا أنهم قد حققوا إنجازًا عظيمًا على صعيد محاربة الإسلام، وزعزعة صفوف المسلمين، ولكن سرعان ما فضحت آيات سورة التوبة خباياهم، ووصفتهم بما يميزهم عن المؤمنين، وعاقبتهم على تخلفهم عن غزوة تبوك.

فقال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)﴾ [التوبة: ٨١ - ٨٣].

تبين الآيات الكريمة موقف المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول صلى الله عليه وسلم من الجهاد والمجاهدين، أما موقفهم من الجهاد فهو الكراهية، سواءٌ أكان الجهاد بالمال أو بالنفس، أما موقفهم من المجاهدين فهو السعي لتثبيطهم عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى، فردت عليهم الآيات ببيان أن فرحهم وضحكهم سيعقبه الوبال والهلاك لهم في الآخرة، كما أمرت الآيات النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم ألا يسمح لهم بالخروج للجهاد في سبيل الله تعالى بسبب تخلفهم عن الجهاد في غزوة تبوك بدون أي عذر مقبول[(١)].

ويستفاد من الآيات ما يأتي:

١. الفرح بالتخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفس من أظهر علامات النفاق.

٢. الصبر على مشقة الجهاد في سبيل الله تعالى في الدنيا خير من الصبر على عذاب الله في الآخرة، كما أن الله تعالى يؤمن المجاهد في سبيل الله تعالى من نار جهنم في الآخرة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله عز وجل ودخان جهنم في منخري مسلم أبدًا)**[(٢)].

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٤٣٩-٤٤٠.

(٢) أخرجه النسائي في المجتبى، كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، ٦/ ١٤، رقم ٣١١٣. وصححه الألباني.

٣. العذاب الأليم هو المصير الذي سيلقاه المنافقون يوم القيامة، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

٤. عاقب الله تعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج في غزوة تبوك بعدم السماح لهم بالخروج للجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدًا.

قال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾[التوبة: ٨٣].

ثانيًا: من يشرع لهم بالاستئذان عن الجهاد:

على الرغم من أن الشريعة الإسلامية قد حثت على المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى، وحذرت من مغبة ترك هذه العبادة العظيمة، إلا أنها سمحت لفئات من المؤمنين بعدم المشاركة في ما لا يطيقونه من أعمال الجهاد التي يقوى عليها غيرهم من الأقوياء، وهؤلاء الأصناف هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢].

كما جاء ذكر أصناف أخرى في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧].

وتفصيل هذه الأصناف كما يأتي:

١ . الضعفاء.

يشمل لفظ الضعفاء عدة أصناف منها: صغار السن لضعف أبدانهم، والمجانين لضعف عقولهم، والطاعنين في السن لوهن أجسادهم، والنساء لعدم قدرتهن على حمل السلاح ومواجهة الأعداء، وأصحاب العاهات التي تحول دون القدرة على القيام بأعمال الجهاد الشاقة[1].

وقد جاء عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ٩٥].

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت فكتبها، فجاء عبد الله ابن أم مكتوم، فشكا ضرارته[2]، فأنزل الله تعالى:

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٢٢٦، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٨٠.

(٢) شكا ضرارته أي: فقدانه البصر الذي يمنعه من الجهاد في سبيل الله تعالى.

﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥][1].

٢. المرضى.

والمراد هنا بالمرضى هم أصحاب الأمراض التي تحول بينهم وبين القدرة على القيام بأعمال الجهاد في سبيل الله تعالى[2].

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن بالمدينة لرجالًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض)[3].

٣. الذين لا يجدون ما ينفقون.

وهؤلاء هم الفقراء الذين لا يملكون التكاليف التي تمكنهم من المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى، فهؤلاء معذورون شرعًا لعدم المشاركة في الجهاد حتى وإن كانت لديهم القدرة البدنية على مواجهة الأعداء.

يقول سيد طنطاوي في شرح معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ «هم الفقراء القادرون على الحرب، ولكنهم لا يجدون المال الذين ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا يجدون الرواحل التي يسافرون عليها إلى أرض المعركة»[4].

٤. الذين اعتذر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اصطحابهم للجهاد في غزوة تبوك لعدم توفر ما يحملهم عليه من الركوبة.

وهؤلاء قوم جاؤوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل غزوة تبوك ليحملهم معه لغزو الروم فاعتذر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدم قدرته من توفير الركوبة لهم، فتولوا وهم يبكون، وهذا ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢][5].

فهؤلاء لا إثم عليهم لعدم مشاركتهم في الجهاد في سبيل الله تعالى.

وقد ذكر الله تعالى هذه الأصناف لتمييزهم عن الذين لم يقبل الله تعالى أعذارهم الواهية للقعود عن الجهاد في سبيل الله تعالى، ولطمئنة هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين حبسهم العذر عن الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى على أجرهم عند

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ٦/ ٤٨، رقم ٤٥٩٣.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٦/ ٣٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، ٣/ ١٥١٨، رقم ١٩١١.

(٤) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٦/ ٣٧٩.

(٥) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٢٦٢.

الله تعالى.

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو راجع من غزوة تبوك: (إن بالمدينة أقوامًا، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم)، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: (وهم بالمدينة، حبسهم العذر)[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إلا كانوا معكم) فيه دليل على أنه من حبسه العذر عن القيام بأعمال الخير مع نيته فيها، فقد وقع أجره على الله تعالى[2].

الاستئذان للانصراف عن الأمر الجامع

الإسلام هو دين الجماعة فهو أمر عظيم لا يقوى على تحمل أعبائه وتحقيق مقاصده الأفراد، وللحفاظ على الجماعة وصيانة حقوقها فقد حث الإسلام على لزومها، وحذر من مفارقتها، وجعل الاستئذان شرطًا للانسحاب منها لقضاء بعض الحاجات المختلفة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

يبين الله تعالى أن الأدب هو الصفة الأبرز للمؤمنين، فهم لا يغادرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد أخذ الإذن والموافقة منه صلى الله عليه وسلم، ثم يذكر الله تعالى أن التربية الإيمانية هي السبب في تأدب أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يوجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم لإعطاء الإذن للمؤمنين إذا أراد ذلك، كما يحثه على الاستغفار للمؤمنين، ثم يعلل الله تعالى حثه نبيه صلى الله عليه وسلم على الاستغفار للمؤمنين بأنه تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، ٦/٨، رقم ٤٤٢٣.

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/٤٨.

متصفٌ بالمغفرة والرحمة[1].

ويستفاد من الآية السابقة ما يأتي:

١. وجوب المحافظة على النظام عند حضور الجماعة، وهذا يقتضي عدم الانسحاب من الجماعة إلا بموافقة زعيمها.

٢. وجوب مراعاة ظروف أفراد الجماعة من قبل سيدهم، وهذا يقتضي إعطاءهم الإذن حال استئذانهم لقضاء بعض مصالحهم.

٣. وجوب اتصاف المسؤول عن الجماعة بالرحمة، وهذا يقتضي الدعاء لهم بالخير، وكذلك الاستغفار لهم.

كما ذم الله تعالى المنافقين لانسحابهم من مجالس النبي صلى الله عليه وسلم وجعل من هذا الخلق الذميم علامة فارقة تميز بين المؤمن والمنافق.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ينهى الله تعالى عباده عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كدعاء بعضهم لبعض، ثم يبين الله تعالى عادة المنافقين المنافية للأدب الواجب التزامه مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وهو التسلل للانسحاب من مجالسه صلى الله عليه وسلم خفية من دون أن يطلبوا الإذن لذلك، ثم يعقب الله تعالى بتحذير أولئك الذين يخالفون أمر الله تعالى بوجوب لزوم الأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم، من مغبة غضبه، وقسوة عقوبته[2].

ويستفاد من هذه الآية ما يأتي:

١. وجوب توقير رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذكره، سواءٌ بالقول أو بالكتابة أو بالإشارة، وذلك بنعته برسول الله أو بأي نعت يليق به صلى الله عليه وسلم وكذا بالصلاة عليه.

٢. الذهاب من مجالس العلماء والدعاة دون استئذانهم أمر فيه سوء أدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وكذا الأمر بالنسبة للدعاة، فالرسول صلى الله عليه وسلم داعية إلى الله تعالى، يشهد لذلك ما قاله الله تعالى مخاطبًا الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٢٨، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٢١.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٠٧، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٤/ ٤٦٨.

٣. إهانة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أبرز الأسباب الموجبة لغضب الله تعالى.

موضوعات ذات صلة:

البيوت، الجهاد، العلاقات الاجتماعية





عناصر الموضوع



مفهوم الاستدراج

أولًا: المعنى اللغوي:

يورد أهل اللغة وأصحاب المعاجم لفظة الاستدراج تحت مادة (درج)، والتي تأتي في اللغة بعدة معانٍ، كما يلي:

١. بمعنى المضي والذهاب والرجوع، قال ابن فارس: «درج، الدال والراء والجيم أصلٌ واحد يدل على مضي الشيء والـمضي في الشيء، من ذلك قولهم: درج الشيء، إذا مضى لسبيله، ورجع فلانٌ أدراجه، إذا رجع في الطريق الذي جاء منه»[(١)].

٢. بمعنى المنزلة والرتبة: جاء في لسان العرب: «درج البناء ودرجه، بالتثقيل: مراتب بعضها فوق بعضٍ، واحدته درجة ودرجةٌ مثال همزةٍ، الأخيرة عن ثعلبٍ، والدرجة: الرفعة في المنزلة»[(٢)].

٣. بمعنى اللف والطي والإدخال: قال في بصائر ذوي التمييز: «والإدراج: لف شيء في شيء، يقال: أدرج فلان في أكفانه. ودرجه في الأمر تدريجًا، أي: جره إليه قليلًا قليلًا. واستدرج الله المرء: جره قليلًا قليلًا إلى العذاب»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الجرجاني الاستدراج بقوله: «الاستدراج: أن يجعل الله تعالى العبد مقبول الحاجة وقتًا فوقتًا إلى أقصى عمره للابتدال بالبلاء والعذاب»[(٤)].

وقال الكفوي: الاستدراج: «هو أن يعطي الله العبد كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كل يوم بعدًا من الله تعالى»[(٥)].

وتعريف الكفوي أقرب لمعنى الاستدراج في القرآن، والذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف:١٨٢].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٧٥.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٦٦.
(٣) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٩٢.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص٢٠.
(٥) الكليات، الكفوي ص١١٣.

الاستدراج في الاستعمال القرآني

ورد (الاستدراج) في القرآن مرتين[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٤]

وجاء (الاستدراج) في القرآن الكريم بصيغة صرفية واحدة، هي صيغة الفعل المضارع، مبدوءة بسين الاستقبال ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، والهاء مفعوله.

ومما يلاحظ في هذه الصيغة القرآنية تناسبها واتفاقها مع مدلول الاستدراج ومعناه، فطول الكلمة وكثرة حروفها - في تسعة حروف -، وطول فترة نطقها لوجود السكون في السين والدال، كل ذلك يتناسب مع معنى الاستدراج وهو الإمهال والإنظار للكافرين، ويوحي «بطول المدة، مدة عدم انصياعهم، وخصوصًا في صيغة (استفعل) ففيها تصيير لهم، وحركة جعلية متمهلة، وهذا ما يوحي به توالي المقاطع وتعددها مما يجسم طول فترة الغفلة التي يكون فيها الكافرون»[2].

وهذا كله من جمال اللفظ القرآني وإعجازه، وأيضًا فإن مجيء مادة الاستدراج بصيغة الفعل المضارع يدل على استمرار وتجدد هذه السنة الإلهية في الخلق، وهو أمر مشاهد في كل زمان في إمهال الله تعالى للظلمة والكافرين واستدراجهم.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص ٥٠٠.

(٢) انظر: جمالية المفردة القرآنية، ياسوف ص١٨٥.
وانظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبدالسلام الراغب ص٣٩٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإمهال:

الإمهال لغة:

من مهل، بمعنى «التؤدة والسكون، يقال: مهل في فعله، وعمل في مهلة، ويقال: مهلًا، نحو: رفقًا... وأمهلته: رفقت به»(١).

الإمهال اصطلاحًا:

التؤدة والسكون(٢)، فهو يتفق مع المعنى اللغوي للكلمة.

الصلة بين الإمهال والاستدراج:

الذي يظهر أن بين الإمهال والاستدراج عمومًا وخصوصًا، فالإمهال أعم من الاستدراج من جهة السبب، فقد يمهل الله تعالى الإنسان ليتوب، وقد يمهله ليزداد إثمًا، وهو أخص من الاستدراج من جهة أنه نوع من أنواعه، فالاستدراج يكون بإمهال بالعقوبة وتأخيرها، ويكون بغير ذلك كالإمداد والإنعام.

٢ الإملاء:

الإملاء لغة:

«(ملي) الميم واللام والحرف المعتل كلمةٌ واحدةٌ. هي تدل على الزمن الطويل. وأقام مليًا، أي: دهرًا طويلًا»(٣).

الإملاء اصطلاحًا:

«هو الإمهال والتأخير»(٤).

الصلة بين الإملاء والاستدراج:

أن الإملاء: هو الإمهال والتأخير، والاستدراج: هو أنه كلما جدد العبد خطيئة جدد الله له نعمة، وأنساه الاستغفار إلى أن يأخذه قليلًا قليلًا، ولا يباغته، وعلى هذا بينهما عموم وخصوص، إذ كل استدراج إملاء وليس كل إملاء استدراجًا(٥).

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٨٠.
(٢) التوقيف، المناوي ص٣١٩.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٤٦.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص ٧٢.
(٥) انظر: المصدر السابق.



٣ الكيد:

الكيد لغةً:

هو المكر والخبث، والحيلة، والحرب[١].

الكيد اصطلاحًا:

«إرادة مضرة الغير خفيةً وهو من الخلق الحيلة السيئة، ومن الله سبحانه وتعالى التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق»[٢].

الصلة بين الكيد والاستدراج:

الكيد هو إرادة مضرة الغير بحيلة خفية، والاجتهاد في ذلك، وهو نوع من أنواع الاستدراج.

٤ المكر:

المكر لغة:

«الخديعة والاحتيال، وقال الليث: احتيالٌ في خفيةٍ»[٣].

المكر اصطلاحًا:

قال المناوي: «المكر: من جانب الحق: إرداف النعم مع المخالفة، وإبقاء الحال مع سوء الأدب، وإظهار الكرامات من غير جد. ومن جانب العبد: إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر»[٤].

الصلة بين المكر والاستدراج:

المكر من الله استدراج بالنعم، فالمكر فيه استدراج وفيه زيادة أيضًا على الاستدراج بحيث يكون قلب ذلك المستدرج آمنًا من كل جهة[٥].

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٣١٦.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٨٩، التوقيف، المناوي ص٢٨٦.
(٣) تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ١٤٧.
(٤) التوقيف، المناوي ص٣١٢.
(٥) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح آل الشيخ ص٣٨٤.

الاستدراج سنة إلهية

من سنن الله تعالى في عباده - والتي لا تتبدل ولا تتغير- سنة الاستدراج، فالله تعالى أمر عباده بطاعته وامتثال أوامره، وحذرهم من معصيته ومخالفة أمره، فإن هم أطاعوه، فازوا وسعدوا في الدنيا والآخرة، وإن خالفوه ولم يستجيبوا لأمره، ذكَّرهم الله تعالى، وحذرهم من عقابه.

ثم سلط عليهم البلاء والضراء حتى يردهم إليه وإلى طاعته، فإن تمادوا في إعراضهم وكفرهم رغم تذكير الله لهم ودعوته إياهم فإن الله تعالى يبدلهم مكان السيئة الحسنة ويوسع عليهم ويمدهم في طغيانهم، ويمهلهم، حتى إذا ازدادوا كفرًا وفجورًا، ونسوا لقاء ربهم أخذهم الله بغتة -وهم لا يشعرون- إلى عقابه الشديد، وهذا هو معنى استدراجه تعالى وكيده ومكره بمن عصاه وكفر به، وهي سنته الباقية في كل من يمضي على منوالهم.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

فأخبر تعالى عن سننه في الأمم الماضية المكذبة الكافرة في إمهاله لهم واستدراجه إياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجله في إهلاكهم واستئصالهم، فأحل بهم عقوبته، وأنزلت بساحتهم نقمته، وتركهم لمن بعدهم أمثالًا وعبرًا[1].

قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، وهذه الآية نزلت بعد معركة أحد تسلية وتعزية للمسلمين على ما أصابهم فيها، وبيان أن ما حدث للكفار من بعض الظفر بالمسلمين هو من استدراج الله تعالى بهم.

قال الإمام الطبري: «فسيروا - أيها الظانون، أن إدالتي[2] من أدلت من أهل الشرك يوم أحد على محمد وأصحابه، لغير استدراج مني لمن أشرك بي، وكفر برسلي، وخالف أمري - في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم، ممن كان على مثل الذي عليه هؤلاء المكذبون برسولي والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آل إليه غب خلافهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي، فتعلموا عند ذلك أن إدالتي من أدلت من المشركين على نبيي محمد وأصحابه بأحد، إنما هي استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٢٨، البسيط، الواحدي ٥/ ٦١٢.

(٢) الإدالة: الغلبة، يقال: اللهم أدلني على فلانٍ وانصرني عليه. و دالت الأيام، أي: دارت والله يداولها بين الناس. و تداولته الأيدي أخذته هذه مرةً وهذه مرة.

انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٠٩.

إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم: من تعجيل العقوبة عليهم، أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولي»[1].

فبيَن تعالى أن الاستدراج سنة من سننه مع الكافرين والعصاة من خلقه، وقد أوضح الله تعالى معنى هذا الاستدراج في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٤-٩٦].

«أي: إن سنتنا قد جرت - ولا مبدل لها - أننا إذا أرسلنا نبيًا في قوم وكذبوه أنزلنا بهم الشدائد والمصائب»[2].

قال: ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ «أي: ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ ما يصيبهم من فقر وحاجة، ونحو ذلك، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم»[3]، «ثم إذا لم يفد فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ فأدر عليهم الأرزاق، وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلاء ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي: كثروا، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء»[4].

قال ابن عاشور: «والمعنى أنا نأخذهم بما يغير حالهم التي كانوا فيها من رخاء وصحة، عسى أن يعلموا أن سلب النعمة عنهم أمارة على غضب الله عليهم من جراء تكذيبهم رسولهم فلا يهتدون، ثم نردهم إلى حالتهم الأولى إمهالًا لهم واستدراجًا فيزدادون ضلالًا، فإذا رأوا ذلك تعللوا لما أصابهم من البؤس والضر بأن ذلك التغيير إنما هو عارض من عوارض الزمان وأنه قد أصاب أسلافهم من قبلهم ولم يجئهم رسل»[5].

قال الخازن في معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾، «يعني أنهم قالوا: هكذا عادة الدهر قديمًا وحديثًا لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل فإنهم لم يتركوا دينهم مما أصابهم من الضراء والسراء»[6].

وما أجمل ما قاله سيد قطب في تعقيبه على هذه الآيات وبيان سنة الله تعالى في

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٢٨.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ١١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٧.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٨.
(٦) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٣٠.

الاستدراج، قال رحمه الله: «هذه وقفة في سياق السورة للتعقيب على ما مضى من قصص قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقفة لبيان سنة الله التي جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين في كل قرية... وهي سنة واحدة يأخذ الله بها المكذبين ويتشكل بها تاريخ الإنسان في جانب منه أصيل، أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله...

فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء، وفتح عليهم الأبواب، وتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون، كل ذلك للابتلاء، حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص، وإلى الغفلة وقلة المبالاة، وحسبوا أن الأمور تمضي جزافًا بلا قصد ولا غاية، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء، وأنه إنما أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل؛ لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبير: ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾! أخذهم الله بغتة، وهم سادرون في هذه الغفلة»[1].

وقد بيَن الله تعالى هذا المعنى لسنة الاستدراج في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، أي: «فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا إلينا، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ما رقت ولا خشعت.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من الشرك والمعاصي»[2]، وجيء بـ (لولا) ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان -ومنها الشرك- لهم.

فالاستدراك في الآية على المعنى لبيان الصارف لهم عن التضرع. وأنه لا مانع لهم إلا ذلك[3]، ولما كان حالهم كذلك من الإعراض وقسوة القلب، استدرجهم الله تعالى بنعمه وكثرة الخيرات، وأملى لهم، كما قال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٣٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥٣٤، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٥٩.

قال الحافظ ابن كثير: «أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياذًا بالله من مكره؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ أي: من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾، أي: على غفلة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي: آيسون من كل خير»[1].

وفي الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج).

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤].[2]

فبيَن صلى الله عليه وسلم أن الاستدراج هو الفتح بالنعم مع الإقامة على المعصية، أما الفتح بالنعم مع الإيمان والتقوى فهي رحمة من الله تعالى بالمؤمنين، وسنة من سننه في إكرام أهل طاعته في الدنيا والآخرة، وقد بيَن الله تعالى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

فبعد أن بيَن تعالى أن الإنعام على سبيل الاستدراج، بيَن أنه يكون أيضًا على سبيل الإكرام لأهل الإيمان والتقوى.

وهكذا يبين الله تعالى لنا سنته في استدراج المكذبين بآياته من الأمم الكافرة والظالمة، كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].

«قال الأزهري: أي: سنأخذهم قليلًا قليلًا من حيث لا يحتسبون، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون إليه، ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون، وقال الضحاك: كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة»[3].

قال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [القلم:٤٤].

قال الفخر الرازي: «ذرني وإياه، يريد كله إلي، فإني أكفيكه، كأنه يقول: يا محمد حسبك انتقامًا منه أن تكل أمره إلي، وتخلي بيني وبينه، فإني عالم بما يجب أن يفعل به قادر على ذلك»[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٦.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٣١١، ٢٨/ ٥٤٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم ٥٥٣، ١/ ١٥٨.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٧٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦١٥.

وقال ابن كثير: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، وهذا تهديد شديد، أي: دعني وإياه مني ومنه، أنا أعلم به كيف أستدرجه، وأمده في غيه وأنظر ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٥]، أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَيْدِي مَتِينٌ﴾، أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي[1].

فصرح تعالى بتهديده ووعيده لأهل التكذيب والعناد بالكيد لهم واستدراجهم، ولا شك أن من هدده رب العالمين بذلك، فهو من أخسر الخاسرين في الدنيا والآخرة.

قال الخازن: «وقيل في معنى الآية: كلما أذنبوا ذنبًا جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار والتوبة، وهذا هو الاستدراج؛ لأنهم يحسبونه تفضيلًا لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب إهلاكهم فعلى العبد المسلم إذا تجددت عنده نعمة أن يقابلها بالشكر، وإذا أذنب ذنبًا أن يعاجله بالاستغفار والتوبة»[2].

ومراد الإمام الخازن: أي حتى لا يكون ذلك الإنعام استدراجًا فاشكروا الله على نعمه، واستغفروه من ذنوبكم.

واستدراجه تعالى ليس قاصرًا على الأمم فحسب، وإنما يقع على الأفراد أيضًا.

قال تعالى مبينًا استدراجه لبعض الأفراد: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٩-٥٠].

فأخبر الله تعالى عن الإنسان «أنه في حال الضراء يضرع إلى الله عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله تعالى خصيص لما خولني هذا!»[3].

وقال الخازن: «﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يعني من الله تعالى، علم أني له أهل، وقيل: على خير علمه الله عنده، ثم قال تعالى في رد ما قاله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ يعني تلك النعمة استدراج من الله تعالى وامتحان وبلية، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أنها

(١) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٠٠.

(٢) لباب التأويل، ٤/ ٣٣١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٠٥.

استدراج من الله تعالى»[1].

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، كقارون، كما ذكر تعالى ذلك عنه في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨].

وهكذا بين الله تعالى أن الاستدراج سنة من سننه مع عباده أممًا وأفرادًا.

وهذه السنة الإلهية الحكيمة لها علاقة وثيقة بالسنن الإلهية الأخرى، كعقوبة الظالمين والانتقام منهم، فالله تعالى يملي للظالم ويمهله ليزداد بذلك بغيًا وإثمًا، ثم يأخذه بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر، وسنة الابتلاء والامتحان، ليبتلي عباده في إيمانهم وصبرهم.

(١) لباب التأويل، ٤/ ٦٠.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٢٤.

الحكمة من الاستدراج

أولًا: الإمهال للتوبة.

من حكمة الله تعالى في استدراج عباده أن يردهم إلى التوبة والإنابة إليه، وهو من رحمته تعالى بهم، فيمهلهم الله وينظرهم، ويبتليهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إليه، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة:١٢٦].

وهي في سياق الحديث عن المنافقين وفضائحهم، وقد تضمنت توبيخهم وتقريعهم والإنكار عليهم في إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق مع ما يصيبهم من البلايا والأمراض.

قال السعدي رحمه الله: «قال تعالى -موبخًا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق-: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من الشر ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم، فيتركونه، فالله تعالى يبتليهم -كما هي سنته في سائر الأمم- بالسراء والضراء وبالأوامر

والنواهي ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون»[1].

وقال البقاعي رحمه الله: «فالآية ذامة لهم على عدم التوبة بإصابة المصائب لعدم تذكر أنه سبحانه ما أصابهم بها إلا بذنوبهم ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

كما أن أحدهم لا يعاقب فتاه إلا بذنب وما لم يتب فهو يوالي عقابه»[2].

وقال الواحدي: «قال أهل المعاني: وهذه الآية بيان عما يوجبه تقلب الأحوال مرة بعد مرة من تذكر العبرة التي تدعو إلى إخلاص الطاعة والتوبة من كل خطيئة لشدة الحاجة إلى من يكشف البلية ويسبغ النعمة»[3].

وهكذا يبين الله تعالى توبيخه وإنكاره على من لم يعتبر بحصول البلاء ونزول الضراء وتغير الأحوال في تجديد التوبة والإنابة إليه.

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة:٢١].

أي: لنذيقنهم من عذاب الدنيا بالقتل والأسر والجدب سنين والأمراض قبل عذاب الآخرة لعلهم يرجعون إلى الإيمان[4].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف:٤٨].

وغير ذلك من الآيات التي توضح استدراج الله تعالى لهم بالعقاب ليتوبوا وينيبوا، قبل أن يدركهم العذاب الأكبر يوم القيامة.

وهذا النوع من الاستدراج هو النوع الأول الذي أشار إليه ابن الحاج رحمه الله في قوله: «الاستدراج اسم لمعنيين فأحد المعنيين: استدراج عقوبة للسيئة تنبيهًا على الإنابة، والمعنى الثاني استدراج لا إنابة فيه، ولا رجوع، فنعوذ بالله من الاستدراج»[5].

ثانيًا: الزيادة في الإثم.

ومن حكم استدراج الله تعالى للكفرة والمجرمين من خلقه أن يزدادوا إثمًا وجرمًا، فيزيد الله عقابهم بذلك، فالله تعالى يمهل الكافرين وينظرهم -استدراجًا منه تعالى- حتى يصلوا إلى درجة عظيمة من الإثم، ثم يعاجلهم بالعقوبة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٦.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٥٣.
(٣) البسيط، الواحدي ١١/ ١٠٢.
(٤) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٥٤٧.
(٥) المدخل، ابن الحاج ٣/ ٦٩.

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨].

وهذه الآية نزلت عقب غزوة أحد، تسلية للمؤمنين على ما وقع لهم فيها من بلاء، وبيانًا لسنة الله تعالى في استدراج الكفرة والمنافقين، أي: ليعلم المؤمنون أن إملاء الله تعالى لأهل الكفر ببقائهم ونجاتهم من سيوف المسلمين يوم أحد إنما هو من استدارج الله تعالى لهم وكيده بهم.

وذلك أنهم يزدادون بهذا الإمهال إثمًا وجرمًا، فيزيد الله بذلك في عقابهم، ويشهد لهذا المعنى قراءة الفعل ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ في الآية بتاء الخطاب الفوقية[1]، أي: لا تحسبن يا محمد صلى الله عليه وسلم[2].

وفي ذلك تحسير لأهل الكفر وتثبيط لعزائمهم، فلا يظنون أن ما هم فيه من الإمهال والإنظار خير لهم[3]، بل هو استدراج يعقبه عذاب ونكال، ويشهد لهذا المعنى قراءة الفعل ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ في الآية بياء الغيبة التحتية.

وكل ذلك مما يجنيه الكافر على نفسه بإعراضه عن طاعة ربه والتزام أمره، مع إرسال الله رسله ونذره إليه، فلما أعرض ونأى بجانبه، استدرجه الله إلى العذاب الشديد والنكال العظيم، فأمهله وزاد في عمره، ووسع في رزقه، وألهاه بدنياه، ونعمه فيها، حتى إذا جاءت ساعة أجله، أخذه الله وهو على حاله غافلًا ساهيًا قد كبل بالخطايا والآثام.

ومن أجل هذه الحكمة أخر الله تعالى إبليس وأنظره إلى يوم البعث لما طلب من الله تعالى ذلك.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر:٣٦-٣٨].

قال ابن كثير: «لما تحقق الغضب الذي لا مرد له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أجيب إلى ذلك استدراجًا له وإمهالًا»[4].

ثالثًا: الزيادة في الضلال.

ومن حكم استدراج الله تعالى للكفرة والمجرمين من خلقه أن يزدادوا ضلالًا وانحرافًا، وذلك عقوبة لهم على زيغهم وانحرافهم، واختيارهم سبيل الضلال وسلوكه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف:٥].

(١) قرأ حمزة بتاء الخطاب، والباقون بياء الغيبة. انظر: البدور الزاهرة، عبد الفتاح القاضي ص٧٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٨٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٦٢.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢/ ٣٤٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٥.

أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(1)، فالله تعالى لا يهدي من أراد الضلالة وسعى لها، بل إن الله تعالى يمد أهل الضلال في ضلالهم حتى يزدادوا بذلك عذابًا وعقابًا.

قال تعالى في وصف الكفار عند سماعهم آياته تتلى عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم:٧٣-٧٥].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات: «يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: أحسن منازل، وأرفع دورًا، وأحسن نديًا وهو مجمع الرجال للحديث، أي: ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟ كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف:١١].

وقال تعالى على لسان قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء:١١١].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣].

ولهذا قال تعالى -رادًا عليهم شبهتهم-: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالًا وأمتعة ومناظر وأشكالًا»(2).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾، أي: «قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم، القائلين إذا تتلى عليهم آياتنا: أي الفريقين منا ومنكم خير مقامًا وأحسن نديًا، من كان منا ومنكم في الضلالة جائرًا عن طريق الحق،... فليطول

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٠٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٥٧.

له الله في ضلالته، وليمله فيها إملاء»[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ [مريم:٧٥].

قال أبو زهرة رحمه الله: «يقول تعالى ردًا على المشركين في غرورهم بالمال والبنين ومتعة الجاه والسلطان: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم يأمره سبحانه وتعالى بأن يبين لهم الحق وسنة الله تعالى في أمر الضلالة والهداية، فهو سبحانه يمد الذين أرادوا الضلالة وسلكوا سبيلها وأخذوا في أسبابها، يمدهم فيها مدًا حتى يحسبوا أن الأمر إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٣].

يمهلهم سبحانه ويتركهم في غيهم يعمهون، ويزيدهم بالمال ويعطيهم، حتى يفرقهم الغرور ويجعلهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وقال تعالى بلفظ الأمر: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ جاء الخبر على صيغة الأمر؛ لبيان أن ذلك بإرادة الله وكأنه يأمره به أمرًا، وهو استدراج من الله تعالى لهم... وأكد سبحانه إمهالهم واستدراجهم بالعطاء بوفرة عليهم بالمصدر (مدًا)»[2].

وقد بين الله تعالى في الآيات التي تلي هذه الآية شيئًا من مدهم في ضلالهم، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣].

أي: سلطناهم عليهم بالإغواء، وقيضناهم لهم[3]، قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تر يا محمد أنا أرسلنا الشياطين على أهل الكفر بالله (تؤزهم) يقول: تحركهم بالإغواء والإضلال، فتزعجهم إلى معاصي الله، وتغريهم بها حتى يواقعوها (أزا) إزعاجًا وإغواء»[4].

وجعل تعالى ذلك لهم جزاءً على إعراضهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف:٣٦].

قال الشنقيطي عند تفسير لآية سورة مريم: «في معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، وكلاهما يشهد له قرآن: الأول: أن الله جل وعلا أمر نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن يقول هذه الكلمات كدعاء المباهلة بينه وبين المشركين، أي: قل يا نبي

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤٣.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٦٨٠.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٥٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٥١١.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٥١.

الله لهؤلاء المشركين الذين ادعوا أنهم خير منكم، من كان منا ومنكم في الضلالة - أي الكفر والضلال عن طريق الحق.

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: فأمهله الرحمن إمهالًا فيما هو فيه حتى يستدرجه بالإمهال ويموت على ذلك ولا يرجع عنه، بل يستمر على ذلك حتى يرى ما يوعده الله، وهو: إما عذاب في الدنيا بأيدي المسلمين، كقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤].

أو بغير ذلك، وإما عذاب الآخرة إن ماتوا وهم على ذلك الكفر، وعلى ذلك التفسير فصيغة الطلب المدلول عليها باللام في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ على بابها، وعليه فهي لام الدعاء بالإمهال في الضلال على الضال من الفريقين، حتى يرى ما يوعده من الشر وهو على أقبح حال من الكفر والضلال، والوجه الثاني: أن صيغة الطلب في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾، يراد بها الإخبار عن سنة الله في الضالين، وعليه فالمعنى: أن الله أجرى العادة بأنه يمهل الضال ويملي له فيستدرجه بذلك حتى يرى ما يوعده، وهو في غفلة وكفر وضلال»[1].

ثم قال رحمه الله: «قوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

دليل على رجحان القول الثاني في الآية المتقدمة، وأن المعنى: أن من كان في الضلالة زاده الله ضلالة، ومن اهتدى زاده الله هدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، كقوله في الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:١٥٥]»[2].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٨٧، بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٤٨٩.

مجالات الاستدراج

للاستدراج مجالات عدة منها: الكفر، والنفاق، والظلم، والفسق والمعاصي.

أولًا: الكفر:

الكافرون هم أعظم الخلق استدراجًا إلى عقاب الله تعالى، وعذابه الأليم، وهو الخلود في نار جهنم، وأكثر الخلق اغترارًا بإمهال الله لهم وإنعامه عليهم، وما ذلك إلا لكفرهم وجهلهم بربهم وسننه، فالله تعالى يعجل لهم طيباتهم في الدنيا ويمهلهم ويؤخرهم إلى أن يأتيهم ذلك العذاب الأليم الذي توعدهم به، وأعده لهم، وهم في غفلتهم وطغيانهم، ويحسبون أن ذلك الإمهال خيرٌ لهم، قال الله تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [آل عمران:١٧٦].

فمن شدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى له: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] يؤخرون له ويستدرجون.

وقال تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم أيضًا: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾﴾ [آل عمران:١٩٦].

«أي: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه، من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجًا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٧]»[2].

وقال الطبري: «نهى الله تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم عن الاغترار بضربهم في البلاد، وإمهال الله إياهم مع شركهم وجحودهم نعمه، وعبادتهم غيره، وخرج الخطاب بذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، والمعني به غيره من أتباعه وأصحابه»[3].

والمقصود من هذه الآية التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧٣.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٩٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٩٣.

به قليلًا ويعذبون عليه طويلًا[(١)].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان:٢٣-٢٤].

قال الشعراوي: «هذا التمتع بزينة الحياة الدنيا ما هو إلا استدراج لهم لا تكريم، وقلنا: إنك لا تلقي بعدوك من على الحصيرة مثلًا، إنما تعليه وترفعه ليكون أخذه أليمًا وشديدًا، كذلك الحق سبحانه يمتعهم، لكن لفترة محدودة لتكون حسرتهم أعظم إذا ما أخذهم من هذا النعيم»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف:١٨٢].

وقال: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق:١٧].

أي: «قليلًا حتى أهلكهم»[(٣)]، وهي آيات صريحة في استدراجه تعالى لهم.

وقد أخبر تعالى في كتابه عن بعض من استدرجهم من أهل الكفر والتكذيب، وكيف أنه أمهلهم وأمدهم بالمال الكثير والنعيم الكبير، من ذلك قوله تعالى عن الوليد بن المغيرة أحد زعماء كفار قريش وساداتهم: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر:١١-١٧].

قال المفسرون[(٤)]: نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة يتوعده الله ويهدده.

قال: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، «أي: دعني واتركني وهي كلمة تهديد ووعيد، والمعنى دعني والذي خلقته حال كونه وحيدًا في بطن أمه لا مال ولا ولد، هذا على أن وحيدًا منتصب على الحال من الموصول أو من الضمير العائد المحذوف، ويجوز أن يكون حالًا من الياء في ذرني، أي: دعني وحدي معه»[(٥)].

ثم عدد الله تعالى نعمه عليه، ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾، أي: رزقه مالًا واسعًا كثيرًا، ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾، لا يغيبون، أي: حضورًا عنده لا يسافرون في التجارات، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم[(٦)]،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٢.
(٢) تفسير الشعراوي، الخواطر ١٩/ ١١٧١٤.
(٣) البسيط، الواحدي ٢٣/ ٤٢٢.
(٤) انظر: البسيط، الواحدي ٢٢/ ٤١٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٧١.
(٥) فتح البيان، القنوجي ١٤/ ٤٠٦.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٦٥.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤﴾ أي: «بسطت له في العيش والجاه والرياسة، ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾ أي: من المال والولد والجاه، أو من النعيم الأخروي. وهذا أظهر لقوله: ﴿كَلَّآۖ﴾ أي: لا يكون ما يأمل ويرجو؛ لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة هم المتقون، لا هو، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦﴾ أي: معاندًا للحجج المنزلة والمرسلة»[1].

قال السعدي في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾ «أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا»[2].

وهذا من استدراج الله تعالى له أن مده بالنعم والآلاء رغم كفره وعناده، حتى ظن الوليد أن ذلك لمرضاة الله عنه وحبه له، ومن ثم طمع بأمثال ذلك في الآخرة، فأنكر الله تعالى ذلك عليه وبيَّن بطلانه، بل وتوعد الوليد بالعذاب الشديد في قوله: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦﴾ [المدثر:٢٦].

أي: سأغمره فيها من جميع جهاته، ثم هول تعالى ذلك وفخمه فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾ [المدثر:٢٧].

ثم فسر ذلك بقوله: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ [المدثر:٢٨].

أي: تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم، ثم تبدل، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون[3]، فبيَّن تعالى أن ما أوتيه الوليد بن المغيرة من الأموال والأولاد والرياسة لا يغني عنه في الآخرة شيئًا، ولا يدل على رضا ربه عنه، وإنما هو استدراج له حتى يبقى على كفره وغيه.

وقال تعالى في حق أبي لهب - وهو من سادات قريش وزعماء الكفر -: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢﴾ [المسد:١-٢].

فتوعده تعالى بالخسران، وبين تعالى أن ماله لا يغني عنه من عذاب الله شيئًا، وهكذا يبين الله تعالى استدراجه لأهل الكفر وإمداده‌م في الحياة الدنيا.

وقد بين تعالى أن أهل الكفر والشرك يغترون بهذا الاستدراج، ويحسبونه من الخير لهم، ومن رضا الله عنهم وعن طريقتهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ:٣٥].

وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

قال ابن كثير: «يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟! كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحۡنُ

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٩٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٦٧.

﴿أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاء؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾»[1].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝١٠٦﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٦].

والآيات عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، والمعنى: أي قل يا محمد: هل نخبركم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾؟

ثم فسرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: عملوا أعمالًا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون، وهو من استدراج الله تعالى لهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾، أي: جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير[2].

ثانيًا: النفاق:

ومن مجالات الاستدراج: النفاق.

قال تعالى عن المنافقين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة:٩] إلى قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ [البقرة:١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

فالمنافقون يظنون أنهم بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر يخادعون المؤمنين، ويطلعون على أسرارهم، ويأمنونهم على أنفسهم، ويشاركونهم في إجراء أحكام الإسلام عليهم، وما علم المنافقون أنهم في حقيقة الأمر لا يخدعون إلا أنفسهم، «إذ ضرر عملهم لاحقٌ بهم، فهم يغرون أنفسهم بالأكاذيب ويلقونها في مهاوى الهلاك والردى»[3]، فالله تعالى يمهلهم ويمدهم في طغيانهم وغيهم استدراجًا إلى ما أعده لهم من عذابه الأليم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾ [النساء:١٤٥].

يقول سيد قطب: «وهذه لمسة أخرى

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٧٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٢٠٢.

(٣) تفسير المراغي ١/ ٥٠.

من لمسات المنهج للقلوب المؤمنة. فإن هذه القلوب لا بد أن تشمئز من قوم يخادعون الله. فإن هذه القلوب تعرف أن الله سبحانه- لا يخدع - وهو يعلم السر وأخفى، وهي تدرك أن الذي يحاول أن يخدع الله لا بد أن تكون نفسه محتوية على قدر من السوء ومن الجهل ومن الغفلة كبير. ومن ثم تشمئز وتحتقر وتستصغر كذلك هؤلاء المخادعين! ويقرر عقب هذه اللمسة أنهم يخادعون الله ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي: مستدرجهم وتاركهم في غيهم لا يقرعهم بمصيبة تنبههم ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم، تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا»[1].

ثالثًا: الظلم:

ومن مجالات الاستدراج الظلم والبغي، فالظالمون يتسلطون على الضعفاء والمساكين، ويسلبونهم حقوقهم، ويقهرونهم ويستعبدونهم، ومن ذلك ما قصه الله تعالى في كتابه من نبأ فرعون طاغية زمانه مع بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص:٤].

قال المفسرون: يخبر تعالى عن فرعون مصر أنه تكبر وتجبر وطغى، وجعل أهل تلك البلاد أصنافًا، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته، وكان يستضعف طائفة منهم، وهم بنو إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، فكان فرعون يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم، أي: يستبقيهن أحياءً، إهانة لهم واحتقارًا، وبنو إسرائيل مستضعفون عاجزون عن دفع الأذى عن أنفسهم[2].

وقد أملى الله تعالى لفرعون وأمهله حتى يزداد إثمًا وبغيًا، ويزداد بنو إسرائيل صبرًا وثوابًا، ثم إذا جاء أجله الذي أجله الله له أخذه أخذ عزيز مقتدر، وجعله عبرة لمن يعتبر.

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٨٣- ٧٨٤، وانظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٢٧٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٨٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢١.

[٢٥-٢٦].

وقد بيَن الله تعالى إمهاله للظالمين واستدراجه لهم في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:٤٨].

أي: «وكثير من القرى كانت ظالمة بإصرار أهلها على الكفر، فأمهلتهم، ولم أعاجلهم بالعقوبة فاغتروا، ثم أخذتهم بعذابي في الدنيا، وإلي مرجعهم بعد هلاكهم، فأعذبهم بما يستحقون»(١).

وجاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته).

قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢](٢).

فالله تعالى يمهل الظالم إلى وقت عذابه، ولكنه لا يهمله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

أي: لا تحسبه إذ أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عدا، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة(٣)، «يقال شخص بصر فلان أي فتحه فلم يغمضه»(٤).

قال القاسمي: «﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: بإمهالهم متمتعين بشهواتهم، ولا يعجل عقوبتهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي ترتفع فيه أبصار أهل الموقف، لهول ما يرون، فلا تقر أعينهم في أماكنها ولا تطرف»(٥).

والجملة تعليل للنهي السابق في الآية، وفيها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم، بل سنة الله سبحانه في إمهال الظالمين والعصاة(٦).

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم، ومجيئهم إلى المحشر، فقال: ﴿مُهْطِعِينَ

(١) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ص٣٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ إن أخذه أليمٌ شديدٌ)، رقم ٤٦٨٦، ٦/ ٧٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٣، ٤/ ١٩٩٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٥.
(٤) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٣٣٦.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٢١.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٣٨.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: «يقوم الظالمون من قبورهم مسرعين لإجابة الداعي رافعي رؤوسهم لا يبصرون شيئًا لهول الموقف، وقلوبهم خالية ليس فيها شيء؛ لكثرة الخوف والوجل من هول ما ترى»[(١)].

رابعًا: الفسق وسائر المعاصي:

ومن مجالات الاستدراج الفسق وسائر المعاصي، فإن الله عز وجل يوسع على الفساق العصاة مع انهماكهم في معصيته، وييسر أمورهم، وما ذلك إلا من استدراجه تعالى لهم، حتى يترك هؤلاء العصاة الغافلون التوبة والإنابة مما فعلوه، ويتمادوا في معاصيهم وآثامهم، فيأخذهم بغتة.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج).

ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤][(٢)].

فيبين النبي صلى الله عليه وسلم أن بسط الدنيا للعاصي ليس دليلًا على كرامته على الله عز وجل أو محبة الله عز وجل له، بل الحقيقة أن ذلك من مكر الله عز وجل به واستدراجه له، فيعطيه الله من الدنيا ما يحب، ويبسط له الأرزاق، حتى ينسيه التوبة والإنابة، وما ينفع العاصي ما هو فيه من النعيم يوم القيامة شيئًا، كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

ومن استدراجه تعالى للعصاة أن ييسر لهم أسباب المعصية ويعينهم عليها.

يقول الشيخ ابن عثيمين: «انتبه لهذا الاستدراج من الله عز وجل إذا يسر الله لك أسباب المعصية، فلا تفعل، فإن الله ربما ييسر أسباب المعصية للإنسان فتنة له، أرأيتم أصحاب السبت من بني إسرائيل يسرت لهم أسباب المعصية فتنة، وهي أن الله حرم عليهم صيد السمك يوم السبت، فكانت الحوت تأتي يوم السبت شرعًا على وجه الماء، وبكثرة عظيمة، لكنهم ملتزمون لم يصيدوا السمك في يوم السبت، فلما طال عليهم الأمد عجزوا عن ملك أنفسهم، فرجعوا إلى طبيعتهم وهي الغدر والحيلة والمكر، فاحتالوا على صيد السمك، صاروا

---

(١) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ص٢٦١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٣١١، ٢٨/ ٥٤٧.

وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم ٥٥٣، ١/ ١٥٨.

يجعلون شباكًا يوم الجمعة فتأتي الحيتان وتدخل في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوا الحيتان، وهذه حيلة واضحة، فقلبهم الله قردة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۝٦٥﴾ [البقرة:٦٥].

وفي صدر هذه الأمة حرم الله على المحرمين الصيد، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:٩٥].

فبعث الله الصيد عليهم وهم محرمون تناله أيديهم ورماحهم[1]، يعني أن الذي يمشي على الأرض يمسكونه باليد، مثل: الأرنب والغزال، يمسكه الواحد باليد، والطائر الذي كان لا ينال إلا بالسهم لأنه بعيد، صار يطير وكأنه على الأرض، الرمح يدركه، فتنة، فهنا يسر الله لهم أسباب المعصية، لكن الصحابة رضي الله عنهم، وهم خير الناس لم يأخذ أحد منهم صيدة واحدة رضي الله عنهم، بينما بنو إسرائيل تحيلوا وخادعوا الله، أما سلف هذه الأمة، وفقنا الله لموافقتهم في الدنيا في أعمالهم، وفي الآخرة في مساكنهم فإنهم لم يأخذوا»[2].

مظاهر الاستدراج

أولًا: الفتح بالنعم:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤].

أي: لما نسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من فنون النعماء استدراجًا منا لهم[3].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۝٥٥﴾ [التوبة:٥٥].

فنهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يستحسن شيئًا مما أنعم به على المنافقين من كثرة الأموال والأولاد؛ لأنها استدراج من الله تعالى لهم، يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بما يلقون في جمعها من المشقة، وفي حفظها من الوجل، وفي إنفاقها من الكره، وفيها من المصائب[4]، «ويميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم - عياذًا بالله

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٤﴾ [المائدة:٩٤].

(٢) تفسير سور الحجرات - الحديد، ابن عثيمين ص ٢٨١.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٣٣.

(٤) انظر: البسيط، الواحدي ١٠/ ٤٩١، ٤٩٣، تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٢٤٩، التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٨٧٢.

من ذلك -، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه»[1].

قال أبو السعود: «﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة، فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة، وأصل الزهوق الخروج بصعوبة»[2].

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٧-٨٨].

قال الشنقيطي: «لما بين تعالى أنه آتى النبي صلى الله عليه وسلم السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك أكبر نصيب، وأعظم حظ عند الله تعالى، نهاه أن يمد عينيه إلى متاع الحياة الدنيا الذي متع به الكفار؛ لأن من أعطاه ربه جل وعلا النصيب الأكبر والحظ الأوفر، لا ينبغي له أن ينظر إلى النصيب الأحقر الأخس، ولاسيما إذا كان صاحبه إنما أعطيه لأجل الفتنة والاختبار.

وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٠-١٣٢].

والمراد بالأزواج هنا: الأصناف من الذين متعهم الله بالدنيا»[3].

«والمعنى: لا تحفل - أيها الرسول الكريم - ولا تطمح ببصرك طموح الراغب في ذلك المتاع الزائل، الذي متع الله تعالى به أصنافًا من المشركين فإن ما بين أيديهم منه، شيء سينتهي عما قريب، وقد آتاهم الله تعالى إياه على سبيل الاستدراج والإملاء، وأعطاك ما هو خير منه وأبقى، وهو القرآن العظيم»[4].

وقال تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

ونزلت هذه الآية في سادات كفار قريش، الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم طرد فقراء المسلمين الذين -يدعون الله غدوًا وعشيًا- من حوله[5]، فأمر الله نبيه صلى

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٣.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٧٤.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣١٥.
(٤) الوسيط، طنطاوي ٨/ ٧٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٨.

الله عليه وسلم بالصبر على أهل الإيمان من الذاكرين العابدين، ونهاه عن طاعة أهل الكفر ممن استدرجهم تعالى بنعمه، وأغفلهم بها عن ذكره.

قال ابن كثير: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعًا له، ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١]»[1].

وهكذا يبين تعالى أن هذا الإنعام على بعض الكفار دون المؤمنين ليس حبًا لهم أو رضًا عنهم، وإنما أغفلهم الله بها عن ذكره وطاعته ولقائه، استدراجًا منه تعالى لهم.

وقد بيَن الله تعالى اغترار بعض عباده واستدراجهم بما أنعم عليهم من النعم، من ذلك قوله تعالى مخبرًا عن أهل الكفر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف:١١].

أي: أنكروا أن يمن الله على الضعفاء والفقراء من المؤمنين بالإيمان -إن كان خيرًا- دونهم، زعما منهم أنهم أحق بكل خير منهم.

قال الشنقيطي: «مرادهم أن فقراء المسلمين وضعفاءهم - كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم - أحقر عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير، وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير؛ لزعمهم أن الله أكرمهم في الدنيا بالمال والجاه، وأن أولئك الفقراء لا مال لهم ولا جاه، وأن ذلك التفضيل في الدنيا يستلزم التفضيل في الآخرة»[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ:٣٤-٣٧].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله إذا أرسل رسولًا في قرية من القرى، كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٤.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٢٢٠.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أي: ممن اتبع الحق، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: أولا لسنا بمبعوثين، فإن بعثنا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا.

فأجابهم الله تعالى، بأن بسط الرزق وتضييقه، ليس دليلًا على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه، وليست الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه.

وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاء به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفًا، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة»[1].

وهكذا بيَن تعالى اغترار أهل الكفر بما أنعم عليهم من الأموال والأولاد، ويحسبونه دليلًا على صحة اعتقادهم، وما ذلك إلا من استدراج الله تعالى لهم.

وقد رد الله تعالى عليهم في عدة مواضع من كتابه، ومن ذلك قوله جل شأنه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام:٦].

قال ابن كثير: «قال تعالى واعظًا ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعًا، وأكثر أموالًا وأولادًا واستغلالًا للأرض وعمارة لها.

فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾، أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة، والجنود، ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾، أي: شيئًا بعد شيء، ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾، أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي: استدراجًا وإملاء لهم، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترحوها، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث، ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، أي: جيلًا آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم فهلكوا كهلاكهم.

فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه»[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٤٠.

ثانيًا: الإطالة في العمر:

ومن مظاهر استدراج الله تعالى: الإطالة في العمر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ۝٤٣ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝٤٤﴾ [الأنبياء:٤٢-٤٤].

فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمعرضين عن ذكر ربهم: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي: من هو الذي يحفظكم ويحرسكم بالليل في حال نومكم والنهار في حال تصرفكم في أموركم غير الرحمن[(١)]، أي: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه.

ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾، استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾، أي: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم متعوا في الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء»[(٢)].

قال البيضاوي: «إضراب عما توهموا ببيان ما هو الداعي إلى حفظهم، وهو الاستدراج والتمتيع بما قدر لهم من الأعمار، أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك، وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه ولذلك عقبه بما يدل على أنه أمل كاذب فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾، أرض الكفرة، ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، بتسليط المسلمين عليها، وهو تصوير لما يجريه الله تعالى على أيدي المسلمين، ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، رسول الله والمؤمنين»[(٣)].

فحاصل معنى الآيات: «أي: لا تلتفت -أيها الرسول الكريم- إلى هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن ذكر ربهم، والذين زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع، فإننا قد كلأناهم برعايتنا بالليل والنهار، ومتعناهم وآباءهم من قبلهم بالكثير من متع الحياة الدنيا، حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر والإصرار على

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٥٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٤٤.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٥٢.

الكفر. وسنأخذهم في الوقت الذي نريده أخذ عزيز مقتدر، فإن ما أعطيناه لهم من نعم إنما هو على سبيل الاستدراج لهم»[1].

ثالثًا: تأخير العقاب:

ومن مظاهر استدراج الله تعالى لعباده تأخير عقابه عنهم، فيتهاونون في معصيته ويتجرؤون عليها، أو يستحلونها -كحال أهل الشرك والكفر- ويعتقدون أنهم على حق في ارتكابها، وما ذلك إلا من استدراجه تعالى لهم، ليزدادوا إثمًا وضلالًا، ولو أن الله تعالى عاجل كل مسيء بالعقوبة لما بقي على ظهر الأرض منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر:٤٥].

قال السعدي: «ذكر تعالى كمال حلمه، وشدة إمهاله وإنظاره أرباب الجرائم والذنوب، فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أي: لاستوعبت العقوبة، حتى الحيوانات غير المكلفة. ﴿وَلَٰكِن﴾ يمهلهم تعالى ولا يهملهم و﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ فيجازيهم بحسب ما علمه منهم، من خير وشر»[2]، وقد كان أهل الكفر يغترون بإمهال الله لهم وإمساك العذاب عنهم، وقد ذكر تعالى ذلك في عدة مواضع من كتابه، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

أي: يقولون إن كان محمد صلى الله عليه وسلم على حق، فلم لا يعذبنا الله، وما علموا أن ذلك من استدراج الله لهم، قال ابن كثير: «هذا من كثرة جهلهم وعتوهم وعنادهم وشدة تكذيبهم، وهذا مما عيبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: «اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه». ولكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة»[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود:٨].

ولذلك كانوا يستعجلون العذاب من النبي صلى الله عليه وسلم إنكارًا لوقوعه، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد على المشركين قائلًا: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ

(١) الوسيط، طنطاوي ٩/ ٢١٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٧.

﴿عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام:٥٨].

«أي: لو أن في قدرتي وإمكاني العذاب الذي تتعجلونه، بأن يكون أمره مفوضًا إلي من قبله تعالى، لقضي الأمر بيني وبينكم، بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم»[1].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

«أي: بحالهم وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب، ولذلك لم يفوض الأمر إلي ولم يقض بتعجيل العذاب»[2].

وهكذا بين الله تعالى استدراجه بعض خلقه بتأخيره العقاب عنهم، ليزدادوا إثمًا وضلالًا.

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٣٧٩.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٦١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ١٤٣.

نماذج قرآنية في الاستدراج

ذكر القرآن الكريم نماذج كثيرة للمستدرجين في قصص الأمم، وواقع الجماعات والأفراد، ليعتبر منها أولو الأبصار والألباب، ويتعرفوا على سنن الله في خلقه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١١١].

ومن تلك النماذج:

أولًا: قارون:

وهو من المستدرجين بالمال والثروة.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُولِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص:٧٦].

قال ابن عاشور رحمه الله: «كان من صنوف أذى أئمة الكفر للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ومن دواعي تصلبهم في إعراضهم عن دعوته اعتزازهم بأموالهم، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف:٣١].

أي: على رجل من أهل الثروة، فهي عندهم سبب العظمة ونبزهم المسلمين

بأنهم ضعفاء القوم، وقد تكرر في القرآن توبيخهم على ذلك كقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ [المزمل:١١].

وقد ضرب الله الأمثال للمشركين في جميع أحوالهم بأمثال نظرائهم من الأمم السالفة، فضرب في هذه السورة لحال تعاظمهم بأموالهم مثلًا بحال قارون مع موسى عليه السلام[١]، أي: كما أن إنعامنا على قارون بالأموال العظيمة، - والتي كانت في غاية الكثرة حتى إن مفاتح خزائنها لتثقل الجماعة القوية عن حمل هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟[٢]، كما أن ذلك الإنعام العظيم عليه لم يكن إلا استدراجًا له، بدليل قوله تعالى في آخر قصته: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ۝٨١﴾ [القصص:٨١].

فكذلك أنتم يا كفار قريش وما أوتيتم من الأموال، والتي هي أقل مما أوتي قارون، وأيضًا كما كان قارون يقول عن نفسه وما أوتيه من مال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:٧٨].

أي: إنما أعطاني الله هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي، فتقديره: إنما أعطيته لعلم الله في أني أهل له[٣]، وهو من استدراج الله له، كذلك أنتم يا كفار قريش تقولون، وتفخرون بأموالكم، وقد رد القرآن الكريم على قارون.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

«أي: قد كان من هو أكثر منه مالًا، وما كان ذلك عن محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لكثرة ذنوبهم»[٤].

وقد بيَن الله تعالى في قصة قارون اغترار بعض قوم قارون بحاله، واعتقادهم أن ذلك من الخير العظيم الذي أوتيه.

قال سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ [القصص:٧٩].

ثم بيَن تعالى أن أهل العلم يعلمون أن ذلك من استدراج الله تعالى، وأن ثواب الله خير وأبقى لمن آمن وعمل صالحًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٧٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٤.
(٤) المصدر السابق ٦/ ٢٥٥.

﴿صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ [القصص: ٨٠].

وهكذا يضرب الله الأمثال لاستدراجه عباده، لعلهم يعتبرون بذلك.

ثانيًا: فرعون وملأه:

ومن المستدرجين بالقوة والملك من الأمم السابقة فرعون وملأه.

قال تعالى حاكيًا عن موسى دعاءه عليهم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: ٨٨].

قال ابن كثير: «هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلمًا وعلوًا وتكبرًا وعتوًا، قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أي: جزيلة كثيرة، ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ بفتح الياء[1]، أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجًا منك لهم...

وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ بضم الياء، أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم، ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: أي: أهلكها... ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، قال ابن عباس: أي اطبع عليها، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء»[2].

وقد اختلف المفسرون في اللام في ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ على أقوال، اختار منها ابن جرير الطبري وأبو حيان[3] أنها لام (كي).

قال الإمام الطبري: «ومعنى الكلام: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه، ويضلوا عن سبيلك عبادك، عقوبة منك. وهذا كما قال جل ثناؤه: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧]»[4].

وقال أبو السعود: «وقيل: اللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت، أو للعلة؛ لأن إيتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على

(١) قرأ الكوفيون بضم الياء، والباقون بفتحها. انظر: البدور الزاهرة، عبد الفتاح القاضي ص١٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٠.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٦/ ٩٩.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٧٩.

الضلال»[1].

وهكذا ذكر الله تعالى استدراجه لآل فرعون بما أعطاهم من الأموال والزينة في الحياة الدنيا، ثم أهلكهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

ثالثًا: صاحب الجنتين:

ومن أمثلة استدراج الله تعالى للعصاة ما جاء في قصة صاحب الجنتين، وقد ذكرها تعالى في سورة الكهف في سياق الرد على كفار قريش الذين كانوا يفتخرون بأموالهم على فقراء المسلمين وضعفائهم، ويمتنعون عن الجلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم والاستماع له بسبب وجود هؤلاء الفقراء في مجلسه، وقد أنزل الله تعالى في ذلك قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

قال الشنقيطي: «أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة: أن يصبر نفسه، أي: يحبسها مع المؤمنين الذي يدعون ربهم أول النهار وآخره مخلصين له، لا يريدون بدعائهم إلا رضاه جل وعلا، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في فقراء المهاجرين كعمار، وصهيب، وبلال، وابن مسعود ونحوهم، لما أراد صناديد الكفار من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطردهم عنه، ويجالسهم بدون حضور أولئك الفقراء المؤمنين»[2].

وما علم كفار مكة أن كثرة أموالهم، وما هم فيه من النعم، هو من استدراج الله لهم، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يضرب لكفار قريش قصة صاحب الجنتين مثلًا لذلك الاستدراج، وأن إيتاء الله الأموال لبعض عباده، وتركهم يفتخرون بها على غيرهم، لا يدل على حبه تعالى لهم، ورضاه عنهم.

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف:٣٢-٣٣].

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فبيّن الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيًا والغني فقيرًا، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته، وهي حاصلة لفقراء المؤمنين، وبيّن ذلك

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٧٤.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦٣.

بضرب هذا المثل المذكور في الآية»[١].

وقال الحافظ ابن كثير: «يقول الله تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلًا برجلين، جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾، أي: أخرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾، أي: ولم تنقص منه شيئًا، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾، أي: والأنهار تتخرق فيهما هاهنا وهاهنا»[٢].

ثم ذكر تعالى حوارًا دار بين هذين الرجلين، بيّن تعالى فيه ظلم صاحب الجنتين لنفسه، وافتخاره على صاحبه، قال سبحانه: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦].

أي: قال «صاحب هاتين الجنتين لصاحبه ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس، ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا»[٣].

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾، قيل: إنه أخذ بيد أخيه المؤمن يطوف به فيها ويريه أثمارها[٤]، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾، أي: «بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾، وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى، ولا تفرغ، ولا تهلك، ولا تتلف، وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة»[٥].

قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، أي: «أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته، قال الزجاج: أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ اللام هي الموطئة للقسم، والمعنى: أنه والله إن يرد إلى ربه فرضًا وتقديرًا كما زعم صاحبه، واللام في ﴿لَأَجِدَنَّ﴾، جواب القسم والشرط، أي: لأجدن يومئذ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾»[٦].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤٠٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٦) فتح البيان، القنوجي ٨/ ٥٢.

قال أبو السعود: «ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقادٌ أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه، ولم يدر أن ذلك استدراجٌ»[(١)].

وقد بيَّن الله تعالى عاقبة استدراجه لهذا الكافر المكذب، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾ [الكهف:٤٢].

فأخبر الله تعالى عن ذلك الرجل الكافر الظالم لنفسه، الذي كان يظن أن بساتينه وثماره لن تبيد أبدًا، وأنه أوتيها لخير فيه واستحقاق لها، وأنه إن رد إلى ربه على فرض وقوع ذلك فسيجد أعظم وأفضل من هذه الجنة، - وما ذاك إلا من استدراج الله تعالى له - فأخبر الله تعالى عن عاقبة استدراجه له في الدنيا، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، أي: أحاط الهلاك بصنوف ثماره وأشجاره كما يحيط القوم بعدوهم فيهلكونهم عن آخرهم[(٢)].

قال الفخر الرازي: «﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وهو عبارة عن إهلاكه بالكلية، وأصله من إحاطة العدو؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل في كل إهلاك ومنه قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡ﴾ [يوسف:٦٦]»[(٣)]، «والمعنى: أتلف ماله كله بأن أرسل على الجنة والزرع حسبان من السماء فأصبحت صعيدًا زلقًا، وهلكت أنعامه وسلبت أمواله، أو خسف بها بزلزال أو نحوه»[(٤)].

﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾، أي: يقلب كفيه ظهرًا لبطن أسفًا وتحسرًا على ذهاب نفقته التي أنفقها في جنته وعمارتها وتزيينها، وقد ضاعت هباءً، وذهبت سدى، ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، وجنته ساقطة ومتهدمة على دعائمها وعلى سقوفها، والمقصود أن الجنة بجميع ما اشتملت عليه، صارت حطامًا وهشيمًا تذروه الرياح[(٥)].

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾، أي: أخبر الله تعالى أنه لما سلبه ما أنعم به عليه، وحقق ما أنذره به أخوه المؤمن في الدنيا، ندم على شركه حين لا تنفعه الندامة[(٦)]، وقال الزمخشري: «علم أنه أتي من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركًا، حتى لا يهلك الله بستانه»[(٧)].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٢٢.
(٢) انظر: البسيط، الواحدي ١٤/ ٢٧.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٧٦٩.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٢٦، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٧، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١٧٣، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٤١، التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٥٢١.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٨٦.
(٧) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٢٤.
وانظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٧/ ١٨١.

رابعًا: الكافر المغتر بماله وولده:

ومن نماذج المستدرجين، الكافر المغتر بماله وولده.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾ [مريم: ٧٧-٨٠].

قال المفسرون: نزلت الآية في العاص بن وائل[1] أحد زعماء المشركين بمكة، روي عن خباب رضي الله عنه، قال: (كنت قينًا[2] في الجاهلية، وكان لي على العاص بن وائلٍ دينٌ، فأتيته أتقاضاه، قال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، فقلت: (لا أكفر حتى يميتك الله، ثم تبعث[3]، قال: دعني حتى أموت وأبعث، فسأوتى مالًا وولدًا فأقضيك). فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾[4].

والآيات -وإن كانت نازلة في كافر معين- فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة[5] استدراجًا من الله تعالى له.

والمعنى: أن الله تعالى يعجب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم من مقالة هذا الكافر الذي يزعم رغم كفره وإعراضه، أنه سيجازى في الآخرة أموالًا وأولادًا، قال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، «واللام في ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هي الموطئة للقسم، كأنه قال: والله لأوتين في الآخرة مالًا وولدًا»[6]، والنون للتوكيد، وقال في قسمه الحانث (لأوتين)، أي: أنه بإرادته وقدرته الواهمة سيكون له مال[7].

وهذا كله من غروره وجهله، واستدراج الله تعالى له، قال الشوكاني: «أي: انظر إلى حال هذا الكافر، وتعجب من كلامه وتأليه

---

(١) انظر: البسيط، الواحدي ١٤/ ٣١٠.

(٢) قينًا: أي حدادًا أو صائغًا.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ١٣٥.

(٣) قال ابن حجر: «قوله: فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله، ثم تبعث، مفهومه أنه يكفر حينئذ، لكنه لم يرد ذلك؛ لأن الكفر حينئذ لا يتصور، فكأنه قال لا أكفر أبدًا، والنكتة في تعبيره بالبعث تعيير العاص بأنه لا يؤمن به»، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني ٨/ ٤٣٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ذكر القين والحداد، ح٢٠٩١، ٣/ ٦٠، صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] الآية، ح٢٧٩٥، ٤/ ٢١٥٣.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٩٩.

(٦) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤١١.

(٧) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٦٨٢.



على الله، مع كفره به، وتكذيبه بآياته»[1].

ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله، ويبين غروره وجهله، فقال: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾؟ ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾، وهو حرف ردع وزجر، أي: ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾، أي: سنحفظ عليه ما يقوله فنجازيه في الآخرة، ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: نزيده عذابًا فوق عذابه مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، أو نطول له من العذاب ما يستحقه، وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء، ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾، أي: نميته فنرثه المال والولد الذي يقول إنه يؤتاه ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾، أي: يوم القيامة لا مال له ولا ولد، بل نسلبه ذلك، فكيف يطمع في أن نؤتيه[2].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤١١.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٤١٢.

عاقبة المستدرجين

أولًا: عاقبة المستدرجين في الدنيا:

للاستدراج عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، وقد بيَن الله تعالى في كتابه العزيز عاقبة المستدرجين ومآلهم، تحذيرًا من سلوك طريقهم وولوج سبيلهم، والوقوع فيما وقعوا فيه من الخسران العظيم.

ومن هذه العواقب في الدنيا: أن يأخذهم الله تعالى أخذًا شديدًا مفاجئًا لهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

«والبغتة فعلةٌ من البغت وهو الفجأة، أي: حصول الشيء على غير ترقب عند من حصل له وهي تستلزم الخفاء»[3].

ومعلوم أن الأخذ فجأة أشد إيلامًا وإفزاعًا مما يسبقه استعداد وتحضر، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي: انقطع رجاؤهم؛ لأن العذاب كان بغتة حصل الإبلاس لهم، كالذي يتعلل لما يقع له بقوله: كانت فجأة، أي: ليس بوسعي أن أستعد أو أحتاط لذلك، قال الفراء: «المبلس: اليائس المنقطع رجاؤه، ولذلك قيل للذي يسكت

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣١.

عند انقطاع حجته، ولا يكون عنده جواب: قد أبلس»[1]، وقال الألوسي: «أنزلنا بهم العذاب ﴿بَغْتَةً﴾، أي فجأة ليكون أشد عليهم وأفظع هولًا... ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أي آيسون من النجاة والرحمة... ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: آخرهم... فالمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب ولم يبق منهم أحد... ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، على ما جرى عليهم من النكال والإهلاك، فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها، فهذا منه تعالى تعليم للعباد أن يحمدوه على مثل ذلك»[2].

وقال المراغي: «أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كونهم مبغوتين، إذ فاجأهم على غرة من غير سبق أمارات ولا إمهال للاستعداد أو للهرب، فإذا هم مبلسون، أي: يائسون من النجاة»[3].

وقال الواحدي: «قال أهل المعاني: (إنما أخذوا في حال الرخاء ليكون أشد لتحسرهم علي ما فاتهم من حال السلامة والعافية والتصرف في ضروب اللذة إلى حال البلية والنقمة)»[4].

(١) معاني القرآن، الفراء ١/ ٣٣٥.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٦٨.
(٣) تفسير المراغي، ٧/ ١٢٥.
(٤) البسيط، الواحدي ٨/ ١٤١.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أمثلة كثيرة في أخذه المستدرجين وانتقامه منهم في الدنيا، كفرعون وقومه أغرقهم الله تعالى، قال عز وجل: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝١٣٦﴾ [الأعراف:١٣٦].

وعاد أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، وثمود أهلكهم بالصيحة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة: ٥-٦].

وقارون خسف به الأرض.

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾ [القصص:٨١].

وصاحب الجنتين دمر تعالى عليه جنتيه.

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٤٢﴾ [الكهف:٤٢].

وغيرهم الكثير.

وقال الله تعالى مسليًا نبيه صلى الله عليه وسلم في تكذيب قومه له: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ

﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝﴾ [الحج:٤٢-٤٦].

أخبر تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أنه كما كذبك قومك فقد كذبت الأمم والأقوام السابقة أنبياءهم، فأمليت لهم، وأمهلتهم، وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، «أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟!»[١].

ثم أخبر تعالى عما كانت عليه تلك الأمم، وأولئك الأقوام من النعيم والمتع التي استدرجهم تعالى بها، فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾

أي: كم من قرية أهلكها الله بالعذاب الشديد، لظلمها بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، فسقطت عروشها، وأصبحت ديارها وقصورها خرابًا بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت آهلة بأهلها آنسة، وصارت آبارها التي كانت يزدحم عليها الخلق لشربهم، وشرب مواشيهم، متروكة قد عدم منها الوارد والصادر، وأصبح أهل هذه القرى عبرة لمن اعتبر[٢].

كما حذر تعالى عباده من هذه العاقبة الوخيمة فقال عز شأنه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۝﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

والمعنى أنه تعالى ينكر على أهل القرى المكذبة لرسلها عدم خوفهم من بأسه الشديد وعقابه الأليم، أن يأتيهم وقت بياتهم وهم غارقون في نومهم؟ أو وقت ضحى النهار وانبساط الشمس، وهم منهمكون فيما لا نفع فيه لهم؟[٣].

ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، أي: أفأمن هؤلاء المكذبون استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش، فإن مكر الله لا يأمنه، إلا القوم الهالكون[٤].

وهكذا يحذر الله تعالى عباده من وقوع عقابه الأليم بهم.

ثانيًا: عاقبة المستدرجين في الآخرة:

ومن عواقب المستدرجين في الآخرة، العذاب الأليم والنكال العظيم في نار جهنم وبئس المصير.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٧.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٤٠.
(٣) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص٢٢١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٧٨.

قال تعالى في حق فرعون وقومه: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

فبيَن الله تعالى عذابهم في البرزخ بقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وبين عذابهم في الآخرة بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[1]، وقال تعالى في حق الوليد بن المغيرة: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: ٢٦].

أي: أدخله جهنم[2].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

يقول تعالى - مبينًا حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، ونعمة الله هي إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم، وصدهم غيرهم حتى ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، وهي النار حيث تسببوا بإضلالهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم بدر، ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الوقعة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾، أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[3].

وبيَن تعالى أنه يضاعف العذاب للمستدرجين في الآخرة.

قال تعالى في حق العاص بن وائل: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم: ٧٧-٨٠].

قال الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله ﴿كَلَّا﴾: ليس الأمر كذلك، ما اطلع الغيب، فعلم صدق ما يقول، وحقيقة ما يذكر، ولا اتخذ عند الرحمن عهدًا بالإيمان بالله ورسوله، والعمل بطاعته، بل كذب وكفر.

﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾، يقول: ونزيده من العذاب في جهنم بقيله الكذب والباطل في الدنيا، زيادة على عذابه بكفره بالله»[4].

وهكذا يبين الله تعالى عاقبة المستدرجين

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٨٩.
(٢) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص ٧٧٧.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤٨ بتصرف يسير.

في الدنيا والآخرة، ويحذر بذلك عباده من استدراجه وكيده لمن عصاه وأعرض عن طاعته.

موضوعات ذات صلة:

الابتلاء، الفتنة، العذاب



عناصر الموضوع

مفهوم الاستطاعة

أولًا: المعنى اللغوي:

طوع: الطاء والواو والعين أصل صحيح واحد يدل على الإصحاب والانقياد، يقال: طاعه يطوعه، إذا انقاد معه ومضى لأمره، وأطاعه بمعنى طاع له، والاستطاعة مشتقة من الطوع، كأنها كانت في الأصل الاستطواع، فلما أسقطت الواو جعلت الهاء بدلًا منها، واسطاعه وأسطاعه واستاعه وأستاعه: أطاقه، فاستطاع على قياس التصريف، وأما اسطاع - موصولة - فعلى حذف التاء لمقاربتها الطاء في المخرج فاستخف بحذفه، والاستطاعة القدرة على الشيء[(١)] .

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: «اسم للمعاني التي بها يتمكن الإنسان مما يريده من إحداث الفعل، وهي أربعة أشياء: بنية مخصوصة للفاعل، وتصور للفعل، ومادة قابلة لتأثيره، وآلة إن كان الفعل آليًا، كالكتابة، فإن الكاتب يحتاج إلى هذه الأربعة في إيجاده للكتابة، ولذلك يقال: فلان غير مستطيع للكتابة»[(٢)] .

الاستطاعة: «هي عرض يخلقه الله تعالى في الحيوان، يفعل به الأفعال الاختيارية»[(٣)] .

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، أحمد بن فارس ١/ ٤٣١ ، المحكم، ابن سيده ٢/ ٣١٢، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٤٢.

(٢) المفردات، ص٥٣٠.

(٣) التعريفات، الجرجاني ١٩، كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي ١/ ٧٢.



الاستطاعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طوع) في القرآن (١٢٩) مرة، يخص موضوع البحث منها (٤٢) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٥	﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف:٩٧]
الفعل المضارع	٢٧	﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:١٢٩]

وجاءت الاستطاعة في الاستعمال القرآني بمعناها في اللغة: الإطاقة ووجود ما يصير به الفعل متأتيًا؛ سواء تعلق ذلك بالقدرة القلبية أو البدنية أو المالية أو غيرها من المعاني التي بها يتمكن الإنسان مما يريده من إحداث الفعل[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢٩- ٤٣١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٧٢٣- ٧٢٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٩٠- ٩١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ١٨٧- ١٨٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٨٨- ٨٩، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٤٢١- ٤٢٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ القدرة:

القدرة لغة:

الطاقة والقوة على الشيء والتمكن منه، والغنى والثراء، يقال: رجل ذو قدرة ذو يسار وغنى[(١)].

القدرة اصطلاحًا:

«هي الصفة التي تمكن الحي من الفعل وتركه بالإرادة، والقدرة: صفة تؤثر على قوة الإرادة»[(٢)].

الصلة بين الاستطاعة والقدرة:

الاستطاعة أخص من القدرة، فكل قادر مستطيع، وليس كل مستطيع قادرًا، ولهذا لا يوصف الله عز وجل بالاستطاعة؛ لكون القدرة أعم من الاستطاعة[(٣)].

٢ الوسع:

الوسع لغةً:

و س ع: (وسعه) الشيء بالكسر يسعه (سعة) بالفتح، و (الوسع) و(السعة) بالفتح الجدة والطاقة جدة الرجل، أي على قدر سعته لا يدخر وسعًا: يفعل أقصى ما يقدر عليه[(٤)].

الوسع اصطلاحًا:

الوسع وهو «قدر ما تسع له القوة، وهو بمنزلة الطاقة، وهو نهاية مقدور القادر، ولا يصح ذلك إلا لله تعالى»[(٥)].

قال الزمخشري: «إن الوسع هو ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه، ولا يحرج فيه، فالله لا يكلف النفس إلا ما يتسع فيه طوقها، وتيسير عليها دون مدى غاية الطاقة والمجهود، فقد كان في طاقة الإنسان أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من شهر ويحج أكثر من حجة»[(٦)].

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٩ / ٤٠، مختار الصحاح، الرازي ص ٢٤٨، المصباح، الفيومي ٢/ ٤٩٢.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص١٧٣.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٤٧ ، ١١٠.
(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٠٣، مختار الصحاح، الرازي، ص٣٣٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢٤٤٠.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٥٦٧.
(٦) الكشاف ١: ٤٠٨.



الصلة بين الاستطاعة والوسع:

الوسع أخص من الاستطاعة، فالوسع ما يستطيع المرء فعله بلا مشقة[1]، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦].

٣ الإطاقة:

الإطاقة لغة:

هي القدرة على عمل الشيء[2].

الإطاقة اصطلاحًا:

هي القدرة على الاحتمال[3].

الصلة بين الاستطاعة والإطاقة:

لم يفرق علماء اللغة بين الإطاقة والاستطاعة وعند تعريفهم للإطاقة كانت بمعنى الاستطاعة[4]، أما في العرف فتطلق الاستطاعة للإنسان خاصة، والإطاقة تكون عامة للإنسان والحيوان والجماد[5] .

٤ العجز:

العجز لغة:

العجز، الضعف، و أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر، أي: مؤخره كما ذكر في الدبر، وعجز عن الأمر، يعجز عجزًا وعجوزًا وعجزانًا، فهو عاجز[6] .

العجز اصطلاحًا:

القصور عن فعل الشيء وعدم القدرة[7].

الصلة بين الاستطاعة والعجز:

العجز هو نقيض الاستطاعة.

(١) انظر: الكليات، الكفوي، ص١٠٩.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٢٣٢.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي، ص ١٤١ ، شمس العلوم، نشوان الحميري ٧/ ٤١٩٢.
(٤) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٥ ، مختار الصحاح، الرازي، ص ١٩٣ .
(٥) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢١/ ٤٦٣.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ٨٨٣، مجمل اللغة، ابن فارس، ص٦٤٨، تاج العروس، الزبيدي ١٥/ ٢٠٠.
(٧) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٨٦ .

الاستطاعة شرط التكليف

لقد كلفنا الشرع الحكيم بالعديد من التكاليف، وأعطانا سبحانه وتعالى القدرة على القيام بها، فهناك أشياء نحن مجبرون عليها لا اختيار لنا بها، مثل: الأرزاق والصحة، ومثل: عمل أجهزة الجسم، فالقلب مثلًا نحن لا نستطيع إيقافه وتشغيله متى نشاء، فهذه أمور بيد الله وحده.

أما التكاليف التي فرضت علينا من أوامر ونواهٍ فقد جعل سبحانه وتعالى فينا القدرة والاستطاعة على فعلها.

فالاستطاعة هي مناط التكليف بواجبات الشريعة بعد العقل والعلم، فالعاقل العالم بالحكم الشرعي لا يجب عليه الفعل إلا إذا كان مستطيعًا قادرًا عليه[1].

فالاستطاعة التي هي مناط التكليف، وحدها قدر المستطاع وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران: ٩٧][2].

قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[المجادلة: ٤].

ومثل قوله صلى الله عليه وسلم: **(صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب)**[3].

فبين الله سبحانه وتعالى المقدار الذي كلف البشرية به، هو الاستطاعة الدائمة، فنحن لا نكلف إلا المستطاع الذي لا يشق أداؤه، وهذا هو المعنى الذي يتفق مع الحقائق الإسلامية والسنن المروية الثابتة، وإن أفضل الأعمال في الإسلام ما يدوم، وما يمكن أن يستمر الشخص عليه من غير إجهاد ومشقة.

فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: **(أدومها وإن قل)** وقال: **(تكلفوا من الأعمال ما تطيقون)**[4].

وذلك لا يكون إلا في دائرة المستطاع.

فالحج فريضة على كل مسلم ولكن ليس أي مسلم، فليس كل عالم بفريضة الحج يجب عليه أداؤه إلا المستطيع، فالاستطاعة شرط أساسي للحج، وكذلك بقية واجبات الدين ومنها الجهاد والصيام.

ومن الأدلة العامة في ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:

(١) انظر: القضاء والقدر، عمر الأشقر، ص ٩٥.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٣٢٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب إذا لم يطق قاعدًا صلى على جنب، ٢/ ٤٨، رقم ١١١٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ٨/ ٩٨، رقم ٦٤٦٥.

٢٨٦].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)[(١)].

فإن لم يستطع المسلم سقط عنه الواجب، ومنه قاعدة (لا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة).

لكن إن كان الواجب المعجوز عنه له بدل وجب الانتقال إلى بدله؛ فإن لم يكن له بدل سقط، وإن عجز عن بدله سقط، مثال ذلك: إذا عجز عن الطهارة بالماء سقط عنه وجوب التطهر بالماء، لكن ينتقل إلى التيمم؛ فإن عجز سقط التيمم أيضًا[(٢)].

وفي الحديث الصحيح قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون)[(٣)].

ومن المعلوم أن الله عز وجل لا يكلف ما لا يطاق؛ لأن هناك من هو عاجز لا يقوى على أداء التكليف، فلا يكلف المقعد بأن يصلي قائمًا، ولا يكلف المريض بالصيام، ولا يكلف الأعمى بالجهاد والقتال، لخروج ذلك عن المقدور.

فالاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع، ألفاظ متقاربة، وقال البعض: إن الاستطاعة مع الفعل أو قبله، والصواب أنها نوعان: نوع قبله وهو المصححة للتكليف التي هي شرط فيه، ونوع مقارن له، فليست شرطًا في التكليف وهو قول عامة أهل السنة، وهو الوسط[(٤)].

وشرط الاستطاعة وجودها حقيقة لا حكمًا، والمقصود بوجودها حقيقة: وجود القدرة على الفعل من غير تعسر، ومعنى وجودها حكمًا القدرة على الأداء بتعسر[(٥)].

والذي قاله عامة أهل السنة أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي وإلا لكانت أوامر الله عز وجل ونهيه لا طائل منها تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وأما الاستطاعة التي تتقدم الأفعال هي القدرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وهي مناط التكليف.

فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج، ولم يعاقب أحدًا على ترك الحج! وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٣٠، رقم ١٣٣٧.
(٢) انظر: تفسير الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين ٣/ ٤٥٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، ١/ ٥٤٠، رقم ٧٨٢.
(٤) انظر: شرح الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص ٤٣٣، الموافقات، الشاطبي ٢/ ٢٠٥.
(٥) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، ١/ ٣٣٢.

دين الإسلام.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى، لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى، ولم يعاقب من لم يتق! وهذا معلوم الفساد[١].

والنوع الثاني: الاستطاعة التي تكون مع الفعل، ويكون بها الفعل، فهذه ليست مناطًا للتكليف؛ بل يمنحها الله لمن يشاء، وهي التي تحصل بالتوفيق والهداية الخاصة، وهي المنفية عن الكفار في مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠٠ - ١٠١][٢].

وعدم الاستطاعة هنا ليس بظلم لهم بل هي قمة العدل، إن القرآن العظيم بين أن هذا الطبع وهذا الختم والإزاغة عن الحق لا يأتي الإنسان إلا بسبب ذنب من ذنوبه، فهو جزاء وفاق على بعض الذنوب، فالعبد إذا سارع إلى الكفر، وتكذيب الرسل - عليهم السلام- وإلى ما يغضب الله عاقبه بأن زاده ضلالًا فوق ضلاله، وظلامًا على ظلامه، وجاءه هذا الطبع بسبب كفره وبغيه وتمرده على الله عز وجل[٣].

فالشرع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى توابع هذه الاستطاعة، فإن كان الفعل ممكنًا مع مفسدة راجحة وضرر محتمل لم تكن هذه استطاعة شرعية، كالذي يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله، أو يصلي قائمًا مع زيادة مرضه، فإن كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الراجحة، فكيف يكلف مع العجز؟![٤].

وبهذا ندرك أن الله عز وجل الذي خلقنا أعلم بقدرتنا ومدى استطاعتنا على القيام بالتكاليف التي أمرنا بها، فهو عز وجل لم يكلفنا بما هو فوق طاقتنا، ولم يأمرنا بشيء لا نستطيع القيام به، فجعل سبحانه للتكاليف التي أمرنا بها حدًا معينًا وهي الاستطاعة، وإذا صدر التكليف حين الاستطاعة ثم فقدت هذه الاستطاعة حين الأداء، أوقف هذا التكليف إلى حين الاستطاعة.

(١) انظر: شرح الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص ٤٣٤- ٤٣٧.

(٢) انظر: تبيين الحقائق، الزيلعي ٢/ ٢١١، شرح العقيدة الطحاوية، عبد الرحمن البراك، ص٣٢٧.

(٣) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٤/ ٣٩.

(٤) انظر: منهاج السنة النبوية، ابن تيمية ٣/ ٤٩.

إذن هناك استطاعتان: الاستطاعة المشترطة للفعل، وهي الاستطاعة الشرعية وهي التي عليها مناط الأمر والنهي، والثواب، والعقاب، وعليها يتكلم الفقهاء، وهي الغالبة في عرف الناس.

أما الاستطاعة المقارنة للفعل الموجبة له هي الاستطاعة الكونية، وهي التي عليها مناط القضاء والقدر، وبها يتحقق وجود الفعل.

ونستدل من الآيات السابقة:

١. هناك أمور لا خيار لنا فيها مثل الصحة والرزق.

٢. الاستطاعة أوجدها الله عز وجل في كل مسلم حسب قدراته لتأدية الأوامر الشرعية.

٣. إن شرعنا الحكيم ييسر على العباد، ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وما جعل علينا في الدين من حرج، والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه، فهذا في الشرع غير مستطيع، لأجل حصول الضرر عليه، وإن كان قد يسمى مستطيعًا.

أنواع الاستطاعة

من فضل الله عز وجل على عباده أنه جعلهم قادرين على أداء التكاليف التي كلفوا فيها، وجعل فيهم الاستطاعة على أدائها، وعذر من لم يستطع القيام بها، فإن الله عز وجل لم يكلفنا ما لا طاقة لنا به ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وتتنوع الاستطاعة وتختلف أيضًا من شخص لآخر كل حسب استطاعته، والاستطاعة أنواع: استطاعة قلبية، واستطاعة بدنية، وأخرى مالية.

أولًا: الاستطاعة القلبية:

إن الذي يتحكم فيما يحققه الإنسان، ومدى إقباله على الشيء أو إدباره منه شيء واحد وهو الاستطاعة القلبية، وهي الاستطاعة النابعة من الذات فإن بها يتميز الناس في سلوكهم و مع الله -سبحانه وتعالى- وعبادتهم له عز وجل، وإن الشارع الحكيم لم يحمل الناس على شيء خارج قدرتهم واستطاعتهم خصوصًا في بعض الأمور، مثل: الجهاد مع الأعداء والجهاد مع النفس والصبر والعدل وغير ذلك.

ففي جهاد الأعداء يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:

٦٠].

لقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة هنا بالقدرة على الرمي(١).

ولكن الجهاد أيضًا يحتاج إلى الاستعداد النفسي، فالجهاد والموت في سبيل الله، وترك الأهل والدنيا بملذاتها، يحتاج إلى قدرة كبيرة لفعل ذلك، وهذه القدرة متباينة من شخص لآخر؛ لذلك قال تعالى: (ما استطعتم) فكلٌ حسب طاقته وقدرته القلبية.

وكان لنا في سيدنا عثمان بن عفان أسوة حسنة في قدرته على التخلي عن الغالي والنفيس في سبيل الله، وترك كل أمواله تحت تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشد الأوقات صعوبة(٢).

والتضحية بالروح أيضًا قدرات تتفاوت من شخص لآخر فكل حسب استطاعته.

وفي الجهاد مع النفس يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فجاءت هذه الآية موضحة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

حيث إن فيها تخفيفًا ويسرًا على العباد، وإن جهاد النفس له درجات، لذا لم يقع التحديد بهذا القياس بل وقع التحديد بالاستطاعة(٣).

عن السدي قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]. فلم يطق الناس هذا، فنسخه الله عنهم، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦](٤).

وفي رأي آخر: هي محكمة لا نسخ فيها، قال ابن عباس: «قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] أنها لم تنسخ، ولكن حق تقاته أن يجاهد لله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم»(٥).

والراجح أنه لا نسخ فيها حيث إن الآية الثانية موضحة وشارحة للأولى ولا تعارض

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، ٣/ ١٥٢٢، رقم ١٩١٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، ٥/ ٦٢٦، رقم ٣٧٠١، والحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، باب ذكر مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ٣/ ١٠٧، رقم ٤٥٥٣. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.
وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٨، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١٠/ ١٤٥٥.

(٤) جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٩.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٤٤.

في فهمها.

إن البشر لا بد أن يؤخذوا بالتدرج في أمورهم كلها، فهم لا يستطيعون الامتناع فجأة عما ألفوا، ولا الامتثال الفوري لما لم يعتادوا، لذلك كانت حكمة الله عز وجل في التدرج في الأحكام الشرعية حتى يتعدى القلب وينفذ بكل خضوع لأوامره سبحانه وتعالى، ومثال ذلك: التدرج في تحريم الخمر؛ إذ نزل على أربع مراحل، وكذلك التدرج في فرض الصلاة والصيام، وكان على مراحل أيضًا.

ولعلمه عز وجل بطبيعة من خلق من البشر، وحكمته في التشريع لهم؛ شرع للفرائض البدنية مقدمات تكون قبلها إذا حافظ المكلف عليها فإنها تهيئ قلبه وتعينه عليها، وتجعله يشعر بلذة العبادة؛ ذلك أن القلوب والأبدان تحتاج إلى ترويض وتدريب على فعل الطاعات، والبعد عن المحرمات، وينبغي تهيئتها لذلك حتى تجد لذة في الامتثال؛ ولئلا يكون فعل الطاعة أو الكف عن المحرم ثقيلًا عليها.

ففي الصلاة شرع الله تعالى الوضوء، وجعله شرطًا لها، وشرع التبكير إلى المسجد، والمشي إليه بسكينة ووقار، والدنو من الإمام، وجعل ذلك من سننها، بل يحسب ذلك صلاة له، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لا يزال أحدكم في صلاةٍ ما دامت الصلاة تحبسه لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة)**[(١)].

كل هذه الأعمال لأجل أن تكون لدى المصلي الاستطاعة القلبية لأداء الصلاة بخشوع وطمأنينة.

وفي نسك الحج والعمرة يتهيأ المسلم قبل أداء هذه المناسك ليستطيع قلبه التلذذ بهذه الشعائر وذلك عن طريق السفر الطويل، واتخاذ ملابس أخرى للنسك غير ملابسه التي اعتاد عليها، ويلبي في الميقات، ويستمر مهللًا في طريقه إلى مكة، فلا يدخلها إلا وقد تهيأ قلبه لأداء نسكه، وامتلأ خشوعًا وشوقًا لبيت الله الحرام.

إن كل عمل يريد صاحبه أن يحقق نجاحًا فيه فإنه يحتاج إلى قناعة به، واستعداد نفسي له، وقدرة قلبية وجسدية على تحقيقه، والتهيئة النفسية والذهنية والجسدية للعمل الصالح في رمضان قبل دخوله سبب لقوة العزم، والجد في استثمار رمضان، والاجتهاد في أنواع الطاعات.

لذا كان الصيام في شهر شعبان مقدمة تهيئ المكلف لصيام رمضان، فلا يدخل عليه رمضان إلا وقد روض نفسه على الكف عن الحرام، وألف الصيام والقرآن وكثرة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، ١/ ٤٦٠، رقم ٦٤٩.

الذكر والصلاة، فيستشعر حينها عظمة هذه العبادة، وذلك لأن القلوب قد تهيأت فلا تصاب بالملل والتعب من هذه العبادة[1].

والعدل من الأمور التي تحتاج إلى استطاعة قلبية لتحقيقه على أرض الواقع، وهذه الاستطاعة ليس لها حد معين، فلكل شخص حده الذي يستطيع الإتيان به، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١٢٩].

الحديث في هذه الآية عن زواج التعدد فقد نفى الله عز وجل الاستطاعة في العدل من قبل الرجل، فلابد أن يميل قلبه لواحدة دون الأخرى و إذا تحول قلب الرجل عن المرأة لا يعطيها حقها في الفراش، هذا معنى: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا)، المقصود به المحبة القلبية والفراش؛ لأن هذا فرع على عمل القلب، فالإنسان إذا كره بقلبه لا يمكن للجوارح أن تأتي بخلاف ما في القلب لكن المطلوب العدل في القسمة والنفقة وهذا في المستطاع وليس للقلب علاقة به[2].

فعدم الاستطاعة المقصود بها هنا العجز القلبي، وشيء طبيعي جدًا أن الإنسان لا يسأل عن هذا العجز القلبي؛ لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل فيقول: **(اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)**[3].

إن كان هذا هو حال رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم فما هو حال عامة البشر فهذا دليل على استيلاء النقص والقصور على جملة البشر، والقلوب ليست بأيدينا، إنما هي بيد الرحمن عز وجل، كما قال صلى الله عليه وسلم: **(إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء)**.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)**[4].

والاستطاعة القلبية مطلوبة من الداعية

---

(١) انظر: صفحات رمضانية، عبد الكريم العمري، ص٥٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري٩/ ٢٨٤، تفسير السمرقندي١/ ٣٤٤، الهداية، مكي بن أبي طالب٢/ ١٤٨٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٥/ ٤٠٧.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب النكاح، باب في القسمة بين النساء، ٣/ ١٤١٦، رقم ٢٢٥٣، والحاكم في المستدرك، كتاب النكاح، ٢/ ٢٠٤، رقم ٢٧٦١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، ٤/ ٢٠٤٥، رقم ٢٦٥٤.

إلى الله عز وجل في معترك الحياة الدعوية، حيث يجب أن تكون له قدرة على الصبر على مشاق الدعوة وصعوباتها وألا يستسلم بسهولة ويأتي منها قدر استطاعته.

وها هو سيدنا شعيب عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[هود: ٨٨].

أي: بقدر طاقته، إبلاغهم وإنذارهم، فهو عليه السلام ليس قادرًا على إجبارهم على الطاعة ولا يريد إلا فعل الصلاح ما استطاع فهو بشر وله حد لطاقته وتحمله مشاق هذه الدعوة العظيمة[١].

قال القرطبي في هذه الآية: «أي: ما أريد إلا فعل الصلاح، أي: أن تصلحوا دنياكم بالعدل وآخرتكم بالعبادة، وقال: ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة. و «ما» مصدرية، أي: إن أريد إلا الإصلاح جهدي واستطاعتي»[٢].

والصبر خلق عظيم وهو من صفات الأنبياء عليهم السلام وهو يحتاج إلى استطاعة قلبية على التحمل والتجمل به في كل جوانب الحياة، سواء كان الصبر على الطاعة أو الصبر على المعصية.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٤٤، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٩٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٤٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٩٠.

وفي قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر لدليل على أن التعلم يحتاج إلى الصبر الذي يحتاج بدوره إلى استطاعة قلبية لممارسته، حيث طلب موسى عليه السلام اتباع الخضر للتعلم منه فما كان رد الخضر: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧].

يريد أنه يرى منه أمورًا لا يقره عليها والخضر لابد من أن يفعلها، فيتضايق موسى لذلك ولا يطيق الصبر، وعلل له عدم استطاعته الصبر بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨].

قال الخضر لموسى إنك يا موسى إذا اتبعتني ورافقتني، فلن تستطيع معي صبرًا، بأي وجه من الوجوه؛ لأن الصبر على المجهول من الصعب بمكان[٣].

وفعلًا لم يصبر سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم على أفعال العبد الصالح.

فكان في كل مرة ينبهه لما قاله له سابقًا ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[الكهف:٧٥].

(٣) انظر: تفسير القران العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨١.

ثانيًا: الاستطاعة البدنية:

هي سلامة الجسد عن الآفات المانعة من التكليف، والمراد منها استطاعة التكليف: وهي سلامة الأسباب ووسائل الوصول لتحقيق التكليف[1].

وهي مشترطةٌ في وجوب الواجبات البدنية، كوجوب الطهارة، وأداء الصلاة على الوجه الأكمل، وفي الصوم، وفي الحج، وفي النذر البدني كالصلاة والصوم، وفي الكفارات البدنية كالصيام، وفي النكاح، وفي الحضانة، وفي الجهاد.

قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

أجمع العلماء على أن الاستطاعة البدنية شرط لوجوب العبادات، فالقيام للصلاة ركن من أركان الصلاة لا تصح إلا به للمستطيع، أما المريض الذي لا يقدر على القيام فيسقط عنه هذا الركن ويستطيع الصلاة وهو جالس فإن لم يستطع وهو مضجع فالدين الإسلامي دين يسر.

والحج فريضة واجبة على المسلمين لمن استطاع، وفسر علماء الأمة على أن الاستطاعة هنا استطاعة مالية واستطاعة بدنية[2].

عن ابن عباس رضي الله عنه **(أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: نعم)**، وذلك في حجة الوداع[3].

قال الشافعي رحمه الله أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرأة الخثعمية بالحج عن أبيها، دلت على أن قول الله عز وجل: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ [آل عمران: ٩٧].

على معنيين:

الأول: أن يستطيع الحج بنفسه وماله.

والثاني: أن يعجز عنه بنفسه بسبب أمر عارض كالكبر، أو المرض، أو إعاقة جسدية لا يقدر معها على الثبوت على المركب والسفر، ويكون من يطيعه إذا أمره بالحج نيابة عنه، إما بمقابل شيء يعطيه إياه وهو قادر على ذلك، وإما بغير شيء وهذه إحدى الاستطاعتين[4].

واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ [آل عمران: ٩٧].

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٣/ ٢٠٨٢.

(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ٢/ ٧٣٩.

(٣) صحيح البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب الحج عمن لا يستطيع الثبوت على الراحلة، ٣/ ١٨، رقم ١٨٥٤.

(٤) انظر: الأم، الشافعي ٢/ ١٣٢.

فقالت طائفة: الآية على العموم؛ إذ لا نعلم خبرًا ثابتًا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا إجماعًا لأهل العلم يوجب أن نستثني من ظاهر الآية، فعلى كل مستطيع الحج يجد إليه السبيل بأي وجه كانت الاستطاعة الحج على ظاهر الآية[1].

وقال بعض العلماء: إن الاستطاعة هي صحة وقوة الجسد[2].

وفي سياق قصة يأجوج مأجوج كان هناك حديثٌ عن الاستطاعة البدنية حيث لم يستطيعوا تسلق الجدار ولا نقبه من أسفل.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[الكهف: ٩٧].

هذا السد الذي تم بناؤه بمساعدة مجموعة من الضعفاء، وكان بناء هذا السد بصورة قوية تحدت طاقة العدوان في كل من يأجوج ومأجوج، وقد حاول كل منهما أن يصعد فوق السد ليتغلب عليه، ولكنه كان فوق طاقة كل منهما فلم يستطيعا اختراقه[3].

ولكن سيأتي اليوم الذي يستطيع فيه يأجوج ومأجوج من اختراقه، كما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فعن زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: (لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بأصبعيه السبابة والإبهام)، قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[4].

والصوم يحتاج الى استطاعة بدنية كي يستطيع الإنسان الاستمرار بالصيام دون أن يكون هناك مشقة أو ضرر يمسه، فإن الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا وسعها، والصيام استطاعة بدنية محضة.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[المجادلة: ٤].

أي: من لم يستطع صوم الشهرين الذي هو استطاعة بدنية لعذر من الأعذار فليطعم ستين مسكينًا.

وقال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٨٤].

اختلف علماء المسلمين في هذه الآية بين نسخ وعدمه، فقيل: إن الآية تتحدث

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٧٤.
(٢) انظر: الاستذكار، ابن عبدالبر ٤/ ١٦٥، نيل الأوطار، الشوكاني ٤/ ٣٤١.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني ٢/ ٤٣٦، تفسير الشعراوي، ٨/ ٤٨٧٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج، ٩/ ٦١، رقم ٧١٣٥.

عن المريض الذي يقع عليه اسم المرض وهو يستطيع الصوم خُيِر بين الصيام وبين أن يفطر ويفتدي ثم نسخ.

وذهب جماعة منهم: أن الآية محكمة غير منسوخة، ومعناها وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال الشباب، ثم عجزوا عنه عند الكبر فعليهم الفدية بدل الصوم[1].

قال بعض المفسرين: إنها ليست بمنسوخة والمقصود هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينًا، والفدية والجزاء هو القدر الذي يبذله الإنسان، يقي به نفسه من تقصير وقع منه في عبادة ونحوها، ويجب على من أفطر في رمضان ولم يقدر على القضاء، لكبر أو مرض لا يرجى برؤه أن يطعم مكان كل يوم مسكينًا مدًا من غالب قوت أهل البلد[2].

وعن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[البقرة: ١٨٤].

في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ثم ضعف، فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكينًا[3].

فمعنى يطيقونه: يتحملونه بمشقة كبيرة إما لكبر سن أو مرض لا يرجى برؤه[4].

فعلى تفسير الإطاقة بالجهد فالآية مراد منها الرخصة على من تشتد عليه مشقة الصوم في الإفطار والفدية، وقد سموا من هؤلاء: الشيخ الهرم، والمرأة المرضع، والحامل، فهؤلاء يفطرون ويطعمون عن كل يوم يفطرونه؛ لأن الصوم شاق عليهم[5].

وللمريض حالتان: إن كان لا يستطيع الصوم كان الإفطار له عزيمة، وإن كان يطيقه مع تضرر ومشقة كان رخصة، وإن الله يحب الأخذ بالرخص، وبهذا قال الجمهور[6].

حين طلب بنو اسرائيل من نبيهم ملكًا يقاتلون تحت إمرته، بعث الله عز وجل لهم طالوت، وسار بهم بجانب النهر طلب منهم ألا يشربوا منه، باستثناء غرفة باليد، أطاعه عدد وعصيه الأغلب؛ لأن الطاقة الجسدية لديهم لم تتحمل الجوع والعطش والتعب، فكانوا فريقين فريق تحمل واستطاع تنفيذ الأمر، وفريق لم يستطع، ولما جاوز طالوت النهر وتركه هو والذين آمنوا معه، وهم القليل الذي نفذ أمره، وصدق إيمانهم بربهم، ونظروا إلى كثرة عدوهم وهم قليلون فأوجس بعضهم خيفة، وقالوا: لا قدرة لنا

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١١١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، ٦/ ٢٥، رقم ٤٥٠٥.

(٤) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٦٠.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٦٦.

(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٧.

على محاربتهم، فضلًا عن غلبتهم[1].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وإن كان القائلون من المؤمنين معه، المنفذين لأمره في اغتراف الغرفة الواحدة من النهر، إلا أنهم قالوه إنما إظهارًا لواقع الحال، ورجاء المعونة من الله عز وجل، وليس نكوصًا وامتناعًا عن القتال[2].

ورأي آخر أنهم قالوه خيفة وجبنًا بعدما رأوا عدد وقوة العدو، أن كيف سيطيقون النصر عليهم وعلى كثرتهم[3].

فردت عليهم الفئة الواثقة بنصر الله، والمخلصة منهم الذين تيقنوا لقاء الله وتوقعوا ثوابه:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

والمراد منه تقوية قلوب الذين قالوا لا قدرة لنا على قتالهم والنصر عليهم، ليعرفوا أنما العبرة ليست بكثرة العدد، إنما العبرة بالتأييد الإلهي، والنصر السماوي الذي لا يأتي إلا من عند الله.

ثالثًا: الاستطاعة المالية:

والاستطاعة المالية: هي قدرة الشخص في القيام بأداء الواجبات المالية، مثل: الزكاة، وصدقة الفطر، والهدي في الحج، والنفقة، والجزية، والكفارات المالية، والنذر المالي، والكفالة بالمال، والإنفاق في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٦ - ٣٨][4].

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

الحج هو فرضٌ واجبٌ لله على من استطاع من أهل التكليف السبيل إلى حج بيته

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن كثير ١/ ٥٠٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٥١٣، التفسير الوسيط، مجمع البحوث ١/ ٤٢٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٥٥.

(٤) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٣/ ٢٠٨٣.

الحرام، ولقد فسر علماء التفسير المقصود بالاستطاعة هنا -بالإضافة إلى الاستطاعة البدنية - بالاستطاعة المالية، فتشمل البدن والمال والراحلة والطريق، حتى يتمكن المسلم من أداء فريضة الحج[1].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران: ٩٧]. قيل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: (الزاد والراحلة)[2].

كذلك يدخل ضمن الاستطاعة المالية أن يكون معه نفقته ونفقة عياله ومن تلزمه نفقتهم وكسوتهم لذهابه ورجوعه، وألا يكون عليه دين[3].

فلا حج على المريض والمقعد والمفلوج والأعمى وإن وجد قائدًا، والشيخ الكبير الذي لا يثبت على الراحلة بنفسه، والمحبوس، والممنوع من قبل السلطان الجائر عن الخروج إلى الحج؛ لأن الله تعالى شرط الاستطاعة لوجوب الحج[4].

وفي سياق الحديث عن النفقة تتحدث الآية التالية عن الاستطاعة المالية في مقدار الإنفاق عليهم، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٣٣].

وبما أن نفقة الولد تجب على والده بحكم الشرع، ونظرًا إلى أن تغذية ابنه الرضيع لا تتم إلا عن طريق الرضاعة التي تقوم بها والدته، أو من ينوب عنها في إرضاعه، فقد أوجب الله عز وجل على والد الرضيع أن ينفق على والدته أو مرضعته من غير تقتير ولا إسراف، في حدود استطاعته وعلى قدر حاله من سعة أو ضيق.

ويشمل الإنفاق كل ما يلزم لمعيشتها وكسوتها من غير تفريط ولا إفراط، ويظهر وجه الحاجة إلى لزوم هذه النفقة بالنسبة للأم التي طلقها الأب قبل ولادة الطفل[5].

فمن سنته سبحانه وتعالى أن لا يكلف عباده في جميع التكاليف إلا بما يطيقونه ويقدرون عليه كي لا يتذمروا ويمتنعوا وتكون عاقبتهم وخيمة.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤٧٣، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ٤٣٢.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الحج، باب ما جاء في إيجاب الحج بالزاد والراحلة، ٣/ ١٦٨، رقم ٨١٣، والحاكم في المستدرك، كتاب المناسك، ١/ ٦٠٩، رقم ١٦١٣.
قال الترمذي: حديث حسن.
وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٤٧٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٠٣.
(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ٣، ٣٣١.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٦٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٣٠.

وقال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٦ - ٧].

يتحدث عز وجل في هذه الآية عن قضية إرضاع الطفل من أمه بعد الطلاق وطلبها للأجرة، فتحث الآية الكريمة الزوج على النفقة على الزوجة والأولاد على قدر ما آتاه الله من المال، فقد علم -سبحانه- تفاوت أحوال خلقه بالغنى والفقر، وأن منهم الموسع والمقتر وبين ذلك، فأمر كلًا أن ينفق على من لزمته نفقته من زوجته وولده على قدر ميسرته لا يكلف الله نفسًا إلا ما آتاها فإنه تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وفي هذه الآية تطييب لقلب المعسر؛ ولذلك وعد له باليسر، فقال: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

فالحديث في هذه القضية عن الاستطاعة المالية[١].

وقد علل المنافقون عدم خروجهم للقتال مع رسول الله عز وجل بعدم الاستطاعة المالية.

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

تخلف المنافقون عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في معركة تبوك وكانت حججهم واهية ضعيفة، حيث عللوا عدم الخروج بعدم وجود الإمكانات المادية للقتال، والله عز وجل يعلم نفاقهم، وبيَن كذبهم بأنه إن كانت الشقة قريبة، والمغانم دانية، أخذوا مكانهم في صفوف المسلمين من أجل عرض فان في الدنيا وما تذرعوا بعدم وجود المال[٢].

وليست هذه سبيل المؤمنين المجاهدين ولا غاياتهم، وإنما سبيلهم قائمة على نية منعقدة أبدًا على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله عز وجل، ومن كانت تلك سبيله، وهذه غايته، فإنه لا ينظر إلى مغنم وكسب مادي، وإنما همه الأكبر وغايته القصوى الانتصار لدين الله، وإعزاز كلمة الله عز وجل.

وفي الحديث عن الفقراء الذين لم يستطيعوا القتال بسبب فقرهم وقلة ذات اليد يقول عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٤، ٤٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٢٢، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣١٠.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤١٢.

﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فسر العلماء قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] يعني التجارة[١].

فهم قد حبسهم الفقر وعدم الاستطاعة المالية عن الجهاد، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١].

ويحتمل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

أي: حبسوا أنفسهم في طاعة الله، لا يجدون ما يتجرون، ولا ما يحترفون، ولا ما يكتسبون.

وقيل المقصود ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يعني: النفقة والصدقة للفقراء الذين حبسوا أنفسهم في طاعة الله، وهم أصحاب الصُفَّة كانوا نحوًا من أربعمائة رجل، جعلوا أنفسهم للطاعة، وتركوا الكسب والتجارة[٢].

وقال ابن عباس: «هؤلاء قوم من المهاجرين حبسهم الفقر عن الجهاد في سبيل الله، فعذرهم الله فقال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] يريد: الجهاد»[٣].

قال قتادة: إنهم هم هؤلاء حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، لا يستطيعون ضربًا في الأرض، تركوا الخروج للتجارة والمعاش، ووقفوا أنفسهم على الحرب، لا يتفرغون للتجارة وطلب المعاش، وهم أهل الصفة[٤].

وقيل: حبسوا أنفسهم على طاعة الله عز وجل.

وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله[٥].

وقيل: هؤلاء قوم أصيبوا بجراح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد في سبيل الله، فصاروا لا يقدرون على القتال أحصرهم المرض الضرب في سبيل الله للجهاد[٦].

إن النصر على أعداء الله يحتاج إلى إعداد جيش قوي بعدده وعدته، أخذًا بالأسباب، وهذا الإعداد يحتاج إلى قوة مالية؛ لكي يتمكن الجيش من شراء المعدات اللازمة لتكوين أي جيش، وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٩٣.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ٢٦٦.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٦٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٧٧.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٨٨.
(٦) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٧٧.

قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[الأنفال: ٦٠].

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]: (ألا إن الرمي هو القوة، ألا إن الرمي هو القوة)[١].

ويقول الماتريدي في تفسيره لهذه الآية: «ادفعوا العدو عن أنفسكم؛ لما لعلهم يقصدون أنفس المؤمنين المقاتلين، أو ادفعوا عن أموالكم وذراريكم ويقصدون ذلك، أو ادفعوا عن دينكم إذا قصدوا دينكم، كل ما يتقوى به على حرب العدو من آلة الجهاد فهو مما عنى الله بقوله: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ والمفسرون يقولون: يعني السلاح من السيف والرماح والقسي والنشاب»[٢].

وكذلك بيَن ابن كثير أن المقصود هو أمر الله عز وجل بإعداد آلات الحرب لمقاتلة أعداء الله حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ [الأنفال: ٦٠][٣].

فالإعداد لقتال أعدائنا يكون في جميع أنواع القوة: المادية، والمعنوية، وإنما خصص الله عز وجل ذكر القوة هنا؛ لأنه لم يكن للمؤمنين في غزوة بدر استعداد تام للقتال، فنبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان ولم يكن هناك إعداد ونصر إلا بالمال، ولا سبيل إليه إلا بالإنفاق المطلق، كل على قدر طاقته وإيمانه، مع كامل الحق على التسابق فيه والعمل على إحراز ثوابه الكبير والأجر الحسن المعد للمنفقين يوم القيامة[٤].

ويحسن بنا كمسلمين أن نعرف حدود التكليف بإعداد هذه القوة التي أمرنا بها، فهي حدود الطاقة إلى أقصاها، بحيث لا تقعد وتتقاعص العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها[٥].

ونستدل من الآيات السابق ذكرها:

١. لابد أن يكون الإنسان مهيأ للقيام بالتكاليف الدينية، كي تتم على أحسن حال دون ملل أو تعب ويستشعر المرء بلذة العبادة.
٢. كي يستطيع المرء القيام بالتكاليف يجب أن تكون لديه القدرة البدنية على القيام بها، من صلاة وحج وصيام وغير ذلك.
٣. هناك بعض العبادات لا تقوم إلا بالإنفاق وبذل المال، مثل: التصدق

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، ٣/ ١٥٢٢، رقم ١٩١٧.
(٢) تأويلات أهل السنة ٢/ ٥٢٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٨٠.
(٤) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٤٧٤.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب٣/ ١٥٤٤.

والحج والجهاد في سبيل الله.

٤. التأني في فهم النصوص القرآنية والتدبر فيما يريده الله عز وجل منا وعدم التعجل في إصدار الأحكام، ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[النساء: ١٢٩].

٥. من الناس من يحكم من خلال هذه الآية بعدم التعدد ومحاربته من منطلق قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[النساء: ١٢٩].

٦. وهذا مفهوم خاطئ ولَيٌّ لأعناق الآيات لتوافق أهواء البعض؛ لأن المقصود هو عدم الاستطاعة في العدل من قبل الرجل، لأنه لابد أن يميل قلبه لواحدة دون الأخرى، وإذا تحول قلب الرجل عن المرأة لا يعطيها حقها في الفراش.

٧. الآيات المتحدثة عن الاستطاعة لا تعني الكسل والتقاعس عن أداء التكاليف بحجة أن هذا ما يستطيعه وهو غير مؤاخذ؛ لأن الله أعلم بنا وهو خالقنا وأعلم بمدى استطاعة كل فرد على أداء التكاليف المناطة به، فيجب أن يكون هناك وازع ديني ودافع داخلي للإنسان وتقوى من الله في أداء التكاليف ويبذل أقصى ما في وسعه تجنبًا من الوقوع في المحظور.

عدم الانتفاع بأدوات الاستطاعة

إن الله عز وجل عندما كلفنا بالتكاليف الشرعية كلفنا بما نطيق، وجعل فينا القدرة على الإتيان بها، وأعطانا أدوات هذه الاستطاعة فمن ملكها لا عذر له، ومن سلبها الله منه لحكمة من الله لا يؤاخذ، ومن هذه الأدوات: أعضاء الجسم التي بها نقوم بالعبادات كالصلاة والحج، ومنها أيضًا: النعم التي أنعم الله بها علينا كي نستطيع أداء فرائضه من مال وصحة ووقت.

أولًا: الجوارح:

وجوارح الإنسان هي أعضاؤه التي يكتسب بها[1]، وهذه الجوارح قد يكسب منها المرء إما خيرًا أو شرًا، وهي التي ستنطق حينما تسكت الألسنة عن النطق.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

إن حقيقة الإيمان التي أمرنا الله عز وجل بها هي أن يتواطأ القلب مع الجوارح، فتتحقق عبودية القلب مع عبودية الجوارح، فنحسن العبادة باطنًا كما نحسنها ظاهرًا، إن الإيمان الذي في القلب لابد أن تصدقه الجوارح بأعمالها، فإن التصديق يكون بالأفعال كما يكون بالأقوال فإذا اتقى الإنسان الله بقلبه أولًا كما يجب، اتقت جوارحه وانصاعت لما أمر به الله عز وجل[2].

إن الله عز وجل جعل للعباد قدرات فيما يقدرون عليه، وجعل لهم وسائل وهي الجوارح، والقدرات موجودة قبل الفعل وبعده، لكنها لا تتمثل لنا بفعل حقيقي إلا عند الفعل الحقيقي.

ومن أهم تلك الجوارح التي أنعم الله بها على الإنسان: (الأذن، والعين، والأنف، واللسان، واليدين، والقدمين، والبطن، والفرج)، وهذه الجوارح نعمة من الله كي يستطيع الإنسان أداء التكاليف المناطة به على أكمل وجه، فيجب أن تكون الجوارح مستعملة فيما يرضاه الله عز وجل، وأن يكون الإنسان مسئولًا عما اكتسب بجوارحه هو، لا عما اكتسبه غيره.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ولله عز وجل على العبد عبوديتان عبودية باطنة وعبودية ظاهرة، فللقلب عبودية وللسان والجوارح عبودية، فإن قام العبد فقيامه بالعبودية الظاهرة مع تجرده من حقيقة العبودية الباطنة فإن ذلك لا يقربه إلى

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ١/ ٥٥.

(٢) انظر: قانون التأويل، ابن العربي، ص ٣٦٣.

الله ولا يوجب له الثواب وقبول العمل، فإن المقصود امتحان القلوب وابتلاء السرائر، فعمل القلب هو روح العبودية ولبُها فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح[1].

وعرف علماء الأمة الاستطاعة بأنها: سلامة الآلات ورفع الموانع، والمقصود بسلامة الآلات هي صحة الجوارح، فالمريض ليس بمستطيع؛ لأن الآلات لديه فيها خلل[2].

فإذا صحت الجوارح وارتفعت الموانع الحسية سميت استطاعة يتوجب بسببها التكليف، وأهل السنة جعلوا الاستطاعة نوعين: نوعًا قبل الفعل وهو سلامة الجوارح، ونوعًا معه وهو ما يجب به وجود الفعل[3].

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

قد يظن البعض أن هذه الآية تدلل على أنه لا إثم اذا فعل الإنسان بعض المحرمات والمحظورات؛ لأن الآية تعذره، وتقدم له رخصةً ومخرجًا، ويترتب على هذا الفهم الخاطئ لمعنى الآية، أن يتفاوت التزام المسلمين بالإسلام في أداء واجباته، واجتنابًا لمحرماته، بحيث يختلف الالتزام بالإسلام وتطبيقه من شخص إلى آخر كل حسب استطاعته، فتكون لدينا الهمة الميتة، والقدرة العاجزة، والاستطاعة المريضة.

وحتى يكون فهمنا لمعنى الآية صحيحًا، وتصورنا لقيد الاستطاعة فيها صوابًا، لا بد أن نقرن معها آية أخرى، وهي قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[آل عمران:١٠٢].

حيث تأمرنا هاتان الآيتان بتقوى الله، وكل واحدةٍ منهما توضح المراد من الأخرى: فآية آل عمران تأمر بأن نتقي الله حق تقاته، والمقصود تقوى حقة صادقة مخلصة جادة، بأن نبذل غاية وسعنا، وأقصى استطاعتنا، في تحقيقها وتحصيلها، وأن نبقى على هذه التقوى طيلة حياتنا، بحيث لا يموت الإنسان منا إلا وهو مسلم، المعنى هو: بذل الوسع والجهد والاستطاعة في تحصيلها[4].

وآية التغابن تأمرنا بتقوى الله بمقدار

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية ٣/ ١٩٢.

(٢) انظر: البحر الرائق، ابن نجيم ٤/ ٣٣٩، رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين٣/ ٧٥٨.

(٣) انظر: مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة، عفيف الدين اليافعي، ص ١٦٥، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن المحمود ٣/ ١٣٣٣.

(٤) انظر: تصويبات في فهم بعض الآيات، صلاح الخالدي، ص ٩٧.

الوسع والاستطاعة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، ويوضح المراد بقوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ قوله في آل عمران: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، فلا يحقق المسلم التقوى بقدر الاستطاعة، إلا إذا كانت هذه التقوى حق التقوى، وهذا أمر قلبي لا يستطيع أحد معرفتها إلا الله عز وجل[1].

قال ابن عطاء: «الاستطاعة على الظواهر والأعمال، وحق تقاته على القلوب والأحوال» والمقصود اتقوا الله حق تقاته بتوجيه القلوب إليه بلا التفات إلي أي شيء دونه، واتقوا الله ما استطعتم بعمل الجوارح والأعضاء قدر الطاقات التي منحها الله لكم[2].

عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا)، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم)، ثم قال: (ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[3].

إنها استطاعة بخصوص الحج، الذي نص القرآن على وجوبه على المستطيع، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يجب على سؤال الرجل وكان السبب واضحًا أن أمته لن تطيق ذلك والله ورسوله أعلم بهذا.

وكذلك هناك أمور رخص الشرع فيها لغير المستطيع، فالمسافر يرخص له في الإفطار في حال مرضه أو صحته أما المسافر غير المستطيع فالإفطار في حقه واجب، حفظًا لبدنه، فيقصر ويجمع الصلاة، ويفطر ويقضي أو يفدي، والحائض والنفساء يجب عليهما الفطر وترك الصلاة، وتقضيان الصوم ولا تقضيان الصلاة، والحج واجب على المستطيع، ولا زكاة لمن لم يملك النصاب، وأكل الميتة مباحٌ للمضطر.

وقال علماء الأمة بحق من كانت لديه أدوات الاستطاعة ولم يقم بالتكاليف التي أمره الله عز وجل دون عذر أنه لا يكون مؤمنًا، فمن كان يعتقد بقلبه ويقر بلسانه ولكنه لا يعمل بجوارحه، وعطل الأعمال كلها من غير عذر فهذا ليس بمؤمن؛ لأن الإيمان كما ذكرنا وكما عرفه أهل السنة والجماعة أنه: قول باللسان واعتقاد بالقلب

(١) انظر: الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني، الشوكاني ٥/ ٢٦٠٨.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٧/ ٦٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، ٢/ ٩٥٧، رقم ١٣٣٧.

وعمل بالجوارح، لا يحصل الإيمان إلا بمجموع هذه الأمور، فمن ترك واحدًا منها فإنه لا يكون مؤمنًا.

وهناك آية أخرى يعتمد عليها بعض المسلمين، ويجعلونها حجةً ودليلًا ومستندًا لهم، على تقصيرهم في أداء الواجبات والتزام الأوامر وترك المحظورات، إذ أنها تبيح لهم ذلك وتجعلهم في منأى عن المسؤولية والعقاب جزاء هذا التقصير والتفريط، فيكون الإنسان صحيح البدن معافى في جوارحه التي هي مناط التكليف فيقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨].

ولا يعرف أن الآية تشرع وتبيح له أن يأخذ من الإسلام والشريعة ما يدخل ضمن وسعه وطوقه وقدرته، مهما كانت درجة الوسع والطوق والقدرة، حتى لو كانت في أدنى مستوياتها وأضعف حالاتها[١].

ثانيًا: النعم:

من أكبر النعم على أمة الإسلام أن الله هدى المسلمين لهذا الدين ومن جزيل نعمه عليهم بعد الهداية أن جعل الدين ميسرًا حسب الاستطاعة.

إذا تأملنا منطوق التكاليف الشرعية نجدها بنيت على الاستطاعة والمقدرة، فالله سبحانه وتعالى لا يطلب منا إلا ما نستطيع تأديته، على حسب الحالة التي نحن عليها.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

فهذه النصوص تمنحنا مساحة من الطمأنينة تجعلنا لا تضطرب ونتأثر في ممارسة الشعائر التعبدية بسبب موقف ألم بنا؛ لأن حياتنا كلها أصلًا عبادة، والغاية من إيجادنا في هذه الحياة أصلًا هو العبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ويشرع لمن أنعم الله عليه بنعمة إظهارها؛ فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، كما يشرع له بذلها لمن يحتاجها على حسب الاستطاعة.

قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

قال الحسن البصري: إن الله تعالى أدب عباده فأحسن أدبهم، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٧]. ما عاب قومًا ما وسع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا، ولا

(١) انظر: تصويبات في فهم بعض الآيات، صلاح الخالدي، ص ١٠٠.

عذر قومًا زواها عنهم فعصوه[١].

فعلى المؤمن أن يجتنب تحريم الطيبات التي أحلها الله له، وأن يتمتع بها بدون إسراف أو تقتير، وأن يداوم على شكر الله على نعمه وآلائه، وأن يجعل جانبًا من هذه النعم للإحسان إلى الفقراء والمحتاجين.

ويجب الحذر من التعامل مع نعم الله عز وجل، إذ يعتبر كل إهمال أو تقصير أو عدم استعمال جيد لأي نعمة من نعم الله عز وجل غبنًا فيها، كأن يغبن الإنسان في وقته وفي صحته وهما من أكبر النعم التي أنعم الله عز وجل به علينا.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ)[٢].

أي: أن هاتين النعمتين إن لم يستعملهما الإنسان وفق ما أراد الله فاستمتع بالصحة واسترخى وأطال النوم ولم يقم بالواجبات المطلوبة منه، واستمتع بالفراغ فأمضاه باللهو واللعب، ونعمة الصحة لم يستفد منها في الأعمال الصالحة التي تفيد المسلمين، ونعمة الفراغ لم يستفد منها في طلب العلم، تأخذه الحسرة والندامة يوم القيامة.

فالحديث يشير إلى أن الذي يوفق للعمل الصالح، واستغلال أوقات الصحة والفراغ إنما هم قليل، أما أكثر الناس فهم في خسارة وفي ضياع، فكيف بمن له الاستطاعة وعنده النعمة، وتجده يتقاعس ويتكاسل ويعلل ذلك بعدم الاستطاعة وأن هذا ما يطيقه وأن الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

وقال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، فالفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم[٣].

فعلى المرء استغلال هذه النعم في طاعة الله ما استطاع فقد قال المفسرون: المغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة، ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان، وحسرة كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام[٤].

ولا يجب أن يكون نعم الله عز وجل التي أنعمها علينا نقمًا، وقال الحسن وقتادة: إن التغابن أي: «الحسرة والندامة» في ثلاثة

(١) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٢٦٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، ٨/ ٨٨، رقم ٦٤١٢.
(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/ ٢٣٠.
(٤) انظر: عمدة القاري، العيني ٢٣/ ١١١.

أصناف: «رجل علم علمًا فعلمه وضيعه هو ولم يعمل به فشقي به، وعمل به من تعلمه منه فنجا به، ورجل اكتسب مالًا من وجوه يسأل عنها وشح عليه، وفرط في طاعة ربه بسببه، ولم يعمل فيه خيرًا وتركه لوارثه، فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه، ورجل كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعد، وعمل السيد بمعصية ربه فشقي»[1].

لذا علينا استخدام نعم الله عز وجل في الطاعات وفي القربات وفي المعرفة، وفي الطاعة، وفي الأعمال الصالحة، والوقت والقوة في خدمة عباد الله و في معرفة الله، وحضور مجالس العلم، وأداء الصلوات الخمس بإتقان، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، وأداء زكاة المال، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

من استعمل صحته وفراغه في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو النادم؛ لأن كل فراغ يعقبه انشغال وأن كل صحة يعقبها مرض، ومن لم يشغل نفسه بالحق شغلته بالباطل أما إذا استعد الإنسان للقاء الله عز وجل، استغل النعم التي أسبغها عليه من مال وصحة ووقت وعلم وغير ذلك من النعم أعظم استغلال، فهو في سعادة دائمة[2].

إن الله سبحانه عادلٌ في أحكامه في عباده، وإنه لا يكلفهم بما لا يطيقون، ولا يطالبهم بالمستحيل، ولا يريد من التشريعات إرهاق عباده، أو إيقاعهم في العسر والحرج والإثم والتقصير، فإن الله سبحانه قال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وإن الله عليمٌ حكيم، لطيف خبير، يعلم طاقة النفس الإنسانية ومقدار تحملها ووسعها.

وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ولذلك أوجب عليها التكاليف الشرعية، وهو يعلم أنه بمقدور هذه النفس الالتزام بها، وهو يعلم أنها كلها ضمن (وسعها وطاقتها؛ لذا كان من الواجب على من ملك أدوات الاستطاعة أن يكون منصاعًا لأوامر الله عز وجل دون تردد.

ومن الواضح من الآيات السابقة:

١. في واقعنا المعاصر نجد الشباب الذين أعطاهم الله عز وجل أقوى مرحلة الشباب التي هي مرحلة قوة بين ضعفين الطفولة والشيخوخة، يضيع الشباب وقته وصحته وماله في اللهو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٣٧، اللباب، ابن عادل الحنبلي ١٩/ ١٣١.

(٢) انظر: موسوعة الأخلاق، ياسر عبد الرحمن ٢/ ٣٢٣.

والعبث وضعف التحصيل، فلا يهتم بنعمة الوقت وهو جالس بالساعات الطوال في الانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، لا يأخذ وقتًا للعبادة ولا لطلب العلم، ملك كل أدوات الصحة ولا يستغلها الاستغلال الأمثل.

٢. من تمتع بنعمة الصحة والعافية وملك الجوارح والمال عليه أن يبادر إلى طاعة الله، وإلى التقرب إليه لئلا يتحسر على هذه النعم، و يصعق يوم القيامة أن كيف أمضى حياته في أعمال لا ترضي الله عز وجل.

٣. علينا حمد الله عز وجل على النعم التي حرم منها الكثيرون، ونحمده أن جعل فينا القدرة على عبادته، فكم من عاجز عن الحركة يتمنى أن يقوم لله ساجدًا راكعًا، وكم من فاقد القدرة على الكلام والسمع يتمنى أن يقرأ القرآن ويذكر الله عز وجل بلسانه.

٤. الآيات القرآنية المتحدثة عن الاستطاعة تطالب جميع المسلمين الالتزام بكافة التكاليف الشرعية، وتعلمهم أنه في وسعهم وطوقهم أن يقوموا بهذا الالتزام؛ لأن الله هو الذي يعلم مقدار تحملهم وطاقة قدرتهم، ولذلك ألزمهم بها وهذه الآيات تقرر حقيقةً هامةً في قواعد التشريع الإسلامي، وهي أن هذا التشريع بكافة جوانبه ومجالاته يراعى فيه الطاقة والوسع، وهذا التشريع يتصف بالسماحة واليسر، فلا عسر فيه ولا حرج، وهذا كله من مظاهر فضل الله على المسلمين، وإرادته اليسر والرحمة والخير بهم، عندما كلفهم بكل ما كلفهم به.

٥. ليس الإنسان هو الذي يحدد مقدار استطاعته، ولا هو الذي يحدد صورة الواجب بالنسبة له، ولكنه الشرع. إن الله عز وجل هو الذي يعلم مقدار الطاقة البشرية وحدود الاستطاعة فيها، ولذلك جاءت الرخص في الدين في بعض الحالات ولبعض الأشخاص، مراعاة لبعض الأعذار والأحوال.

٦. ينبغي على المؤمن أن يحذر من أن يتساوى يومه مع أمسه، فالإنسان ينبغي أن يتطور وأن يكون في ازدياد لكل ما يرضي الله عز وجل، ويستغل النعم التي منحنا الله إياها في طاعته، فالمؤمن الساعي في السير إلى الله يعمل لاستمرار عمله حتى بعد مماته فتجده ينشر العلم ويعمل على الصدقات الجارية ويربي أبناءه خير تربية حتى يستمر أثره الإيجابي بعد وفاته.

نفي الاستطاعة عما يعبد من دون الله

هناك من البشر من ظلم نفسه باتخاذه آلهة من دون الله، يعبدونها ويقيمون لها الشعائر، وهي لا تستطيع لنفسها نفعًا ولا ضرًا، فهم إما يعبدون جمادات يحتار العقل في إمكانية عبادتها، وإما يعبدون مخلوقات خلقها الله عز وجل، مخلوقات ضعيفة لا تجلب النفع لنفسها فضلًا عن جلبه لغيرها، بل هي ضعيفة تحتاج إلى من يقوم على أمورها.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان: ٣].

ففي هذه الآية تقريع للمشركين بعبادتهم ما دون الله، وتنبيه لهم على موضع خطأ فعلهم ببيان أن آلهتهم التي يعبدونها لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة ومع ذلك فهي لا تملك دفع ضر عن نفسها، ولا جلب منفعة إليها، ولا تملك إماتة ولا إحياء ولا بعثًا، فهذه هي صفتها فهي لا تستحق العبادة[(١)].

وهذه الآيات كنظيراتها من الآيات التي تؤكد أن الله هو الإله الواحد القادر، الذي بيده ملكوت كل شيء وغيره من المعبودات لا تضر ولا تنفع، ولا تسطيع فعل أي شيء.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[المائدة: ٧٦].

ويقول عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨].

وفي استفهام مليء بالتقريع والتوبيخ، يخاطب الله عز وجل الذين أشركوا به أن كيف تجعلون لله شريكًا لا يخلق شيئًا، ولا يقدر على نفع لهم ولا دفع عنهم، وهم يُخلَقُون ولا يخلقون شيئًا، ولا يستطيعون لمن جعلهم شركاء نصرًا إن طلبه منهم ولا لأنفسهم أيضًا، فالمعبود الذي تجب عبادته يكون قادرًا على إيصال النفع ودفع الضر، وهذه الأصنام ليست كذلك، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها، ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز[(٢)].

قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

(١) انظر: موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، حكمت بن بشير بن ياسين ٣/ ١٧٨.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٨٢، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣١٣.

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠].

يبين الله هنا مدى عجز ما يعبدون من دون الله، فهذه الآلهة لا تخلق شيئًا وهي تُخلَق، فكيف يكون إلهًا وهو مصنوع لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا؟ فهم عاجزون عن الخلق والتدبير ولا يعلمون شيئًا عن كيفية الخلق وتدبير أمور العباد[1].

وفي هذه الآيات ندد كتاب الله بسخافة المشركين وصغر أحلامهم، فهم يعبدون أصنامًا من دون الله، يتوجهون إلى من لا يملك لهم رزقًا، ولا يستطيع لهم ضرًا ولا نفعًا.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

فأولئك الشركاء لا يستطيعون أي قدر من الاستطاعة في النفع فضلًا عن الضر، وعبادة الأصنام والأوثان، بدلًا من أن يعبدوا خالقهم ورازقهم، ويفردوه بالعبادة والطاعة دون سواه[2].

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالذين تعبدون أيها السفهاء من دون الله لا يملكون لكم رزقًا، لا يقدرون أن يرزقوكم أبدًا، فاطلبوا الرزق من الله واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون[3].

ويبن الله مدى ضعف ما يعبدون من دونه فضرب مثلًا قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

قال القرطبي: «وخص الذباب هنا لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، واستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأربابًا مطاعين، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان»[4].

وقال ابن عباس: «كانوا يطلون الأصنام بالزعفران، فإذا جف جاء الذباب واستلب منه شيئًا، فأخبر الله تعالى أن الأصنام لا يستنقذون من الذباب ما استلبه»[5].

ونظير ذلك تشبيهه تعالى لمن اتخذ غير الله معبودًا كالعنكبوت التي تتخذ بيتًا واهنًا؛

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٩٦.
(٢) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجمع البحوث ٥/ ٦٥٥.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٥٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٩٧.
(٥) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤٥٦.

ليكون ملاذها، فهي تبني وتجتهد وأمرها كلها ضعيف متى مسته أدنى هابة أذهبته، فكذلك أمر أولئك المشركين وسعيهم مضمحل لا قوة له ولا معتمد[(١)].

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

وهنا وجه الله الخطاب إلى نبيه، آمرًا إياه أن يتحدى المشركين الذين يزعمون آلهة أخرى غير الله سبحانه وتعالى، بأن يطلب منهم دعوة شركائهم الذين يتمسكون بعبادتهم، ويعلقون عليهم الآمال بالعون والغيث، مسجلًا على أولئك الشركاء العجزة المفاليس، فقرهم المدقع وعجزهم التام[(٢)].

فالآية تبين حال آلهتهم الحقيقي، وأنهم إذا كانوا من العجز والعوز لا يملكون وزن ذرة في السماوات ولا في الأرض من خير أو شر، ولا يستطيعون جلب نفع ولا دفع ضر، فكيف يكونون آلهة تعبد ؟[(٣)].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وفي تساؤل منطقي تطرحه الآية الكريمة عن هؤلاء الشركاء، عن أي جزء من الأرض استبدوا بخلقه، وما سندهم في عبادتهم؟ أم لهم شرك في السماوات أم لهم شركة مع الله في خلق السماوات بكل ما فيها من عظمة تدل على قدرة الخالق فاستحقوا بذلك شركة في الألوهية وأن يعبدوا، بل لا شيء من ذلك، فبطل استحقاقها للعبادة[(٤)].

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[فاطر: ٤٠].

إن دعوة الحق تختص به تعالى، والمقصود بالدعوة الحق، توحيد الله وشهادة أن لا إله إلا الله[(٥)].

أما دعوة غيره من الأصنام والحيوانات والكواكب هي دعوة باطل، وهذه الآلهة التي يدعونهم من دون الله، لا يجيبونهم

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣١٨.
(٢) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد الناصري ٥/ ١٨٩.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٨/ ٢٦٥.
(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٦١، البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٥٥٠.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٩٧.

بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر، و في الآية تشبيه لكل من يتوقع من هذه الأصنام الاستجابة وتحقيق أي أمل يرجوه، إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه، يطلب منه أن يبلغ فاه، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه، ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب دعاءه أو يبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم[1].

قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾[الرعد: ١٤].

يتضح من الآيات السابقة ما يلي:

١. إن الله وحده هو القادر على النفع والضر وليس لأي أحد هذه القدرة لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غني بأمواله ولا صاحب سلطة بقراراته.

٢. ليست فقط الأصنام هي التي تعبد من دون الله وهي لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها نفعًا أو ضرًا، فهناك من يعبد البشر وقوانينهم الوضعية ويقدمونها على القوانين الإلهية بزعم أنها تملك حلولًا لمشاكل البشر على هذه الأرض، هذه القوانين التي أثبتت ضعفها وفشلها في حل المشاكل، ويقر الغرب أخيرًا أن التشريعات الإلهية وحدها هي القادرة على تغيير مجرى العالم وخاصة بعد انهيار الاقتصاد العالمي بسبب البنوك الربوية.

٣. إن الله عز وجل هو الرازق الكريم الذي يرزق عباده دون حساب، فعنده خزائن السموات والأرض ولا ينقص رزقه لعباده شيئًا إلا كغمس المخيط في مياه البحر، فعلينا ألا نقلق على رزقنا؛ لأنه بيد حكيم عليم يرزق البر والفاجر المؤمن والكافر.

موضوعات ذات صلة:

السعة، العبادة

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١١.